موقف أئمة الحركة السلفية
من التصوف والصوفية

موقف أئمة الحركة السلفية
من التصوف والصوفية

الإمام أحمد بن حنبل
الإمام ابن تيمية الحراني
الحافظ الذهبي
الإمام ابن قيم الجوزية
الحافظ ابن كثير
الحافظ ابن رجب الحنبلي
الإمام محمد بن عبد الوهاب

للفقير إلى ربه الكريم
عبد الحفيظ بن ملك عبد الحق المكي

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

الطبعة الثالثة

1421 هـ - 2001 م

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

القاهرة - مصر 120 شارع الأزهر ص ب 161 الغورية
هاتف 5932820 - 2704280 - 2741578 (202) فاكس 2741750 (202)

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونؤمن به ونتوكل عليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، وأشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبده ورسوله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وأصحابه وأزواجه وأتباعه أجمعين وبارك وسلم تسليماً .

أما بعد ! فما لايخفى على العقلاء من أهل الدين أن الفتن الفكرية وآراء الفرق الباطلة بدأت تنشط لنشر سمومها في المجتمعات الإسلامية وخاصة بعد أن بدأت تظهر بفضل الله وتوفيقه آثار النهضة الإسلامية في كل بقعة من بقاع الأرض ، ويريد كل صاحب هوىً وغرض أن يستفيد من هذه الظاهرة المباركة لصالحه ، فكم من عدو للإسلام جاء بكفر صريح وباطل محض مدعياً أنه هو الإسلام الحق كذباً وزوراً .

فهناك القاديانية الكافرة يدعي زنادقتها ، أن كفرهم هو الإسلام الحقيقي ، وأن من لم يؤمن بنبوة المرزا غلام أحمد القادياني المتنبيء الكذاب فليس بمسلم ـ نعم هكذا يقولون مع اعتراف متنبئهم أنه غرس الاستعمار الإنجليزي ، ماأوجدوه إلا لإفساد المسلمين وإماتة الإسلام ، والتشكيك في عقائده وإضعاف شوكة المسلمين وإيجاد الفرقة بينهم . ومع أن علماء الأمة الإسلامية والحمد لله قد أفتوا بالإجماع بكفرهم الصريح وخروجهم من ملة الإسلام ، ولكنهم مع ذلك ينشرون مراكزهم في مختلف بلدان العالم ، لاسيا في بلاد إفريقيا وأوروبا وأمريكا البعيدة عن مركز الإسلام .

ثم هناك الشيعة الروافض بباطلهم الواضح مع عقايدهم الفاسدة والثابتة في

مراجعهم الأساسية كالصحاح الأربعة عندهم ، من اعتقادهم بتحريف القرآن الكريم ، وأن القرآن الموجود لدينا الآن «الذي يبدأ بالفاتحة وينتهي بالناس » يعتقدون أنه ـ ونعوذ بالله ـ ليس هو القرآن الذي أنزل على محمد ﷺ ، بل إن ذلك القرآن بدّل وزيد فيه ونقص منه ، إلى آخر ترّهاتهم .

كما يعتقدون أنه قد ارتد الناس (أي الصحابة رضي الله عنهم) بعد رسول الله ﷺ إلا خمسة أو سبعة فقط . نعم هكذا في مراجعهم روايات صحيحة عندهم .

يعتقدون أن الشيخين : الصديق والفاروق وذا النورين ، وبقية العشرة (باستثناء سيدنا علي رضي الله عنه) وغيرهم من أكابر أصحاب رسول الله ﷺ أبو عبيدة وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص وأمهات المؤمنين أزواج رسول الله ﷺ الطاهرات المحترمات يعتقدون فيهم جميعاً ـ ونعوذ بالله ـ أنهم ارتدوا عن الإسلام بعد وفاة رسول الله ﷺ ، وهكذا المبالغة في اعتقادهم في أئمة آل البيت الاثني عشر ، حتى إنهم يرفعونهم في كثير من الأمور فوق درجة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وعقائد أخرى كثيرة فاسدة معلومة ، وهي موجودة في الكتب المتعلقة بذلك .

ولكن مع هذا كله يزعم هؤلاء الشيعة الإثنا عشرية الجعفريون أن دينهم هذا « بل باطلهم » هو الإسلام الصحيح والدين الحق . ﴿ **سبحانك هذا بهتان عظيم** ﴾ .

وهذا الظلم والبهتان لم يبتل به الإسلام فقط ، بل قد ابتليت به السلفية أيضا ، فنرى كذلك كل صاحب هوى وغرض يأتي بآراء شاذة وفاسدة ويسميها بالسلفية ، ويخدع بها البسطاء والسذج من المحبين للدين والسلف الصالح رحمهم الله ، وينشر فيهم الأفكار الخبيثة والآراء الباطلة المخالفة لأصول

الدين ومذهب السلف الصالح وآرائهم . ويتأثر الناس « مساكين » لدعاياتهم المكثفة ويغترون بها فيضلون ويهلكون .

وليس ببعيد ماجاءتنا به شرذمة جهيمان العتيبي في معقل الإسلام ومنبع الهدى بأم القرى ، حيث أخافوا عباد الله من الحجاج والمعتمرين والمصلين بحرم الله بالأسلحة المتنوعة ، حتى إنه عطلت شعائر الأذان والصلاة بالمسجد الحرام لنصف شهر ، وامتلأت خلاوى الحرم الشريف بالنجاسات والقذارات طوال هذه المدة ، ثم هم معتقدون بآراء وعقائد الخوارج الفاسدة ، وادعوا ظهور المهدي المنتظر منهم أمام بيت الله كذبا وزورا ، ونشروا الفساد وكل ذلك باسم « السلفية » .

والله يشهد أن « السلفية » لاعلاقة لها البتة بكل ذلك ، ولا يقول بشيء من ذلك أي من السلف الصالح رضي الله عنهم ، إلا إن أرادوا بالسلف : سَلَفَهم من الخوارج والمفسدين ونحوهم . فنعم ـ وأما سلف المسلمين « السلف الصالح » فإنهم بريئون ورب الكعبة من هذه الضلالات .

وهكذا نسمع بين حين وآخر من بعضهم الطعن والتشنيع فيمن قلّد إماما معيَّنا في الأمور الفقهية ، وعمل بمذهب أحد من الأئمة الأربعة المجتهدين المرضيين : أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد رحمهم الله تعالى ورضي عنهم ، الذين أجمعت الأمة وعلماؤها منذ القرون الأولى على جواز تقليد أي منهم في الفقهيات .

ولكن ترى بعض أولئك المنحرفين في نواحٍ شتى من الأرض ينشرون باطلهم مدعين أن التقليد لأحد هؤلاء الأئمة الأربعة ـ ونعوذ بالله ـ بدعة ضلالة ، بل يتجرأ بعضهم إلى أكثر من ذلك ويقول : إنه « ضلال وشرك » ، وكل هذا مع الأسف الشديد باسم « السلفية » المظلومة المسكينة أيضا .

وينسى هؤلاء أو يتناسون أن أئمة الدين والهدى وأعلام العلم والإيمان العاملين بهذه المذاهب والمقلدين لأئمتها مثل : الطحاوي ، والعيني ، والألوسي ، والقاري ، والزيلعي ، والدهلوي (الأحناف) ، والنووي ، والعسقلاني ، والغزالي ، وابن كثير ، والذهبي ، والسيوطي (الشافعية)، والقرطبي ، والباجي ، وابن عبد البر ، وابن العربي (المالكية) ، وابن عقيل ، وابن قدامة ، والجيلاني ، والمقدسي ، وابن عبد الهادي (الحنابلة) ، بل وأئمة السلفية الحافظ ابن القيم ، وابن رجب الحنبليين ، ثم الإمام الشيخ محمد بن عبد الوهاب وغيرهم عشرات الألوف من الأئمة والعلماء الأجلاء يصبحون على هذا الرأي الفاسد : (مشركين ومبتدعين) .

نعم هكذا يضلِّلون ويكفِّرون ويبدِّعون أئمة السلفية وسادتهم وباسم « السلفية » ـ فيا سبحان الله ـ وكما يقال : (الجنون فنون) . ونسأل الله العافية .

وهكذا نسمع بين حين وآخر من ينادي بأن « التصوف كله باطل وأن الصوفية طائفة زائغة لاعلاقة لها بالإسلام ، بل إنهم أعداء للدين وأن أصلهم من اليونان أو بوذية الهند ..... إلى آخر ذلك من الترهات » ، وهذا كله أيضا مع الأسف الشديد باسم « السلفية المسكينة » .

مع أن الواقع بخلاف ذلك ، فإن الصوفية عند أئمة الحركة السلفية وسادتهم طائفة إسلامية مثل بقية الطوائف الإسلامية الأخرى كالمحدثين والفقهاء والمتكلمين والمؤرخين والمجاهدين وغيرهم ، فيهم المصيب والمخطيء ، والصالح والطالح ، والأصلي والمزيف .

ولكن إذا أطلق اللفظ فإنه يراد به دائما : الصالح والمصيب والصحيح منهم ، فمثلا لو قلنا : « المحدثون » فالمراد بهم عند الجميع : المحدثون الصالحون

الذين حفظوا على الأمة أحاديث رسول الله ﷺ وخدموها وبلغوها ونشروها بالطريقة المرضية كالأئمة : البخاري ومسلم والترمذي وابن حجر العسقلاني والسيوطي والكاندهلوي وغيرهم .

ولا يراد بكلمة « المحدثون » مطلقا ، عند أي أحد ، أولئك « الدجالون الكذابون الوضّاعون » المنتسبون إلى هذه الطائفة الكريمة ، والذين قد بين فسادهم ودجلهم أئمةُ الجرح والتعديل في كل عصر وزمان هذا كما هو معلوم للجميع .

وهكذا هو الحال في الفقهاء والمتكلمين والمجاهدين والمؤرخين وغيرهم من طوائف المسلمين . وهكذا يجب أن يكون الحال في الصوفية أيضا .

فعندما يقال : « الصوفية » فحتما يكون المراد منهم : الفضيل بن عياض ومعروف الكرخي وأبو سليمان الداراني وبشر الحافي وعبد القادر الجيلاني والجنيد البغدادي وغيرهم ممن سار على نهجهم القويم .

ولا يراد « بالصوفية » البتة أولئك « الدجالون » المخرفون المخالفون لكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ الدخلاء على التصوف وقطاع الطريق إلى الله والدار الآخرة .

بل الذي ندين الله سبحانه وتعالى به وما نعتقده والحمد لله وبفضله وتوفيقه في قرارة نفوسنا ، وما وجدنا عليه مشايخنا رحمهم الله هو أنه حتى هؤلاء السادة الكرام الفضيل وبشر والداراني والجنيد والغزالي والجيلاني وغيرهم من الأئمة الكبار وأمثالهم ومن سواهم كلهم يؤخذ من قولهم ويترك إلا المصطفى الصادق المصدوق ﷺ .

فالحجة دائماً كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ، فمن وجدناه موافقاً لهما ولأصولهما وتعاليمهما فعلى الرأس والعين ، ومن خالفهما وخالف أصولهما وتعاليمهما

فعلى النعال ، كائنا من كان ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

وبما أن هذه الفتنة : أي مخالفة التصوف والصوفية بدأت تنشط في بعضهم باسم السلفية أيضا ، كان لزاما على العلماء ورثة الأنبياء وأهل الحق أن يبذلوا جهودهم لردعها ومكافحتها فإنهم هم المسئولون عن ذلك حيث إنه من أهم واجباتهم ، ولامجال للتقصير في ذلك لأهميته .

وقد قال ﷺ : « يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ، ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين » رواه البيهقي في كتاب المدخل عن إبراهيم بن عبد الرحمن العذري مرسلا .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان » رواه مسلم .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أيضا (في حديث طويل) أن رسول الله ﷺ قال : « ولا يمنعن أحدا منكم هيبة الناس أن يقول بحق إذا علمه » وفي رواية « إن رأى منكراً أن يغيره » رواه الترمذي ، كذا في المشكوٰة .

وقد بدأ العلماء والحمد لله مكافحة هذه الفتنة في كل مكان أداء للواجب الشرعي وإحقاقا للحق فجزاهم الله خيرا وزادهم توفيقاً وسدادا ونصرهم بنصره .

وقد سنح في خاطري أن أجمع في مؤلَّف أقوال « أئمة الحركة السلفية » في التصوف وأموره المتنوعة ومدحهم للسادة الصوفية والثناء عليهم ، حتى يثبت للجميع أن هذا القول (بأن التصوف كله باطل وأن الصوفية طائفة زائغة لاعلاقة لها بالإسلام بل هم أعداء له وأن أصلهم من اليونان وبوذية

الهند ...... الخ) ، نسبته إلى أئمة السلفية كذب وبهتان ، وليعلم يقينا أن من ادعى ذلك فإما أنه جاهل مغرور أو كذاب مفتون .

وعرضت هذه الفكرة على بعض أهل العلم والصلاح فأيدوها وحرضوني على إنجازها للضرورة الدينية ، فاستخرت الله تعالى الجواد الكريم ثم عقدت العزم متوكلا عليه سبحانه طالبا منه وحده المدد والرشد والسداد ، وشرعت بتوفيقه.

فاللهم إن قلوبنا وجوارحنا ونواصينا بيدك لم تملكنا منها شيئا فإذا فعلت ذلك بنا فكن ياربنا ياكريم أنت ولينا واهدنا إلى سواء السبيل .

واللهم ألهمنا مراشد أمورنا وأعذنا من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا وخذ بقلوبنا إليك ، ووفقنا لما تحبه وترضاه من القول والعمل والنية والهدى إنك على كل شيء قدير آمين .

وبدأت في زحمة أشغالي وسيئآتي ، فاخترت أولا الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب ، وشيخ الإسلام ابن تيمية ، ثم زدت عليهما أربعة من كبار « أئمة الحركة السلفية » وذلك لاعتماد الإمام الشيخ محمد بن عبد الوهاب على علمهم وإمامتهم ولأنهم أيضا كلهم من أرشد تلامذة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمهم الله.

يقول الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب كما ورد في مجموع مؤلفات الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب ، بالقسم الخامس (الرسائل الشخصية) مانصه : (وغير خاف عليكم ماأحدث الناس في دينهم من الحوادث وماخالفوا فيه طريق سلفهم ، ووجدت المتأخرين أكثرهم قد غير وبدل ، وسادتهم [١] وأئمتهم وأعلمهم وأعبدهم وأزهدهم مثل : ابن القيم ، والحافظ الذهبي ، والحافظ العماد ابن كثير ، والحافظ ابن رجب وقد اشتد نكيرهم على أهل عصرهم ....) اهـ.

---

(١) أي سادة المتأخرين .

فهؤلاء الأربعة مع الاثنين المذكورين أولا صاروا ستة ، ثم رأيت أن أجعل مسك الختام وحتى يكمل به الوتر في العدد إمام أئمة السلفية وإمام أهل السنة المبجل أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني قدس الله روحه .

فهؤلاء سبعة من أقطاب السلفية ، وقد جمعت ماأوردت هنا على عجل شديد مع أن ما تركته من كلامهم في نفس الموضوع أكثر بكثير جدا مما ذكرته.

وإنما هي نماذج فقط مما ورد في كلامهم عن التصوف والصوفية ، وقد حاولت أن أقدم كلام « أئمة الحركة السلفية » السابق ذكرهم نقيا جليا ، ولم أعلق على شيء من ذلك إلا ماكان للضرورة الشديدة جداً حتى يتوضح الموقف الصحيح لهم .

وأرجو الباري الكريم أن يجعله سببا لإظهار الحق ولرفع الغشاوة عن القلوب والأبصار بفضل الله وكرمه .

نسأله سبحانه أن يحيينا ويميتنا ويحشرنا على ماكان عليه الفرقة الناجية أهل السنة والجماعة تحت لواء إمامهم وسيدهم ومولاهم وقائدهم وحبيبهم حبيب رب العالمين وسيد الأنبياء والمرسلين الرحمة للعالمين والأسوة الحسنة في جميع الشئون لجميع المؤمنين محمد بن عبد الله القرشي الهاشمي صلى الله تعالى عليه وعلى آله وأصحابه وأزواجه وأتباعه أجمعين إلى يوم الدين .

وجعلنَا منهم برحمته وجوده إنه أرحم الراحمين وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

حرره الفقير إلى ربه الكريم

عبد الحفيظ ملك عبد الحق المكي

في ٧ / ٣ / ١٤٠٧ هـ

مكة المكرمة

المملكة العربية السعودية

الإمام محمد بن عبد الوهّاب

الإمام الشيخ محمد بن عبد الوهاب النجدي الحنبلي

لقد اهتمت جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض بعقد « أسبوع الشيخ محمد بن عبد الوهاب » نشرت فيه جميع مؤلفات الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب ، فجاءت جميعها في اثني عشر مجلدا .

وقد طالعت بفضل الله كل هذه المجلدات صفحة صفحة ، فلم أجد فيها في أي مقام أي طعن أو ردّ إنكار من الشيخ محمد عبد الوهاب على التصوف أو على أحد من مشايخ التصوف بسبب تصوفه ، وهذه المجلدات موجودة ميسرة تباع في الأسواق والمكتبات ويمكن لأي أحد أن يقتنيها ويطالعها ويتحقق فيما ذكرته .

بل إني قد وجدت قطعات مختلفة في مؤلفاته هذه من كلامه الذي يتبين منه بجلاء ووضوح موقفه الصريح من التصوف والسادة الصوفية رحمهم الله ، وسأذكرها فيما يأتي بتوفيق الله وإحسانه وعليه سبحانه التكلان : ـ

١ ـ « القسم الثالث من مؤلفات الإمام الشيخ محمد بن عبد الوهاب » جزء « فتاوى ومسائل » ، قام بجمعها وتصحيحها ومقابلتها على أصولها الشيخ صالح بن عبد الرحمن الأطرم ومحمد بن عبد الرازق الدويس في الصفحة رقم (٣١) المسألة الخامسة ، سئل رحمه الله عن مسائل مفيدة فأجاب:

(اعلم ـ أرشدك الله ـ أن الله سبحانه وتعالى بعث محمداً ﷺ بالهدى الذي هو العلم النافع ، ودين الحق الذي هو العمل الصالح .

إذا كان من ينتسب إلى الدين : منهم من يتعانى بالعلم والفقه ويقول به كالفقهاء ، ومنهم من يتعانى العبادة وطلب الآخرة كالصوفية .

فبعث الله نبيه بهذا الدين الجامع للنوعين [١] .

---

(١) أي الفقه والتصوف ، كما هو واضح .

ومن أعظم ماامتن الله به عليه وعلى أمته أن أعطاه جوامع الكلم ، فيـذكر الله تعالى في كتابه كلمة واحدة تكون قاعدة جامعة يدخل تحتهـا من المسـائل مالا يحصى .

وكذلك يتكلم رسول الله ﷺ بالكلمة الجامعة . ومن فهم هذه المسألـة فهما جيـداً فهم قولـه تعـالى ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم** ﴾ ، وهـذه الكلمـة أيضـا من جوامع الكلم .... الخ) .

٢ ـ القسم الثاني من مؤلفات الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب (الفقـه) المجلـد الثـاني صفحـة (٤) في رسـالـة (أربع قواعـد تـدور الأحكام عليهـا) يقول فيها :

(اعلم رحمك الله أن أربع هذه الكلمات مع اختصارهن يدور عليها الـدين سواء كان المتكلم يتكلم في علم التفسير أو في علم الأصول أو في علم أعمال القلوب الـــذي يسمّى علم السلـوك [١] أو في علم الحـــديث أو في علم الحـــلال والحرام والأحكام الذي يسمى علم الفقـه أو في علم الوعـد والوعيـد أو في غير ذلـك من أنواع علوم الدين .... الخ) .

٣ ـ مؤلفـات الإمـام الشيـخ محمـد بن عبـد الـوهـاب القسم الرابـع : (التفسير ومختصر زاد المعاد) مختصر زاد المعاد صفحة (٨٤)تأليف الإمـام الشيـخ محمـد ابن عبد الوهاب قال : فصل « في هديه ﷺ في الاعتكاف » :

لمـــا كان صلاح القلب واستقامته في طريق سيره إلى الله تعالى متوقفا على جمعيته على الله ولمّ شعثه بإقباله بالكلية على الله ، فإن شعث القلب لا يلمـه إلا الإقبـال على الله ، وكانت فضـول الشراب والطعـام وفضـول مخـالطـة الأنـام

---

(١) وهو التصوف كما هو معلوم اهـ .

وفضول المنام وفضول الكلام مما يزيده شعثا ، ويشتته في كل واد ، ويقطعه عن سيره إلى الله تعالى ويضعفه أو يعوقه ويوقفه ، اقتضت حكمة العزيز الرحيم بعباده أن شرع لهم من الصوم ما يذهب فضول الطعام والشراب ، ويستفرغ من القلب أخلاط الشهوات المعوقة له عن سيره إلى الله وشرعه بقدر المصلحة بحيث ينتفع به العبد في دنياه وأخراه ولا يضره .

وشرع لهم الاعتكاف الذي مقصوده وروحه عكوف القلب على الله والانقطاع عن الخلق والاشتغال به وحده فيصير أنسه بالله بدلا عن أنسه بالخلق فيعده بذلك لأنسه به يوم الوحشة في القبر .

ولما كان هذا المقصود إنما يتم مع الصوم ، شرع الاعتكاف في أفضل أيام الصوم وهو العشر الأخير من رمضان ، ولم يذكر الله سبحانه الاعتكاف إلا مع الصوم ولافعله رسول الله ﷺ إلا مع الصوم .

وأما الكلام فإنه شرع للأمة حبس اللسان عن كل مالا ينفع في الآخرة .

وأما فضول المنام فإنه شرع لهم من قيام الليل ماهو من أفضل السهر وأحمده عاقبة ، وهو السهر المتوسط الذي ينفع القلب والبدن ولا يعوق العبد عن مصلحته . ومدار رياضة أرباب الرياضات والسلوك [1] على هذه الأركان الأربعة ، وأسعدهم بها من سلك فيها المنهاج المحمدي فلم ينحرف انحراف الغالين ، ولاقصَّر تقصير المفرطين ، وقد ذكرنا هديه في صيامه وقيامه وكلامه ، فلنذكر هديه في اعتكافه .

---

(١) وهم الصوفية كما هو معلوم اهـ .

٤ ـ مؤلفات الإمام الشيخ محمد بن عبد الوهاب (ملحق المصنفات) « هذه المسائل » صفحة (١٨٢) قال :

(ومعلوم أن الأمة مأمورة بتبليغ القرآن لفظه ومعناه وتبليغه لغير العرب بالترجمة ، وإذا تدبر المؤمن العليم سائر مقالات الفلاسفة وغيرهم من الأمم وجد القرآن والسنة كاشفا لأحوالهم مبينا لحقهم ، مميزا بين حق ذلك وباطله ، والصحابة أعلم الخلق به ، وهم أقوم الخلق بجهاد الكفار والمنافقين ، كما قال ابن مسعود : من كان مستنا فليستن بمن مات فإن الحي لاتؤمن عليه الفتنة ، أولئك أصحاب محمد كانوا أبر هذه الأمة قلوبا ، وأعمقها علما ، وأقلها تكلفا ، قوما اختارهم الله لصحبة نبيه ولإقامة دينه فاعرفوا لهم حقهم وتمسكوا بهديهم فإنهم كانوا على الهدى المستقيم .

فأخبر عنهم بكمال بر القلوب مع كمال عمق العلم ، وهذا قليل في المتأخرين كما يقال : من العجائب : فقيه صوفي وعالم زاهد .

فإن أهل بر القلوب يقترن بهم كثير لعدم المعرفة التي توجب المنهي عن الشر والجهاد [1] ، وأهل التعمق في العلم قد يذكرون من معرفة الشرور والشبهات ما يوقعهم في الغي والضلال .

وأكثر المتعمقين في العلم من المتأخرين يقترن به التكلف المذموم من المتكلمين والمتعبدين ، وهو القول والعمل بلا علم وطلب مالا يدرك خلافا لما عليه الصحابة .

وهذا منٌّ من الله على هذه الأمة كما في أثر المسيح « أهب لهم من علمي وحلمي » وهذا من خواص متابعة الرسول ، فمن كان له أتبع كان فيه أكمل) .

---

(١) لعلها : الفساد المحقق اهـ .

٥ ـ (ملحق المصنفات) « هذه مسائل » وفي صفحة ١٢٤ ذكر عقب بحث نفيس عمن أنكر محبة الله ومن أثبتها ، قال :

(فنفس محبته أصل عبادته ، والشرك فيها أصل الشرك في عبادته أولئك فيهم شبه من النصارى وفيهم شرك من جنس شرك النصارى) .

ولهذا كان مشايخ الصوفية العارفون يوصون كثيرا بمتابعة العلم ، قال بعضهم : « ماترك أحد شيئا من السنة إلا لكبر في نفسه » .

وهو كما قال ، فإنه إذا لم يكن متبعا لما جاء به الرسول كان متبعا لهواه بغير هدى من الله ، وهذا عيش النفس ، وهو من الكبر ، فإنه شعبة من قول الذين قالوا : ﴿ **لن نؤمن حتى نؤتى مثل ماأوتي رسل الله** ﴾ اهـ .

٦ ـ وقد نقل العلامة الجليل الشيخ محمد منظور النعماني « رئيس قسم الحديث بدار العلوم ندوة العلماء بلكناؤ الهند « سابقا » ، وعضو المجلس التأسيسي للجامعة الإسلامية دار العلوم ديوبند » في رسالته « دعايات مكثفة ضد الشيخ محمد بن عبد الوهاب » طبعة مكتبة الفرقان ، صفحة (٧٦)بعد مابيَّن أن للشيخ عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب رسالة مستقلة شاملة تلقي الضوء الساطع على دعوة وحركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، يقول فيها مانصه : ـ

(فأخبرناهم بأن الذي نعتقد وندين الله هو مذهب أهل السنة والجماعة وسلف الأمة في أصول الدين ، وأما في الفروع فنحن على مذهب الإمام أحمد ابن حنبل ولاننكر من قلد الأئمة الأربعة ولانستحق مرتبة الاجتهاد ولاأحد منا يدعيه إلا أن في بعض المسائل إذا صح لنا نص جلي من كتاب الله أو السنة غير منسوخ ولامخصوص ولامعارض بأقوى منه وقال به أحد من الأئمة الأربعة أخذنا به وتركنا المذهب ، وقد سبق من أئمة المذاهب الأربعة اختيارات لهم

في بعض المسائل مخالفة لمذهب الملتزمين تقليد صاحبه .... الخ) .

وينهي الشيخ عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب رسالته هذه بقوله : ولاننكر الطريقة الصوفية وتنزيه الباطن من رذائل المعاصي المتعلقة بالقلب والجوارح مهما استقام صاحبها على القانون الشرعي والمنهج القويم المرعي ، إلا أننا لانتكلف له تأويلا في كلامه ولافي أفعاله ، ولانعول ونستعين ونستنصر ونتوكل في جميع أمورنا إلا على الله تعالى ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ونعم المولى ونعم النصير ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم [١] .

(١) الهدية السنية صفحة ٥٠ ، ورسالة الشيخ عبد الله ابن الشيخ محمد بن عبد الوهاب النجدي التي قدمنا منها مقتطفات موسعة ، مندرجة في مجموع الرسائل التي تشرح دعوة الشيخ محمد ومبادئها ، المسمى بالهدية السنية وأمامنا طبعتها الثانية التي نشرها العلامة المرحوم رشيد رضا صاحب « المنار » مع تعليقاته من مطبعة المنار بمصر في سنة ١٣٤٤ هـ .

الإمام ابن قيم الجوزية

الإمام الحافظ أبو عبد الله محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية الدمشقي الحنبلي

الإمام الحافظ ابن القيم معروف عنه تعمقه في أمور التصوف ودقائقه كا يشهد له بذلك مؤلفه العظيم « مدارج السالكين » وسننقل قطعا قيمة من كلامه النفيس في أبحاث مفيدة ومحققة عن جملة من أمور التصوف إن شاء الله .

وأحببت أن أنقل هنا ترجمتين مختصرتين للحافظ ابن القيم إحداهما للحافظ ابن رجب الحنبلي والأخرى للأستاذ محمد مسلم الغنيمي مؤلف كتاب (ابن قيم الجوزية)(١) فأكون بذلك نقلت صورته المحفوظة عند المتقدمين والمتأخرين من ناحية التصوف .

١ ـ نقل الإمام الحافظ ابن رجب الحنبلي في الذيل على طبقات الحنابلة (الجزء الثاني) صفحة ٤٤٨ : ـ

محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن جريز الزرعي ثم الدمشقي الفقيه الأصولي المفسر النحوي العارف شمس الدين أبو عبد الله بن قيم الجوزية شيخنا ولد سنة إحدى وتسعين وستمائة ......

وتفنن في المذهب(٢) وبرع وأفتى ، ولازم الشيخ تقي الدين وأخذ عنه ، وتفقه في علوم الإسلام ، وكان عارفا بالتفسير لا يجارى فيه ، وبأصول الدين وإليه فيهما المنتهى ، والحديث ومعانيه وفقهه ، ودقائق الاستنباط منه لا يلحق في ذلك ، وبالفقه وأصوله ، وبالعربية وله فيها اليد الطولى ، وتعلم الكلام والنحو وغير ذلك .

---

(١) وهو كتاب قيم في حياة ابن القيم ، نشره المكتب الإسلامي ببيروت .

(٢) أي المذهب الحنبلي اهـ .

وكان عالما بعلم السلوك وكلام أهل التصوف وإشاراتهم ودقائقهم ، له في كل فن من هذه الفنون اليد الطولى ......) .

وكان رحمه الله ذا عبادة وتهجد وطول صلاة إلى الغاية القصوى ، وتأله ولهج بالذكر وشغف بالمحبة والإنابة والاستغفار والافتقار إلى الله والانكسار له والاطراح بين يديه على عتبة عبوديته ، لم أشاهد مثله في ذلك .

ولا رأيت أوسع منه علما ولاأعرف بمعاني القرآن والسنة وحقائق الإيمان منه ، وليس هو المعصوم ، ولكن لم أر في معناه مثله ، وقد امتحن وأوذي مرات وحبس مع الشيخ تقي الدين في المرة الأخيرة بالقلعة منفردا عنه ، ولم يفرج عنه إلا بعد موت الشيخ .

وكان في مدة حبسه مشتغلا بتلاوة القرآن بالتدبر والتفكر ففتح عليه من ذلك خير كثير ، وحصل له جانب عظيم من الأذواق والمواجيد الصحيحة وتسلط بسبب ذلك على الكلام في علوم أهل المعارف [1] والدخول في غوامضهم ، وتصانيفه ممتلئة بذلك .

وحج مرات كثيرة وجاور بمكة ، وكان أهل مكة يذكرون عنه من شدة العبادة وكثرة الطواف أمرا يتعجب منه .

ولازمت مجالسه قبل موته أزيد من سنة وسمعت عليه قصيدته النونية الطويلة في السنة ، وأشياء من تصانيفه وغيرها .

٢ ـ وقد نقل الأستاذ محمد مسلم الغنيمي في كتابه (ابن قيم الجوزية) صفحة (١٣٦) :

(وكان ابن القيم أثيراً لدى شيخه ابن تيمية وكان ينزله منزلة ولده بل كان

(١) هم مشايخ الصوفية اهـ

ولده الروحي ، وكان يتوسم فيه الخير والإصلاح ، ويراه نعمة من الله أرسله ليتم ما كان يدعو إليه من تصحيح الأفكار وتهذيب الدين وتجريده مما علق به مما ليس منه عبر القرون والرجوع به لما كان عليه سلف هذه الأمة اعتقادا وفقها وتصوفا ، وتحريرا من ربقة المقلدين التي جعلوها دينا)اهـ .

وقال الغنيمي في ذيل ذكر مؤلفات الحافظ ابن القيم صفحة (١١١) (مؤلفاته في العلوم الإسلامية) : ـ

١ ـ ألف في الفقه والأصول .... الخ .

٢ ـ وفي التصوف : مدارج السالكين شرح منازل السائرين ، وعدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ، وحادي الأرواح إلى بلاد الأفراح .

٣ ـ وفي علم الكلام والجدل : شفاء العليل .... الخ اهـ .

كما أن الأستاذ الغنيمي ذكر في مقدمة الكتاب مانصه : ـ

(... ماينبغي أن يكتب عن هذا الإمام العظيم فعسى أن يلهم الله المحبين للخير والإصلاح أن يكتبوا عنه في النواحي التي برز فيها من فقه وحديث وتفسير وتصوف و (توحيد) وهذا مهم جدًّا .

وبهذا تتجلى شخصيته بأبرز معانيها فهو فقيه ومحدّث ومفسّر ومتصوّف وموحّد من نمط آخر غير ماعرف عن الفقهاء والمفسرين والمحدثين . ويظهر آنذاك أن ابن القيم علم الأعلام لامن أعلام الإسلام فحسب ، والله ولي التوفيق) اهـ .

وقبل أن أشرع في نقل بعض كلام الحافظ ابن القيم من « مدارج السالكين » الذي هو شرح لكتاب التصوف القيم « منازل السائرين » أحببت أن أنقل صورة عن مؤلِّفه الصوفي الكبير الإمام أبي إسماعيل الهروي قدس الله

روحه وذلك أيضاً من كتاب الإمام السلفي الجليل الحافظ ابن رجب الحنبلي حتى لا يُظن أن مشايخ ذاك الزمان كان يخفى عليهم شيء من صوفية الإمام الهروي بل وتعمقه فيه حتى أنه نادرا مايذكر المتقدمون اسمه إلا ويضيفون إليه كلمة (الصوفي) للتعرف على شخصيته وعدم الاختلاط بغيره .

يذكر الحافظ ابن رجب الحنبلي في الذيل على طبقات الحنابلة

الجزء الأول ص ٥٠ :

عبد الله بن محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن علي بن جعفر بن منصور بن مت الأنصاري الهروي الفقيه المفسر الحافظ الصوفي الواعظ شيخ الإسلام أبو إسماعيل ..... سمع بطوس وبسطام من خلق يطول ذكرهم ، وصحب الشيوخ وتأدب بهم ، وخرج الأمالى والفوائد الكثيرة لنفسه ولغيره من شيوخ الرواة ، وأملى الحديث سنين .

وصنف التصانيف الكثيرة منها : كتاب « ذم الكلام » وكتاب « الفاروق » وكتاب « مناقب الإمام أحمد » وكتاب « منازل السائرين » وكتاب « علل المقامات » ، وله كتاب في « تفسير القرآن » بالفارسية جامع و « مجالس التذكير » بالفارسية حسنة وغير ذلك .

وكان سيدا عظيما وإماما عالما عارفا وعابدا زاهدا ، ذا أحوال ومقامات وكرامات ومجاهدات ، كثير السهر بالليل ، شديد القيام في نصر السنة والذب عنها والقمع لمن خالفها ، وجرى له بسبب ذلك محن عظيمة، وكان شديد الانتصار والتعظيم لمذهب الإمام أحمد ......

وقد أثنى على الشيخ الإمام أبي إسماعيل شيوخه وأقرانه ومن دونه من الفقهاء والمحدثين والصوفية والأدباء وغيرهم وقد سبق في ترجمة عبد الرحمن بن منده قول سعد الزنجاني فيه : « إن الله حفظ به الإسلام وبابن منده » .

وقال الرهاوي : سمعت بهراة أن شيخ الإسلام لما أخرج من هراة ووصل إلى مرو وأذن له في الرجوع إلى هراة ، رجع ووصل إلى مرو الروذ قصده الإمام أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي الفراء صاحب التصانيف ، فلما حضر عنده قال لشيخ الإسلام : إن الله قد جمع لك الفضائل وكانت قد بقيت فضيلة واحدة فأراد أن يكملها لك وهي الإخراج من الوطن أسوةً برسول الله ﷺ .

وذكره أيضا الإمام أبو الحسين عبد الغافر بن إسماعيل الفارسي خطيب نيسابور في تاريخ نيسابور فذكر اسمه ونسبه وقال : أبو إسماعيل الإمام شيخ الإسلام بهراة ، صاحب القبول في عصره ، والمشهور بالفضل وحسن الوعظ والتذكير في دهره ، لم ير أحد من الأئمة في فنه حلما مارآه عيانا من الحشمة الوافرة القاهرة والرونق الدائم والاستيلاء على الخاص والعام في تلك الناحية ، واتساق أمور المريدين والأتباع والغالين في حقه ، والتئام المدارس والأصحاب والخانقاه ونواب المجالس إلى غير ذلك مما هو أشهر من أن يحتاج إلى الشرح .

وكان على حظ تام من العربية ومعرفة الأحاديث والأنساب والتواريخ إماما كاملا في التفسير والتذكير حسن السيرة والطريقة في التصوف ، ومباشرة التصوف ، ومعاشرة الأصحاب الصوفية .

مظهر السنة داعيا إليها محرضا عليها غير مشتغل بكسب الأسباب والضياع والعقار والتوغل في الدنيا مكتفيا بما يباسط به المريدين والأتباع من أهل مجلسه في السنة مرة أو مرتين حاكما عليها حكما نافذا بما كان يحتاج إليه هو وأصحابه من السنة إلى السنة على رأس الملأ ....

وقال شيخ الإسلام أبو العباس ابن تيمية في كتابه « الأجوبة المصرية » : - (شيخ الإسلام مشهور معظم عن الناس ، هو إمام في الحديث والتصوف والتفسير ، وهو في الفقه على مذهب أهل الحديث يعظم الشافعي وأحمد

ويقرن بينهما في أجوبته في الفقه مايوافق قول الشافعي تارة ، وقول أحمد أخرى ، والغالب عليه اتباع الحديث على طريقة ابن المبارك ونحوه) .

قال (أي ابن تيمية) : وقال الشيخ أبو الحسن الكرخي (شيخ الشافعية في بلاده) في كتابه « الفصول في الأصول » : أنشدني غير واحد من الفضلاء للإمام عبد الله بن محمد الأنصاري أنه أنشد في معرض النصيحة لأهل السنة : ـ

كُن إذا ما حاد عن حدِّ الهدىٰ　　أشعري الرأي شيطان البشر

شافعي الشرع سُنِّي الحلى　　حنبلي العقد صوفي السير

* * *

والآن أشرع بإذن الله وتوفيقه في نقل قطع مفيدة للمقصود من كلام الإمام السلفي الجليل الحافظ ابن القيم رحمه الله من كتابه « مدارج السالكين » الذي هو شرح لكتاب التصوف الكبير « منازل السائرين » للإمام شيخ الإسلام أبي إسماعيل الهروي الصوفي قدس الله روحه .

١ ـ قال ابن القيم في الجزء الأول منه في صفحة ١٣٥ (طبعة دار الكتاب العربي بلبنان) مانصه : ـ

ولأرباب السلوك اختلاف كثير في عدد المقامات وترتيبها ، كل يصف منازل سيره وحال سلوكه ، ولهم اختلاف في بعض منازل السير : هل هي من قسم الأحوال ؟ .

والفرق بينهما : أن المقامات كسبية ، والأحوال وهبية .

ومنهم من يقول : الأحوال من نتائج المقامات ، والمقامات نتائج الأعمال ، فكل من كان أصلح عملا كان أعلى مقاما ، وكل من كان أعلى مقاما كان أعظم حالا .

فمما اختلفوا فيه (الرضا) هل هو حال أو مقام ؟

فيه خلاف بين الخراسانيين والعراقيين .

وحكم بينهم بعض الشيوخ فقال : إن حصل بكسب فهو مقام ، وإلا فهو حال .

والصحيح في هذا : أن الواردات والمنازلات لها أسماء باعتبار أحوالها ، فتكون لوامع وبوارق ولوائح عند أول ظهورها وبُدوِّها ، كما يلمع البارق ويلوح عن بُعد ، فإذا نازلته وباشرها فهي أحوال ، فإذا تمكنت منه وثبتت له من غير انتقال فهي مقامات.

وهي لوامع ولوائح في أولها ، وأحوال في أوسطها ومقامات في نهايتها ، فالذي كان بارقاً هو بعينه الحال ، والذي كان حالا هو بعينه المقام ، وهذه الأسماء له باعتبار تعلقه بالقلب وظهوره له وثباته فيه .

وقد ينسلخ السالك من مقامه كما ينسلخ من الثوب وينزل إلى مادونه ، ثم قد يعود إليه وقد لا يعود .

ومن المقامات مايكون جامعاً لمقامين ، ومنها مايكون جامعاً لأكثر من ذلك . ومنها مايندرج فيه جميع المقامات ، فلا يستحق صاحبه اسمه إلا عند استجماع جميع المقامات فيه .

« فالتوبة » جامعة لمقام المحاسبة ومقام الخوف لايُتصور وجودها بدونها .

و« التوكل » جامع لمقام التفويض والاستعانة والرضى ، لايُتصور وجودها بدونها .

و« الرجاء » جامع لمقام الخوف والإرادة و ....إلخ .

وكل مقام من هذه المقامات : فالسالكون بالنسبة إليه نوعان : ـ

أبرار ، ومقربون .

فالأبرار في أذيالـه ، والمقربون في ذروة سنـامـه . وهكـذا مراتب الإيمان جميعها ، وكل من النوعين لايُحصى تفاوتهم ، وتفاضل درجاتهم إلا الله .

وتقسيمهم ثلاثة أقسام : عام ، وخاص ، وخاص خاص .

إنما نشأ من جعل الفناء غاية الطريق وعَلَمَ القوم الذي شمروا إليه وسنذكر مافي ذلك ، وأقسام الفناء محمودة ومذمومة ، فاضلة ومفضولة ، فإن إشارة القوم [1] إليه إن شاء الله ومدارهم عليه .

على أن الترتيب الـذي يشير إليـه كل مرتِّب للمنـازل لايخلـو عن تحكم ودعوى من غير مطابقة .

فـإن العبـد إذا التزم عقـد الإسلام ودخـل فيـه كلـه ، فقـد التزم لـوازمـه الظاهرة والباطنة ومقاماتـه وأحوالـه . ولـه في كل عقـد من عقوده ، وواجب من واجباته أحوال ومقامات ، لايكون موفياً لذلك العقـد والواجب إلا بهـا ، وكلمـا وفّى واجبـا أشرف على واجب آخر بعـده ، وكلمـا قطع منزلـة استقبل أخرى .

وقد يعرض له أعلى المقامات والأحوال في أول بدايـة سيره ، فينفتح عليـه من حال المحبة والرضاء والأنس والطمأنينة مالم يحصل بعد لسالـك في نهـايتـه ، ويحتاج هذا السالك في نهايته إلى أمور من البصيرة والتوبة والمحاسبة أعظم من حاجة صاحب البداية إليها ، فليس في ذلك ترتيب كلي لازم للسلوك .

وقـد ذكرنـا أن التـوبـة التي جعلـوهـا من أول المقـامـات : هي غـايـة العارفين ، ونهـايـة أوليـاء الله المقربين ، ولاريب أن حـاجتهم إلى المحـاسبـة في

---

(١) أي السادة الصوفية .

نهايتهم فوق حاجتهم إليها في بدايتهم .

فالأولى : الكلام في هذه المقامات على طريقة المتقدمين من أئمة القوم كلامًا مطلقًا في كل مقام ببيان حقيقته وموجبه وآفته المانعة من حصوله والقاطع عنه وذكر عامه وخاصه .

فكلام أئمة الطريق هو على هذا المنهاج فمن تأمله : كسهل بن عبد الله التستري وأبي طالب المكي والجنيد بن محمد وأبي عثمان النيسابوري ويحي بن معاذ الرازي ، وأرفع من هؤلاء طبقة مثل : أبي سليمان الداراني وعون بن عبد الله الذي كان يقال له : « حكيم الأمة » وأضرابهما ، فإنهم تكلموا على أعمال القلوب وعلى الأحوال كلاما مفصلاً جامعاً مبيناً مطلقاً من غير ترتيب ولا حصر للمقامات بعدد معلوم .

فإنهم كانوا أجل من هذا ، وهمهم أعلى وأشرف ، إنما هم حائمون على اقتباس الحكمة والمعرفة وطهارة القلوب وزكاة النفوس وتصحيح المعاملة ، ولهذا كلامهم قليل ، فيه البركة ، وكلام المتأخرين كثير طويل ، قليل البركة .

ولكن لابد من مخاطبة أهل الزمان باصطلاحهم ، إذ لاقوة لهم للتشمير إلى تلقي السلوك عن السلف الأول وكلماتهم وهديهم ، ولو برز لهم هديهم وحالهم لأنكروه ولعدوه سلوكاً عامياً وللخاصة سلوك آخر ، كما يقول ضلال المتكلمين وجهلتهم : « إن القوم كانوا أسلم وإن طريقنا أعلم » ، وكما يقول من لم يقدر قدرهم من المنتسبين إلى الفقه : « إنهم لم يتفرغوا لاستنباطه وضبط قواعده وأحكامه اشتغالا منهم بغيره ، والمتأخرون تفرغوا لذلك فهم أفقه » .

فكل هؤلاء محجوبون عن معرفة مقادير السلف وعن عمق علومهم وقلة تكلفهم وكمال بصائرهم .

وتالله ماامتاز عنهم المتأخرون إلا بالتكلف والاشتغال بالأطراف التي كانت

همة القوم مراعاة أصولها وضبط قواعدها وشد معاقدها ، وهممهم مشمرة إلى المطالب العالية في كل شيء .

فالمتأخرون في شأن والقوم في شأن وقد جعل الله لكل شيء قدرا .

٢ ـ قال ابن القيم في الجزء الثاني منه صفحة (٣٠٧) : ـ

« فصل »

الدين كله خُلُق ، فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الدين ، وكذلك التصوف . قال الكتاني : التصوف : هو الخلق ، فمن زاد عليك في الخُلق فقد زاد عليك في التصوف . .....

وقيل : التخلي من الرذائل والتحلي من الفضال .

وحسن الخلق يقوم على أربعة أركان ، لا يتصور قيام ساقه إلا عليها : الصبر والعفة والشجاعة والعدل . ...

ومنشأ جميع الأخلاق السافلة وبناؤها على أربعة أركان : الجهل والظلم والشهوة والغضب .

فإن أصعب ما على طبيعة الإنسانية تغيير الأخلاق التي طبعت النفوس عليها . وأصحاب الرياضات الصعبة والمجاهدات الشاقة إنما عملوا عليها ولم يظفر أكثرهم بتبديلها ، ولكن النفس اشتغلت بتلك الرياضات عن ظهور سلطانها ، فإذا جاء سلطان تلك الأخلاق وبرز كسر جيوش الرياضة وشتتها واستولى على مملكة الطبع . ...

(ثم في بحث نفيس عن أي الطرق أفيد للسالك : الاهتمام بالتحلي بالفضائل أم بالتخلي من الرذائل يقول الحافظ ابن القيم رحمه الله) ما نصه : ـ

وسألت يوماً شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله على هذه المسألة وقطع الآفات والاشتغال بتنقية الطريق وبتنظيفها ؟ فقال لي جملة كلامه : النفس مثل الباطوس ـ وهو جب القذر ـ كلما نبشته ظهر وخرج ، لكن إن أمكنك أن تسقف عليه وتعبره وتجوزه فافعل ولا تشتغل بنبشه ، فإنك لن تصل إلى قراره ، وكلما نبشت شيئاً ظهر غيره .

فقلت : سألت عن هذه المسألة بعض الشيوخ فقال لي : مثال آفات النفس مثال الحيات والعقارب التي في طريق المسافر ، فإن أقبل على تفتيش الطريق عنها والاشتغال بقتلها انقطع ، ولم يمكنه السفر قط ، ولكن لتكن همتك المسير والإعراض عنها ، وعدم الالتفات إليها ، فإذا عرض لك فيها ما يعوقك عن المسير فاقتله ثم امض على سيرك .

فاستحسن شيخ الإسلام ذلك جدًا وأثنى على قائله . ...

قال (أي شيخ الإسلام الهروي الصوفي) : « واجتمعت كلمة الناطقين في هذا العلم : أن التصوف هو الخلق ، وجميع الكلام فيه يدور على قطب واحد وهو : بذل المعروف وكف الأذى » .

قلت : ومن الناس من يجعلها ثلاثة : كف الأذى واحتمال الأذى وإيجاد الراحة . ومنهم من يجعلها اثنين ـ كما قال الشيخ ـ : بذل المعروف وكف الأذى .. ومنهم من يردها إلى واحد : وهو بذل المعروف ، والكل صحيح .

قال : « وإنما يدرك إمكان ذلك في ثلاثة أشياء : في العلم والجود والصبر » .

فالعلم : يرشده إلى مواقع بذل المعروف ، والفرق بينه وبين المنكر وترتيبه في وضعه مواضعه ، فلا يضع الغضب موضع الحلم بالعكس ، ولا الإمساك موضع البذل ولابالعكس ، بل يعرف مواقع الخير والشر ومراتبها وموضع كل

خلق أين يضعه وأين يحسن استعماله .

والجود : يبعثه على المسامحة بحقوق نفسه ، والاستقصاء منها بحقوق غيره ، فالجود هو قائد جيوش الخير .

والصبر : يحفظ عليه استدامة ذلك ، ويحمله على الاحتمال وكظم الغيظ وكف الأذى وعدم المقابلة وعلى كل خير كما تقدم .

وهو أكبر العون على نيل كل مطلوب من خير الدنيا والآخرة ، قال الله تعالى : ﴿ **واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين** ﴾ فهذه الثلاثة أشياء : بها يدرك التصوف .

والتصوف : زاوية من زوايا السلوك الحقيقي وتزكية النفس وتهذيبها لتستعد لسيرها إلى صحبة الرفيق الأعلى ، ومعية من تحبه ، فإن المرء مع من أحب . كما قال سمنون : ذهب المحبون بشرف الدنيا والآخرة ، فإن المرء مع من أحب . والله أعلم .

« فصل »

قال : « الدرجة الثالثة : التخلق بتصفية الخلق ثم الصعود عن تفرقة التخلق ثم التخلق بمجاوزة الأخلاق » .

هذه الدرجة ثلاثة أشياء : أحدها : تصفية الخلق بتكميل ما ذكر في الدرجتين قبله فيصفيه من كل شائبة وقذى ومشوش ؛ فإذا فعلت ذلك صعدت من تفرقته إلى جمعيتك على الله .

فإن التخلق والتصوف : تهذيب واستعداد للجمعية ، وإنما سماه تفرقة لأنه اشتغال بالغير ، والسلوك يقتضي الإقبال بالكلية ، والاشتغال بالرب وحده عما سواه .

ثم يصعد إلى ما فوق ذلك : وهو مجاوزة الأخلاق كلها بأن يغيب عن الخُلُق والتخلق ، وهذه الغيبة لها مرتبتان عندهم : -

إحداهما : الاشتغال بالله عز وجل عن كل ما سواه .

والثانية : الفناء في الفردانية التي يسمونها « حضرة الجمع » وهي أعلى الغايات عندهم ، وهي موهبية لا كسبية ، ولكن العبد إذا تعرض وصدق في الطلب : رجي له الظفر بمطلوبه ، والله أعلم .

« فصل »

ومدار حسن الخلق مع الحق ومع الخلق على حرفين ، ذكرهما عبد القادر الكيلاني ، فقال : « كن مع الحق بلا خلق ومع الخلق بلا نفس » .

فتأمل ما أجلَّ هاتين الكلمتين مع اختصارهما ، وما أجمعها لقواعد السلوك ولكل خلق جميل .

وفساد الخُلق إنما ينشأ من توسط الخَلق بينك وبين الله تعالى ، وتوسط النفس بينك وبين خلقه ، فمتى عزلت الخلق - حال كونك مع الله تعالى - وعزلت النفس - حال كونك مع الخلق - فقد فزت بكل ما أشار إليه القوم [1] وشمروا إليه وحاموا حوله ، والله المستعان . ويذكر عن سفيان الثوري رحمه الله أنه قال : « أعز الخلق خمسة أنفس : عالم زاهد ، وفقيه صوفي ، وغني متواضع ، وفقير شاكر ، وشريف سُنِّي » .

٣ - قال ابن القيم في الجزء الثاني صفحة (٣٦٦) ما نصه : -

(وقد ذكر عن الجنيد كلمتان في الإرادة مجملتان ، تحتاج كل منهما إلى تفسير) :

---

(١) أي السادة الصوفية رحمهم الله تعالى اهـ .

الكلمة الواحدة : قال أبو عبد الرحمن السُّلمي : سمعت محمد بن مخلد يقول : سمعت جعفرا يقول : سمعت الجنيد يقول : « المريد الصادق غني من العلماء » ، وقال أيضاً : سمعت الجنيد : يقول « إذا أراد الله بالمريد خيراً أوقعه إلى الصوفية ومنعه صحبة القراء » .

قلت : إذا صدق المريد وصح عقد صدقه مع الله ، فتح الله على قلبه ببركة الصدق وحسن المعاملة مع الله ما يغنيه عن العلوم التي هي نتائج أفكار الناس وآرائهم ، وعن العلوم التي هي فضلة ليست من زاد القبر ، وعن كثير من إشارات الصوفية وعلومهم التي أفنوا فيها أعمارهم من معرفة النفس وآفاتها وعيوبها ومعرفة مفسدات الأعمال وأحكام السلوك فإن حال صدقه وصحة طلبه يريد ذلك كله بالفعل .

ومثال ذلك : رجل قاعد في البلد يدأب ليله ونهاره في علم منازل الطريق وعقباتها وأوديتها ومواضع المتاهات فيها والموارد والمفاوز .

وآخر حمله الوجد وصدق الإرادة على أن ركب الطريق وسار فيها ، فصدقه يغنيه عن علم ذلك القاعد ، ويريه إياها في سلوكه عياناً .

وأما يغنيه صدق إرادته عن علم الحلال والحرام ، وأحكام الأمر والنهي ، ومعرفة العبادات وشروطها وواجباتها ومبطلاتها ، وعن علم أحكام الله ورسوله على ظاهره وباطنه ، فقد أعاذ الله من هو دون الجنيد من ذلك فضلاً عن سيد الطائفة وإمامها [١] ، وإنما يقول ذلك قطاع الطريق وزنادقة الصوفية وملاحدتهم الذين لا يرون اتباع الرسول ﷺ شرطا في الطريق .

وأيضاً فإن المريد الصادق : يفتح الله على قلبه وينوره بنور من عنده

(١) لاحظ رحمك الله معاملة الإمام ابن القيم مع هؤلاء السادة ، وقارن بينه وبين أولئك المغرورين السفهاء المنسوبين إلى العلم الذين يحاولون دائماً أن يُلبسوا مشايخ الصوفية ثيابا ليست لهم اهـ .

مضاف إلى ما معه من نور العلم يعرف به كثيراً من أمر دينه ، فيستغني به عن كثير من علم الناس ، فإن العلم نور ، وقلب الصادق ممتلىء بنور الصدق ومعه نور الإيمان ، والنور يهدي إلى النور ، والجنيد أخبر بهذا عن حاله ، وهذا أمر جزئي ليس على عمومه بل صدقه يغنيه عن كثير من العلم .

وأما عن جملة العلم فكلام أبي القاسم الثابت عنه في ضرورة الصادق إلى العلم ، وأنه لا يفلح من لم يكن له علم ، وأن طريق القوم مقيدة بالعلم ، وأنه لا يحل لأحد أن يتكلم في الطريق إلا بالعلم فمشهور ومعروف .

قد ذكرنا فيما مضى طرفاً منه كقوله « من لم يحفظ القرآن ويكتب الحديث لا يقتدى به في هذا الأمر ، لأن علمنا مقيد بالكتاب والسنة » .

وأيضاً فإن علم العلماء الذين أشار إليهم : هو ما فهموه واستنبطوه من القرآن والسنة .

والمريد الصادق : هو الذي قرأ القرآن وحفظ السنة ، والله يرزقه ببركة صدقه ونور قلبه فهما في كتابه وسنة رسوله يغنيه عن تقليد فهم غيره .

وأما قوله ـ يعني الجنيد ـ : « إذا أراد الله بالمريد خيراً أوقعه على الصوفية ومنعه صحبة القراء » .

فالقراء في لسانهم : هم أهل التنسك والتعبد سواء كانوا يقرأون القرآن أو لا ، فالقاريء عندهم : هو الكثير التعبد والتنسك الذي قد قصر همته على ظاهر العبادة دون أرواح المعارف ودون حقائق الإيمان وروح المحبة وأعمال القلوب . فهمَّتهم كلها إلى العبادة ولا خبر عندهم مما عند أهل التصوف وأرباب القلوب وأهل المعارف ، ولهذا قال من قال : « طريقنا تَفَتّ لا تقسر » ، فسير هؤلاء بالقلوب والأرواح ، وسير أولئك بمجرد القوالب والأشباح ، وبين أرواح هؤلاء وقلوبهم وأرواح هؤلاء وقلوبهم نوع تناكر وتنافر ، ولا يقدر أحدهم

على صحبة النوع الآخر إلا على نوع إغضاء ، وتحميل للطبيعة ماتـأبـاه ، وهم من جنس ما بينهم وبين ظاهريـة الفقهـاء من التنـافر ، ويسمونهم : أصحـاب الرسوم ويسمون أولئك : القراء .

والطائفتان عندهم : أهل ظواهر لا أرباب حقائق .

هؤلاء مع رسوم العلم ، وهؤلاء مع رسوم العبادة .

ثم إنهم - في أنفسهم - فريقان : صوفيـة وفقراء ، وهم متنـازعون في ترجيح الصوفية على الفقراء أو بالعكس أو هما سواء ، على ثلاثة أقوال .

فطائفة رجحت الصوفي ، منهم كثير من أهل العراق ، وعلى هذا صـاحب العوارف وجعلوا نهاية الفقير : بداية الصوفي .

وطائفة رجحت الفقير ، وجعلوا الفقر لُبّ التصوف وثمرتـه ، وهم كثير من أهل خراسان .

وطـائفـة ثـالثـة ، قـالوا : الفقر والتصوف شيء واحـد ، وهـؤلاء هم أهـل الشام .

ولا يستقيم الحكم بين هؤلاء وهؤلاء حتى تتبين حقيقة الفقر والتصوف .

وحينئـذ يعلم : هل همـا حقيقـة واحـدة أو حقيقتـان ، ويعلم راجحها من مرجوحها .

وسترى ذلك مبينا إن شـاء الله في منزلتي « الفقر ، والتصوف » إذا انتهينـا إليهما إن شـاء الله ومنَّ بفضلـه وتـوفيقـه ، فـلا حـول ولا قـوة إلا بـالله وبـه المستعان وعليه التكلان وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن .

والمقصـود أن المراتب عنـدهم ثـلاثـة : **مرتبـة « التقـوى »** وهي مرتبـة التعبـد والتنســك . **ومرتبــة « التصـوف »** وهي مرتبــة التَفَتّي بكل خلــق حسن ،

والخروج من كل خلق ذميم .

ومرتبة « الفقر » وهي مرتبة التجرد وقطع كل علاقة تحول بين القلب وبين الله تعالى فهذه مراتب طلاب الآخرة ، ومن عداهم فمع القاعدين المتخلفين .

فأشار أبو القاسم الجنيد إلى أن المريد لله بصدق ، إذا أراد الله به خيراً أوقعه على طائفة الصوفية : يهذبون أخلاقه ويدلُّونه على تزكية نفسه وإزالة أخلاقها الذميمة والاستبدال بالأخلاق الحميدة ، ويعرفونه منازل الطريق ومفازاتها وقواطعها وآفاتها .

وأما القراء فيدقونه بالعبادة من الصوم والصلاة دقاً ، ولا يذيقونه شيئاً من حلاوة أعمال القلوب وتهذيب النفوس ، إذ ليس ذلك طريقهم ، ولهذا بينهم وبين أرباب التصوف نوع تنافر كما تقدم .

والبصير الصادق : يضرب في كل غنيمة بسهم ، ويعاشر كل طائفة على أحسن ما معها ، ولا يتحيز إلى طائفة ، وينأى عن الأخرى بالكلية أن لا يكون معها شيء من الحق ، فهذه طريقة الصادقين .

٤ ـ قال ابن القيم ـ في الجزء الثاني صفحة (٣٧١) ما نصه : ـ

قال (أي شيخ الإسلام الهروي الصوفي) : « الإرادة من قوانين هذا العلم وجوامع أبنيته ، وهي الإجابة لدواعي الحقيقة طوعاً وكرهاً » .

يريد : أن هذا العلم [١] مبني على الإرادة ، فهي أساسه ومجمع بنائه ، وهو مشتمل على تفاصيل أحكام الإرادة ، وهي حركة القلب ، ولهذا سمي « علم الباطن » ، كما أن علم « الفقه » يشتمل على تفاصيل أحكام الجوارح ، ولهذا

(١) أي التصوف اهـ .

سموه « علم الظاهر » .

فهاتان حركتان اختياريتان ، وللعبد حركة طبيعية اضطرارية ، فالعلم المشتمل على تفاصيلها وأحكامها هو « علم الطب » .

فهذه العلوم الثلاثة : هي الكفيلة بمعرفة حركات النفس والقلب وحركات اللسان والجوارح وحركات الطبيعة .

فالطبيب : ينظر في تلك الحركات من جهة تأثر البدن عنها صحةً واعتلالاً وفي لوازم ذلك ومتعلقاته .

والفقيه : ينظر في تلك الحركات من جهة موافقتها لأمر الشرع ونهيه وإذنه وكراهته ومتعلقات ذلك .

والصوفي : ينظر في تلك الحركات من جهة كونها موصلةً له إلى مراده أو قاطعة عنه ، ومفسدة لقلبه أو مصححة له .

٥ ـ قال ابن القيم في الجزء الثاني صفحة (٤٣٨) ما نصه : ـ

ومن منازل ﴿ **إياك نعبد وإياك نستعين** ﴾ منزلة « الفقر » .

هذه المنزلة أشرف منازل الطريق عند القوم [1] وأعلاها وأرفعها ، بل هي روح كل منزلة ، وسرها ولبها وغايتها .

وهذا إنما يعرف بمعرفة حقيقة « الفقر » ، والذي تريد به هذه الطائفة [2] أخص من معناه الأصلي ، فإن لفظ « الفقر » وقع في القرآن في ثلاثة مواضع : ـ **أحدها:** قوله تعالى : ﴿ **للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضرباً في الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف** ﴾ الآية .....

(١) أي الصوفية رحمهم الله .

(٢) المراد : السادة الصوفية رحمهم الله اهـ .

والموضع الثاني : قوله تعالى : ﴿ **إنما الصدقات للفقراء** ﴾ الآية .

والموضع الثالث : قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله** ﴾ .

فالصنف الأول : خواص الفقراء .

والثاني : فقراء المسلمين خاصهم وعامهم .

والثالث : الفقر العام لأهل الأرض كلهم غنيهم وفقيرهم مؤمنهم وكافرهم .

فالفقراء الموصوفون في الآية الأولى يقابلهم أصحاب الجِدَة ومن ليس محصرا في سبيل الله ، ومن لا يكتم فقره تعففا فمقابلهم أكثر من مقابل الصنف الثاني .

والصنف الثاني : يقابلهم الأغنياء أهل الجدة ، ويدخل فيهم المتعفف وغيره ، والمحصر في سبيل الله وغيره .

والصنف الثالث : لا مقابل لهم ، بل الله وحده الغني ، وكل ما سواه فقير إليه .

ومراد القوم [١] بالفقر : شيء أخص من هذا كله ، وهو تحقيق العبودية ، والافتقار إلى الله تعالى في كل حالة .

وهذا المعنى أجل من أن يسمى فقراً ـ بل هو حقيقة العبودية ولُبُّها ، وعزل النفس عن مزاحمة الربوبية .

وسئل عنه يحي بن معاذ فقال : حقيقته أن لا يستغني إلا بالله ، ورسمه عدم الأسباب كلها .

يقول : عدم الوثوق بها والوقوف معها ، وهو كما قال بعض المشايخ : ـ

---

(١) أي السادة الصوفية رحمهم الله اهـ .

شيءٌ لا يضعه الله إلا عند من يحبه ويسوقه إلى من يريده .

وسئل رويم عن الفقر ؟ فقال : إرسال النفس في أحكام الله .

وهذا إنما يحمد في إرسالها في الأحكام الدينية والقدرية التي لا يؤمر بمدافعتها والتحرز منها .

وسئل أبو حفص : بِمَ يقدم الفقير على ربه ؟ فقال : ما للفقير شيء يقدم به على ربه سوى فقره .

وحقيقة « الفقر » وكماله كما قال بعضهم وقد سئل : متى يستحق الفقير اسم « الفقر » فقال : إذا لم يبق عليه بقية منه ، فقيل له : وكيف ذاك ؟ فقال : إذا كان له فليس له ، وإذا لم يكن له فهو له .

وهذا من أحسن العبارات عن معنى « الفقر » الذي يشير إليه القوم ، وهو أن يصير كله لله عز وجل ، ولا يبقى عليه بقية من نفسه وحظه وهواه ، فمتى بقي عليه شيء من أحكام نفسه ففقره مدخول .

ثم فسر ذلك بقوله « إذا كان له فليس له » أي إذا كان لنفسه فليس لله ، وإذا لم يكن لنفسه فهو لله .

فحقيقة الفقر أن لا تكون لنفسك ، ولا يكون لها منك شيء بحيث تكون كذلك لله ، وإذا كنت لنفسك فثم مِلك واستغناء منافٍ للفقر .

وهذا « الفقر » الذي يشيرون إليه لا تنافيه الجِدَة ولا الأملاك ، فقد كان رسل الله وأنبياؤه في ذروته مع جِدَتهم وملكهم كإبراهيم الخليل ﷺ كان أبا الضيفان ، وكانت له الأموال والمواشي ، وكذلك كان سليمان وداود عليهما السلام ، وكذلك كان نبينا ﷺ ، كان كما قال الله تعالى ﴿ **ووجدك عائلاً فأغنى** ﴾ فكانوا أغنياء في فقرهم فقراء في غناهم .

« فالفقر » الحقيقي : دوام الافتقار إلى الله في كل حال ، وأن يشهد العبد - في كل ذرة من ذراته الظاهرة والباطنة - فاقة تامة إلى الله تعالى من كل وجه . فالفقر ذاتي للعبد وإنما يتجدد له لشهوده ووجوده حالا وإلا فهو حقيقة . كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه : -

والفقر لي وصف ذات لازم أبداً كما الغنى أبداً وصف له ذاتي

وله آثار وعلاقات وموجبات وأسباب أكثر إشارات القوم إليها ، كقول بعضهم : « الفقير لا تسبق همته خطوته » ، يريد أنه ابن حاله ووقته ، فهمته مقصورة على وقته لا تتعداه .

وقيل : أركان الفقر أربعة : علم يسوسه ،وورع يحجزه ، ويقين يحمله ، وذكر يؤنسه .

وقال الشبلي : حقيقة الفقر أن لا يستغني بشيء دون الله .

وسئل سهل بن عبد الله : متى يستريح الفقير ؟ فقال : إذا لم ير لنفسه غير الوقت الذي هو فيه .

وقال أبو حفص : أحسن ما يتوسل به العبد إلى الله : دوام الافتقار إليه على جميع الأحوال ، وملازمة السنة في جميع الأفعال ، وطلب القوت من وجه حلال .

وقيل : من حكم الفقر ألا تكون له رغبة ، فإذا كان ولابد فلا تجاوز رغبته كفايته .

وقيل : الفقير لا يَملك ولا يُملك ، وأتم من هذا « من يملك ولا يملكه مالك » .

وقيل : من أراد لشرف الفقر مات فقيراً ، ومن أراده لئلا يشتغل عن الله

بشيء مات غنيا ..... (وفي المدارج في هذا المقام بحث مفصل عن الفقر فارجع إليه إن شئت) .

ثم شرح الإمام ابن القيم عبارات شيخ الإسلام الهروي الصوفي حيث ذكر فيها درجات الفقر حتى قال : ـ

« الدرجة الثالثة : الاضطرار والوقوع في يد التقطع الوجداني أو الاحتباس في بيداء قيد التجرد ، وهذا فقر الصوفية » .....

قال ابن القيم : « وهذا فقر الصوفية » قد يفهم منه : أن التصوف أعلى عنده من الفقر ، فإن هذه الدرجة الثالثة ـ التي هي أعلى درجات الفقر عنده هي من بعض مقامات الصوفية .

وطائفة تنازعه في ذلك وتقول : التصوف دون هذا المقام بكثير ، والتصوف وسيلة إلى هذا الفقر ، فإن التصوف خُلُق وهذا الفقر حقيقة وغاية لاغاية وراءها . وقد تقدم ذكر الخلاف بين القوم في هذه المسألة وحكينا فيها ثلاثة أقوال : هذين . والثالث : أن لا يفضل أحدهما على الآخر ، فإن كل واحد منهما لاتتم حقيقته إلا بالآخر ، وهذا قول الشاميين .والله أعلم .

٦ ـ قال ابن القيم في الجزء الأول صفحة (١٥٤) في فصل مستقل يبحث عن الفناء عند الصوفية ويذكر أقسامه ومراتبه وممدوحه ومذمومه ومتوسطه يذكر فيه ما نصه :

وأما الفناء عن شهود السوى فهو الذي يشير إليه أكثر الصوفية المتأخرين ويعدونه غاية ، وهو الذي بنىٰ عليه أبو إسماعيل الأنصاري كتابه وجعله الدرجة الثالثة في كل باب من أبوابه .

وليس مرادهم فناء وجود ما سوى الله في الخارج ، بل فناؤه عن شهودهم

وحسهم ، فحقيقته ، غيبة أحدهم عن سوى مشهوده ، بل غيبته أيضاً عن شهوده ونفسه لأنه يغيب بمعبوده عن عبادته وبمذكوره عن ذكره وبموجوده عن وجوده وبمحبوبه عن حبه وبمشهوده عن شهوده .

وقد يسمى حال مثل هذا سكراً واصطلاماً ومحوًا وجمعاً .

وقد يفرقون بين معاني هذه الأسماء ، وقد يغلب شهود القلب بمحبوبه ومذكوره حتى يغيب به ويفنى به ، فيظن أنه اتحد به وامتزج ، بل يظن أنه هو نفسه ، كما يحكىٰ أن رجلاً ألقى محبوبُه نفسه في الماء فألقى المحب نفسه وراءه فقال له : ما الذي أوقعك في الماء ؟ فقال : غِبت بك عنى فظننت أنك أني .

وهذا إذا عاد إليه عقله يعلم أنه كان غالطاً في ذلك ، وأن الحقائق متميزة في ذاتها فالرب رب ، والعبد عبد ، والخالق بائن عن المخلوقات ، ليس في مخلوقاته شيء من ذاته ، ولا في ذاته شيء من مخلوقاته .

ولكن في حال السكر والمحو والاصطلام والفناء قد يغيب عن هذا التمييز ، وفي هذه الحال قد يقول صاحبها ما يحكى عن أبي يزيد أنه قال : « سبحاني » أو « ما في الجبة إلا الله » ونحو ذلك من الكلمات التي لو صدرت عن قائلها وعقله معه لكان كافراً .

ولكن مع سقوط التمييز والشعور قد يرتفع عنه قلم المؤاخذة .

وهذا الفناء يحمد منه شيء ويذم منه شيء ويعفى منه عن شيء .

فيحمد منه فناؤه عن حب ما سوى الله وعن خوفه ورجائه والتوكل عليه والاستعانة به والالتفات إليه بحيث يبقى دين العبد ظاهراً وباطناً كله لله .

وأما عدم الشعور والعلم بحيث لا يفرق صاحبه بين نفسه وغيره ولا بين

الرب والعبد مع اعتقاده الفرق ، ولا بين شهوده ومشهوده بل لا يرى السوى ولا الغير فهذا ليس بمحمود ولا هو وصف كمالٍ ولا هو مما يرغب فيه ويؤمر به .

بل غاية صاحبه أن يكون معذوراً لعجزه وضعف قلبه وعقله عن احتمال التمييز والفرقان ، وإنزال كل ذي منزلة منزلته موافقة لداعي العلم ومقتضى الحكمة وشهود الحقائق على ما هي عليه ، والتمييز بين القديم والمحدث والعبادة والمعبود ، فينزل العبادة منازلها ويشهد مراتبها ، ويعطي كل مرتبة منها حقها من العبودية ويشهد قيامه بها .

فإن شهود العبد قيامه بالعبودية أكمل في العبودية من غيبته عن ذلك ، فإن أداء العبودية في حال غيبة العبد عنها وعن نفسه بمنزلة أداء السكران والنائم ، وأداؤها في حال كمال يقظته وشعوره بتفاصيلها ، وقيامه بها أتم وأكمل وأقوى عبودية .

وليس أيضاً هذه الحال بلازمة لجميع السالكين ، بل هي عارضة لبعضهم منهم : من يبتلى بها كأبي يزيد وأمثاله ، ومنهم : من لا يبتلى بها ، وهي أكمل وأقوى .

فإن الصحابة رضي الله عنهم هم سادات العارفين وأئمة الواصلين المقربين وقدوة السالكين لم يكن منهم من ابتُلي بذلك مع قوة إرادتهم وكثرة منازلاتهم ومعاينة ما لم يعاينه غيرهم ولا شم له رائحة ولم يخطر على قلبه ، فلو كان هذا الفناء كمالا لكانوا هم أحق به وأهله ، وكان لهم منه ما لم يكن لغيرهم .

ولا كان هذا أيضاً لنبينا ﷺ ، ولا حالاً من أحواله ﷺ ، ولهذا في ليلة المعراج لما أسري به وعاين ما عاين مما أراه الله إياه من آياته الكبرى لم تعرض له هذه الحال ، بل كان كما وصفه الله عز وجل بقوله : ﴿ **ما زاغ**

البصر وما طغى. لقد رأى من آيات ربه الكبرى ﴾ ، وقال : **﴿ وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس ﴾** وقال ابن عباس « هي رؤيا عين أرِيَها رسول الله ﷺ ليلة أسري به » ، ومع هذا فأصبح بينهم لم يتغير عليه حاله ، ولم يعرض له صعْق ولا غشْي يخبرهم عن تفصيل ما رأى ، غير فانٍ عن نفسه ولا عن شهوده ، ولهذا كانت حاله أكمل من حال موسى بن عمران صلى الله عليهما وسلم لما خرّ صعقا حين تجلّى ربه للجبل وجعله دكاً .

« فصل »

هذا الفناء له سببان : **أحدهما :** قوة الوارد وضعف المورود وهذا لا يذم صاحبه .

الثاني : نقصان العلم والتمييز ، وهذا يذم صاحبه ، ولا سيما إذا أعرض عن العلم الذي يحول بينه وبين هذا الفناء وذمه وذم أهله ، ورأى ذلك عائقا من عوائق الطريق فهذا هو المذموم المخوف عليه .

ولهذا عظمت وصية القوم [1] بالعلم ، وحذروا من السلوك بلا علم ، وأمروا بهجر من هجر العلم وأعرض عنه ، وعدم القبول منه لمعرفتهم بمآل أمره وسوء عاقبته في سيره ، وعامة من تزندق من السالكين فلإعراضه عن دواعي العلم وسيره على جادة الذوق والوجد ، ذاهبة به الطريقَ كل مذهب ، فهذا فتنته ، والفتنة به شديدة ، وبالله التوفيق .

٧ ـ قال ابن القيم في الجزء الأول صفحة (١٩٨) في موضع حيث اختلف مع شيخ الإسلام الهروي الصوفي في قوله في « منازل السائرين » (إن من حقائق التوبة : طلب إعذار الخليقة) وناقشه ، ثم قال

---

(١) أي السادة الصوفية رحمهم الله .

ما نصه :

ولا توجب هذه الزلة من شيخ الإسلام إهدار محاسنه وإساءة الظن به فمحله من العلم والإمامة والمعرفة والتقدم في طريق السلوك ، المحل الذي لا يجهل وكل أحد فمأخوذ من قوله ومتروك إلا المعصوم صلوات الله وسلامه عليه ، والكامل من عُدَّ خطؤه ، ولاسيما في مثل هذا المجال الضنك والمعرَك الصعب الذي زلَّت فيه أقدام وضلت فيه أفهام ، وافترقت بالسالكين فيه الطرقات وأشرفوا ـ إلا أقلهم ـ على أودية الهلكات . وكيف لا ؟ وهو البحر الذي تجري سفينة راكبه في موج كالجبال والمعرَك الذي تضاءلت لشهوده شجاعة الأبطال ، وتحيرت فيه عقول ألبَّاء الرجال ووصلت الخليفة إلى ساحله يبغون ركوبه .

فمنهم : من وقف مطرقاً دَهِشاً لا يستطيع أن يملأ منه عينه ولا ينقل عن موقفه قدمه ، قد امتلأ قلبه بعظمة ماشاهد منه فقال : الوقوف على الساحل أسلم وليس بلبيب من خاطر بنفسه .

ومنهم : من رجع على عقبيه لما سمع هديره وصوت أمواجه ، ولم يُطق نظراً إليه .

ومنهم .
من رمى بنفسه في لجه تخفضه موجة وترفعه أخرى .

فهؤلاء الثلاثة على خطر ، إذ الواقف على الساحل عرضة لوصول الماء تحت قدميه ، والهارب ـ ولو جدَّ في الهرب ـ فما له مصير إلا إليه ، والمخاطر ناظر إلى الغرقى كلَّ ساعة بعينيه وما نجى من الخلق إلا الصنف الرابع ، وهم الذين انتظروا موافاة سفينة الأمر ، فلما قربت منهم ناداهم الرُبَّان : ﴿ **اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها** ﴾ فهى سفينة نوح حقاً وسفينة من بعده من

الرسل ، من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق .

فركبوا سفينة الأمر بالقدر ، تجري بهم في تصاريف أمواجه على حكم التسليم لمن بيده التصرف في البحار ، فلم يك إلا غفوة حتى قيل للأرض الدنيا وسمائها : ﴿ **يأرض ابلعي ماءك وياسماء أقلعي ، وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي** ﴾ دار القرار .

والمتخلفون عن السفينة ـ كقوم نوح ـ أغرقوا ثم أحرقوا ، ونودي عليهم على رؤوس العالمين : ﴿ **وقيل بعدا للقوم الظالمين** ﴾ ، ﴿ **وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين** ﴾ ، ثم نودي بلسان الشرع والقدر تحقيقا لتوحيده وإثباتا لحجته وهو أعدل العادلين : ﴿ **قل فللّه الحجةُ البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين** ﴾ .

فصل

وراكب هذا البحر في سفينة الأمر ، وظيفته : مصادمة أمواج القدرومعارضتها بعضها ببعض وإلا هلك ، فيرد القدر بالقدر ، وهذا سير أرباب العزائم من العارفين . وهو معنى قول الشيخ العارف القدوة عبد القادر الكيلاني : « الناس إذا وصلوا إلى القضاء والقدر أمسكوا إلا أنا فانفتحت لي فيه روزنة فنازعت أقدار الحق بالحق للحق ، والرجل من يكون منازعاً للقدر لامن يكون مستسلماً مع القدر » .

ولاتتم مصالح العباد في معاشهم إلا بدفع الأقدار بعضها ببعض . فكيف في معادهم ؟ .

والله تعالى أمر أن تُدفع السيئة ـ وهي من قدره ـ بالحسنة ـ وهي من قدره ـ ، وكذلك الجوع من قدره وأمر بدفعه بالأكل الذي هو من قدره .

ولو استسلم العبد لقدر الجوع مع قدرته على دفعه بقدر الأكل حتى مات : مات عاصيا ، وكذلك البرد والحر والعطش : كلها من أقداره وأمر بدفعها بأقدار تضادها ، والدافع والمدفوع والدفع من قدره .

وقد أفصح النبي ﷺ عن هذا المعنى كل الإفصاح ، إذ قالوا : يارسول الله ! أرأيت أدوية نتداوى بها ، ورُقًى نسترقي بها وتُقًى نتقي بها هل تردُّ من قدر الله شيئاً ؟ قال : « هي من قدر الله » .

وفي الحديث الآخر : « إن الدعاء والبلاء ليعتلجان بين السماء والأرض » .

وإذا طرق العدوُّ من الكفار بلد الإسلام طرقوه بقدر الله ، أفيحل للمسلمين الاستسلام للقدر وترك دفعه بقدر مثله وهو الجهاد الذي يدفعون به قدر الله بقدره ؟ .

وكذلك المعصية إذا قُدِّرت عليك وفعلتها بالقدر ، فادفع موجِبَها بالتوبة النصوح وهى من القدر .

٨ ـ قال ابن القيم في الجزء الثاني صفحة (٣٩) وذلك بعد أن عارض شيخ الإسلام الهروي الصوفي في بعض آرائه قال ما نصه :

وهذا وجه كلامه ، وحمله على أحسن المحامل .

فيقال : هذا ونحوه من الشطحات التي ترجى مغفرتها بكثرة الحسنات ويستغرقها كمال الصدق وصحة المعاملة وقوة الإخلاص وتجريد التوحيد ولم تضمن العصمة لبشر بعد رسول الله ﷺ ، وهذه الشطحات أوجبت فتنة على طائفتين من الناس : ـ

إحداهما : حجبت بها عن محاسن هذه الطائفة ولطف نفوسهم ، وصدق

وقال أبو سليمان الداراني : تُعرض عليَّ النكتة من نكت القوم فلا أقبلها إلا بشاهدي عدل : الكتاب والسنة .

وقال الجنيد : مذهبنا مقيد بالكتاب والسنة ، فمن لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث لايقتدى به في طريقنا .

هذا إلى غير ذلك من الأقوال التي وردت عنهم رضي الله عنهم .

٩ ـ قال ابن القيم في الجزء الثاني صفحة (٥٢) مانصه : ـ

(والله يشكر لشيخ الإسلام [1] سعيه ويعلي درجته ويجزيه أفضل جزائه ويجمع بيننا وبينه في محل كرامته ، فلو وجد مريده [2] سعة وفسحة في ترك الاعتراض عليه واعتراض كلامه لما فعل .

كيف وقد نفعه الله بكلامه وجلس بين يديه مجلس التلميذ من أستاذه وهو أحد من كان على يديه فتحه يقظة ومناماً .

وهذا غاية جهد المقل في هذا الموضع ، فمن كان عنده فضل علم فليَجُد به أو فليعذر ولايبادر إلى الإنكار ، فكم بين الهدهد ونبي الله سليمان وهو يقول له : ﴿ **أحطت بما لم تحط به** ﴾ ، وليس شيخ الإسلام أعلم من نبي الله ولا المعترض عليه بأجهل من هدهد ، والله المستعان وهو أعلم) .

١٠ ـ قال ابن القيم في الجزء الثالث صفحة (٣٣٠) مانصه : ـ

(فاعلم أن في لسان القوم [3] من الاستعارات وإطلاق العام وإرادة الخاص ، وإطلاق اللفظ وإرادة إشارته دون حقيقة معناه ماليس في لسان

---

(١) هو شيخ الإسلام أبو إسماعيل عبد الله بن محمد الأنصاري الهروي الصوفي اهـ .

(٢) يعني به الإمام ابن القيم نفسه اهـ .

(٣) أي السادة الصوفية رحمهم الله اهـ .

أحد من الطوائف غيرهم ، ولهذا يقولون : « نحن أصحاب إشارة لا أصحاب عبارة » ، و « الإشارة لنا والعبارة لغيرنا » .

وقد يطلقون العبارة التي يطلقها الملحد ويريدون بها معنًى لافساد فيه . وصار هذا سبباً لفتنة طائفتين : طائفة تعلقوا عليهم بظاهر عباراتهم فبدَّعوهم وضللوهم .

وطائفة : نظروا إلى مقاصدهم ومغزاهم فصوَّبوا تلك العبارات وصححوا تلك الإشارات ، فطالب الحق يقبله ممن كان ، ويرد ماخالفه على من كان .

١١ ـ قال ابن القيم في الجزء الثالث صفحة (١٥١) مانصه : ـ

فإياك ثم إياك والألفاظ المجملة المشتبهة التي وقع اصطلاح القوم عليها ، فإنها أصل البلاء ، وهى مورد الصديق والزنديق ، فإذا سمع الضعيف المعرفة والعلم بالله تعالى لفظ « اتصال ، وانفصال ، ومسامرة ، ومكالمة ، وأنه لاوجود في الحقيقة إلا وجود الله ، وأن وجود الكائنات خيال ووهم ، وهو بمنزلة وجود الظل القائم بغيره » ، فاسمع منه مايملأ الآذان من حلول واتحاد وشطحات .

والعارفون من القوم أطلقوا هذه الألفاظ ونحوها ، أرادوا بها معاني صحيحة في نفسها فغلط الغالطون في فهم ماأرادوه ، ونسبوهم إلى إلحادهم وكفرهم .

١٢ ـ قال ابن القيم في الجزء الأول صفحة (٤٣٠) : ـ

وقد أتى بفصل خاص في بيان مشاهد الخلق وذكر فيه ثلاثة عشر مشهداً أربعة منها للمنحرفين ، والبقية لأهل الإستقامة ، وقال عن هذا الفصل : « إنه من أجلّ فصول الكتاب وأنفعها لكل أحد ، وهو حقيق بأن تُثْنىٰ عليه الخناصر » ، وقال : « لعلك لاتظفر به في كتاب سواه » .

قال فيه في نهاية المشهد الثاني عشر مانصه :

« فإذا استبصر في هذا المشهد وتمكن من قلبه وباشره وذاق طعمه وحلاوته ترقَّى منه إلى :

المشهد الثالث عشر

وهو الغاية التي شمر إليها السالكون وأمّها القاصدون ولحظ إليها العاملون ، وهو مشهد العبودية والمحبة والشوق إلى لقائه والابتهاج به والفرح والسرور به ، فتقر عينه ويسكن إليه قلبه ، وتطمئن إليه جوارحه ويستولي ذكره على لسان مُحِبِّه وقلبه فتصير خطرات المحبة مكان خطرات المعصية ، وإرادات التقرب إليه وإلى مرضاته مكان إرادة معاصيه ومساخطه ، وحركات اللسان والجوارح بالطاعات مكان حركاتها بالمعاصي .

قد امتلأ قلبه من محبته ولهج لسانه بذكره وانقادت الجوارح لطاعته ، فإن هذه الكسرة الخاصة لها تأثير عجيب في المحبة لايعبر عنه .

ويحكى عن بعض العارفين أنه قال : دخلت على الله من أبواب الطاعات كلها فما دخلت من باب إلا رأيت عليه الزحام ، فلم أتمكن من الدخول حتى جئت باب الذل والافتقار ، فإذا هو أقرب باب إليه وأوسعه ، ولا مزاحم فيه ولامعوق ، فما هو إلا أنه وضعت قدمي في عتبته فإذا هو ـ سبحانه ـ قد أخذ بيدي وأدخلني عليه .

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية رضي الله عنه يقول : من أراد السعادة الأبدية فليلزم عتبة العبودية .

وقال بعض العارفين : لاطريق أقرب إلى الله من العبودية ، ولاحجاب أغلظ من الدعوى ، ولاينفع مع الإعجاب والكبر عمل واجتهاد ، ولايضر مع

الذل والافتقار بطالة ؛ يعني بعد فعل الفرائض .

والقصد أن هذه الذلة والكسرة الخاصة تدخله على الله ، وترميه على طريق المحبة ، فيفتح له منها باب لايفتح له من غير هذه الطريق ، وإن كانت طرق سائر الأعمال والطاعات تفتح للعبد أبوابا من المحبة ، لكن الذي يفتح منها من طريق الذل والانكسار والافتقار وازدراء النفس ورؤيتها بعين الضعف والعجز والعيب والنقص والذم بحيث يشاهدها ضيعة وعجزا وتفريطا وذنبا وخطيئة : نوع آخر وفتح آخر .

والسالك بهذه الطريق غريب في الناس ، وهم في وادٍ وهو في وادٍ .

وهي تسمى طريق الطير ، يسبق النائم فيها على فراشه السُعاة فيصبح وقد قطع الطريق وسبق الركب ، بينا هو يحدثك إذا به قد سبق الطرف وفات السُعاة ، فالله المستعان ، وهو خير الغافرين .

١٣ ـ قال ابن القيم في الجزء الثاني صفحة (٤٦٤) :

« فصل »

ومن منازل ﴿ **إياك نعبد وإياك نستعين** ﴾ منزلة « العلم » .

وهذه المنزلة إن لم تصحب السالك من أول قدم يضعه في الطريق إلى آخر قدم ينتهي إليه فسلوكه على غير طريق .

وهو مقطوع عليه طريق الوصول مسدود عليه سبل الهدى والفلاح مغلقة عنه أبوابها ، وهذا إجماع من الشيوخ العارفين .

ولم ينه عن العلم إلا قطاع الطريق منهم ونُواب إبليس وشُرطه .

قال سيد الطائفة وشيخهم الجنيد بن محمد رحمه الله : الطرق كلها

مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى آثار الرسول ﷺ .

وقال : من لم يحفظ القرآن ويكتب الحديث لا يُقتدى به في هذا الأمر لأن علمنا مقيد بالكتاب والسنة .

وقال : مذهبنا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة .

وقال أبو حفص رحمه الله : من لم يزن أفعاله وأحواله في كل وقت بالكتاب والسنة ، ولم يتهم خواطره فلا يعد في ديوان الرجال .

وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله : ربما يقع في قلبي النكتة من نكت القوم أياما فلا أقبل منه إلا بشاهدين عدلين : الكتاب والسنة .

وقال سهل بن عبد الله رحمه الله : كل فعل يفعله العبد بغير اقتداء طاعة كان أو معصية فهو عيش النفس وكل فعل يفعله العبد بالاقتداء فهو عذاب على النفس .

وقال السري : التصوف اسم لثلاثة معان : لا يطفئ نور معرفته نور ورعه ، ولا يتكلم بباطن في علم ينقضه عليه ظاهر الكتاب ، ولا تحمله الكرامات على هتك أستار محارم الله .

وقال أبو يزيد : عملت في المجاهدة ثلاثين سنة ، فما وجدت شيئاً أشد عليَّ من العلم ومتابعته ، ولولا اختلاف العلماء لبقيت ، واختلاف العلماء رحمة إلا في تجريد التوحيد .

وقال مرة لخادمه : قم بنا إلى هذا الرجل الذي قد شهر نفسه بالصلاح لنزوره ، فلما دخلا عليه المسجد تنخع ثم رمى بها نحو القبلة ، فرجع ولم يسلم عليه

وقال : هذا غير مأمون على أدب من آداب رسول الله ﷺ فكيف يكون

مأمونا على مايدعيه ؟

وقال : لقد هممت أن أسأل الله تعالى أن يكفيني مؤونة النساء ثم قلت : كيف يجوز لي أن أسأل الله هذا ولم يسأله رسول الله ﷺ ؟ ولم أسأله ، ثم إن الله كفاني مؤنة النساء حتى لاأبالي استقبلتني امرأة أو حائط .

وقال : لو نظرتم إلى رجل أعطي من الكرامات إلى أن يرتفع في الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي وحفظ الحدود وأداء الشريعة .

وقال أحمد بن أبي الحواري رحمه الله : من عمل عملا بلا اتباع سنة فباطل عمله.

وقال أبو عثمان النيسابوري رحمه الله : الصحبة مع الله بحسن الأدب ودوام الهيبة والمراقبة ، والصحبة مع الرسول ﷺ باتباع سنته ولزوم ظاهر العلم ، ومع أولياء الله بالاحترام والخدمة ، ومع الأهل بحسن الخلق ، ومع الإخوان بدوام البشر مالم يكن إثماً ، ومع الجهال بالدعاء لهم والرحمة .

زاد غيره : ومع الحافظين بإكرامها واحترامها وإملائها مايحمدانك عليه ، ومع النفس بالمخالفة ،ومع الشيطان بالعداوة .

وقال أبو عثمان أيضا : من أمَّر السنة على نفسه قولا وفعلا نطق بالحكمة ، ومن أمَّر الهوى على نفسه قولا وفعلا نطق بالبدعة ، قال الله تعالى : ﴿ **وإن تطيعوه تهتدوا** ﴾ .

وقال أبو الحسين النوري : من رأيتموه يدعي مع الله عز وجل حالة تخرجه عن حد العلم الشرعي فلا تقربوا منه .

وقال محمد بن الفضل البلخي من مشايخ القوم الكبار : ذهاب الإسلام من أربعة : لا يعملون بما يعلمون ، ويعملون بما لا يعلمون ، ولا يتعلمون ما

يعملون ، ويمنعون الناس من التعلم والتعليم .

وقال عمرو بن عثمان المكي : العلم قائد والخوف سائق والنفس قرون بين ذلك ، جموح خداعة رواغة ، فاحذرها وراعها بسياسة العلم وسُقها بتهديد الخوف يتم لك ما تريد .

وقال أبو سعيد الخراز : كل باطن يخالفه الظاهر فهو باطل .

وقال ابن عطاء : من ألزم نفسه آداب السنة نور الله قلبه بنور المعرفة ، ولا مقام أشرف من مقام متابعة الحبيب في أوامره وأفعاله وأخلاقه .

وقال : كل ما سألت عنه فاطلبه في مفازة العلم ، فإن لم تجده ففي ميدان الحكمة ، فإن لم تجده فزنه بالتوحيد ، فإن لم تجده في هذه المواضع الثلاثة فاضرب به وجه الشيطان .

وأُلقي بنان الحمال بين يدي السبع ، فجعل السبع يشمه ولا يضره ، فلما أخرج قيل له : ما الذي كان في قلبك حين شمك السبع ؟ قال : كنت أتفكر في اختلاف العلماء في سؤر السباع .

وقال أبو حمزة البغدادي ـ من أكابر الشيوخ ـ وكان أحمد بن حنبل يقول له في المسائل : ما تقول ياصوفي ؟ـ: « من علم طريق الحق سهل عليه سلوكه ، ولا دليل على الطريق إلى الله إلا متابعة الرسول ﷺ في أحواله وأقواله وأفعاله . ومر الشيخ أبو بكر محمد بن موسى الواسطي يوم الجمعة إلى الجامع ، فانقطع شسع نعله ، فأصلحه له رجل صيدلاني ، فقال : تدري لِمَ انقطع شسع نعلي ؟ فقال : لا ، فقال : لأني ما اغتسلت للجمعة ، فقال : ههنا حمام تدخله ؟ فقال : نعم ، فدخل واغتسل .

وقال أبو إسحاق الرقي من أقران الجنيد : علامة محبة الله إيثار طاعته ومتابعة رسوله ﷺ .

وقال أبو يعقوب النهرجوري : أفضل الأحوال : ماقارن العلم .

وقال أبو القاسم النصر آباذي ـ شيخ خراسان في وقتـه : أصل التصوف : ملازمة الكتـاب والسنـة ، وترك الأهواء والبـدع ، وتعظيم كرامـات المشـايـخ ورؤيـــة أعـــذار الخلـق والمـــداومـــة على الأوراد ، وترك ارتكاب الرخص والتأويلات .

وقال أبو بكر الطمستاني ـ من كبار شيوخ الطائفـة ـ : الطريق واضح ، والكتاب والسنة قـائم بين أظهرنـا ، وفضل الصحـابـة معلوم لسبقهم إلى الهجرة ولصحبتهم ، فمن صحب الكتاب والسنة وتغرب عن نفسـه وعن الخلق وهـاجر بقلبه إلى الله فهو الصادق المصيب .

وقـال أبو عمرو بن نجيـد : كل حـال لايكون عن نتيجـة علم فـإن ضرره على صاحبه أكثر من نفعه ، وقال : التصوف : الصبر تحت الأوامر والنواهي .

وكان بعض أكابر الشيوخ المتقـدمين يقـول : يـامعشر الصـوفيـة لاتفـارقـوا السواد في البياض فتهلكوا .

١٤ ـ قال ابن القيم في الجزء الثاني صفحة (٤٨٣) :

ومن منازل ﴿ **إياك نعبد وإياك نستعين** ﴾ منزلة الفراسة ، قال الله تعالى : ﴿ **إن في ذلك لآيات للمتوسمين** ﴾ قال مجاهد رحمه الله : المتفرسين ، وقـال ابن عباس رضي الله عنهما : للناظرين ، وقال قتادة : للمعتبرين ، وقـال مقـاتل : للمتفكرين .

ولاتنافي بين هذه الأقوال ، فـإن النـاظر متى نظر في آثـار ديـار المكـذبين ومنازلهم وما آل إليه أمرهم أورثه فراسة وعبرة وفكرة ......

و« **الفراسة** » ثلاثة أنواع : إيمانية : وهي المتكلم فيها في هذه المنزلة .

وسببها : نور يقذفه الله في قلب عبده يفرق به بين الحق والباطل والحالي والعاطل ، والصادق والكاذب .

وحقيقتها : أنها خاطر يهجم على القلب ينفي مايضاده ، يثب على القلب كوثوب الأسد على الفريسة ، لكن الفريسة فعيلة بمعنى مفعولة .

وبناء الفراسة كبناء الولاية والإمارة والسياسة .

وهذه الفراسة على حسب قوة الإيمان ، فمن كان أقوى إيمانا فهو أحدٌ فراسة .

قال أبو سعيد الخراز : من نظر بنور الفراسة نظر بنور الحق ، وتكون مواد علمه مع الحق بلا سهو ولاغفلة ، بل حكم حق جرى على لسان عبده .

وقال الواسطي : الفراسة شعاشع أنوار لمعت في القلوب ، وتمكن معرفة جملة السرائر في الغيوب من غيب إلى غيب ، حتى يشهد الأشياء من حيث أشهده الحق إياها فيتكلم عن ضمير الخلق .

وقال الداراني : الفراسة مكاشفة النفس ومعاينة الغيب ، وهي من مقامات الإيمان . وسئل بعضهم عن الفراسة ؟ فقال : أرواح تتقلب في الملكوت ، فتشرف على معاني الغيوب ، فتنطق عن أسرار الخلق نُطق مشاهدة لانطق ظن وحسبان .

وقال عمرو بن نجيد : كان شاه الكرماني حاد الفراسة لايخطئ ، ويقول : من غض بصره عن المحارم وأمسك نفسه عن الشهوات وعمر باطنه بالمراقبة وظاهره باتباع السنة وتعود أكل الحلال لم تخطئ فراسته .

وقال أبو جعفر الحداد : الفراسة أول خاطر بلا معارض ، فإن عارضه معارض آخر من جنسه فهو خاطر وحديث نفس .

وقال أبو حفص النيسابوري : ليس لأحد أن يدعي الفراسة ، ولكن يتقي الفراسة من الغير ، لأن النبي ﷺ قال : « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله » ولم يقل : « تفرسوا » ، وكيف يصح دعوى الفراسة لمن هو في محل اتقاء الفراسة .

وقال أحمد بن عاصم الأنطاكي : إذا جالستم أهل الصدق فجالسوهم بالصدق فإنهم جواسيس القلوب ، يدخلون في قلوبكم ويخرجون من حيث لاتحتسبون .

وكان الجنيد يوما يتكلم على الناس ، فوقف عليه شاب نصراني متنكراً ، فقال : أيها الشيخ مامعنى قول النبي ﷺ : « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله » ، فأطرق الجنيد ، ثم رفع رأسه إليه وقال : أسلِم ، فقد حان وقت إسلامك ، فأسلم الغلام .

ويقال في بعض الكتب القديمة : « إن الصدِّيق لاتخطئ فراسته » ، وقال ابن مسعود رضي الله عنه : « أفرس الناس ثلاثة : العزيز في يوسف حيث قال لامرأته : ﴿ **أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا** ﴾ ، وابنة شعيب حين قالت لأبيها في موسى : ﴿ **استأجره** ﴾ ، وأبو بكر في عمر رضي الله عنهما حيث استخلفه .

وفي رواية أخرى : وامرأة فرعون حين قالت : ﴿ **قرة عين لي ولك لاتقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا** ﴾ .

وكان الصديق رضي الله عنه أعظم الأمة فراسة وبعده عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ووقائع فراسته مشهورة فإنه ماقال لشيء : « أظنه كذا » إلا كان كما قال .

ويكفي في فراسته : موافقته ربه في المواضع المعروفة .

ومر به سواد بن قارب ولم يكن يعرفه فقال : لقد أخطأ ظني أو أن هذا كاهن ، أو كان يعرف الكهانة في الجاهلية ، فلما جلس بين يديه قال له ذلك عمر ، فقال : سبحان الله ياأمير المؤمنين مااستقبلت أحدا من جلسائك بمثل ما استقبلتني به ، فقال له عمر رضي الله عنه : ماكنا عليه في الجاهلية أعظم من ذلك ، ولكن أخبرني عما سألتك عنه ، فقال : صدقت ياأمير المؤمنين ، كنت كاهنا في الجاهلية ، ثم ذكر القصة .

وكذلك عثمان بن عفان رضي الله عنه صادق الفراسة ، وقال أنس بن مالك رضي الله عنه : دخلت على عثمان بن عفان رضي الله عنه وكنت رأيت امرأة في الطريق تأملت محاسنها ، فقال عثمان رضي الله عنه : يدخل عليَّ أحدكم وأثر الزنا ظاهر في عينيه ، فقلت : أَوَحْيٌ بعد رسول الله ﷺ ؟ فقال : ولكن تبصرة وبرهان وفراسة صادقة .

وفراسة الصحابة رضي الله عنهم أصدق الفراسة .

وأصل هذا النوع من الفراسة : من الحياة والنور الذين يهبهما الله تعالى لمن يشاء من عباده ، فيحيا القلب بذلك ويستنير ، فلا تكاد فراسته تخطئ .

قال الله : ﴿ **أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها** ﴾ ، كان ميتا بالكفر والجهل فأحياه الله بالإيمان والعلم ، وجعل له بالقرآن والإيمان نورا يستضيء به في الناس على قصد السبيل ويمشي به في الظلم . والله أعلم ....

وللفراسة سببان : أحدهما : جودة ذهن المتفرس وحدة قلبه وحسن فطنته .

والثاني : ظهور العلامات والأدلة على المتفرَّس فيه .

فإذا اجتمع السببان لم تكد تخطئ للعبد فراسة ، وإذا انتفيا لم تكد تصح له فراسة ، وإذا قوي أحدهما وضعف الآخر كانت فراسته بين بين .

وكان إياس بن معاوية من أعظم الناس فراسة ، وله الوقائع المشهورة ، وكذلك الشافعي رحمه الله ، وقيل : إن له فيها تآليف .

ولقد شاهدت من فراسة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أُموراً عجيبة ، ومالم أشاهده منها أعظم وأعظم .

ووقائع فراسته تستدعي سفرًا ضخمًا : ـ

أخبر أصحابَه بدخول التتار الشام سنة تسع وتسعين وستمائة ، وأن جيوش المسلمين تُكسر ، وأن دمشق لايكون بها قتل عام ولا سبي عام ، وأن كَلَب الجيش وحدته في الأموال ، وهذا قبل أن يَهمَّ التتار بالحركة .

ثم أخبر الناسَ والأمراء سنة اثنتين وسبعمائة لما تحرك التتار وقصدوا الشام ، أن الدائرة والهزيمة عليهم ، وأن الظفر والنصر للمسلمين ، وأقسم على ذلك أكثر من سبعين يمينا ، فيقال له : قل إن شاء الله ، فيقول : إن شاء الله تحقيقا لاتعليقاً . وسمعته يقول ذلك .

قال : فلما أكثروا عليَّ ، قلت : لا تكثروا ، كتب الله تعالى في اللوح المحفوظ : إنهم مهزومون في هذه الكرة وأن النصر لجيوش الإسلام .

قال : وأطعمت بعض الأمراء والعسكر حلاوة النصر قبل خروجهم إلى لقاء العدو . وكانت فراسته الجزئية في خلال هاتين الواقعتين مثل المطر .

ولما طلب إلى الديار المصرية وأريد قتله ـ بعد ماأنضجت له القدور وقلبت له الأمور ـ اجتمع أصحابه لوداعه ، وقالوا : قد تواترت الكتب بأن القوم عاملون على قتلك ، فقال والله لايصلون إلى ذلك أبداً ، قالوا :

أفتحبس ؟ قال : نعم ويطول حبسي ، ثم أخرج وأتكلم بالسنة على رؤوس الناس . سمعته يقول ذلك .

ولما تولى عدوه الملقب بالجاشنكير الملك أخبروه بذلك ، وقالوا : الآن بلغ مراده منك ، فسجد لله شكراً وأطال ، فقيل له : ماسبب هذه السجدة ؟ فقال : هذا بداية ذُله ومفارقة عزه من الآن وقرب زوال أمره ، فقيل : متى هذا ؟ فقال : لاتربط خيول الجند على القرط حتى تُغلب دولته . فوقع الأمر مثل ماأخبر به ، سمعت ذلك منه .

وقال مرة : يدخل عليَّ أصحابي وغيرهم ، فأرى في وجوههم وأعينهم أمورا لاأذكرها لهم .

فقلت له ـ أو غيري ـ : لو أخبرتهم ؟ فقال : أتريدون أن أكون معرِّفاً كمعرف الولاة ؟

وقلت له يوما : لو عاملتنا بذلك لكان أدعى إلى الاستقامة والصلاح ، فقال : لاتصبرون معي على ذلك جمعة ، أو قال : شهراً .

وأخبرني غير مرة بأمور باطنة تختص بي مما عزمت عليه ، ولم ينطق به لساني .

وأخبرني ببعض حوادث كبار تجري في المستقبل ولم يعين أوقاتها ، وقد رأيت بعضها وأنا أنتظر بقيتها .

وما شاهد كبار أصحابه من ذلك أضعاف أضعاف ماشاهدته . والله أعلم .

١٥ ـ وقال ابن القيم في الجزء الثالث صفحة (٦٨) في ذيل بحث مفصل عن منزلة « الوجد » يقول : ـ

فالمراتب أربعة : أضعفها : « التواجد » وهو نوع تكلف وتعمل واستدعاء...

والمرتبة الثانية : « المواجيد » وهي نتائج الأوراد وثمرتها .

والمرتبة الثالثة : « الوجد » وهو ثمرة أعمال القلوب من الحب في الله والبغض فيه كما جعله النبي ﷺ ثمرة كون الله ورسوله أحب إلى العبد مما سواهما .

وثمرة الحب فيه وكراهة عوده في الكفر كما يكره أن يقذف في النار فهذا « الوجد » ثمرة هذه الأعمال القلبية التي هي الحب في الله والبغض في الله .

والمرتبة الرابعة : « الوجود » وهي أعلى ذروة مقام الإحسان ، فمن مقام الإحسان يرقى إليه ، فإنه إذا غلب على قلبه مشاهدة معبوده حتى كأنه يراه ـ وتمكن في ذلك ـ صار له ملكة أخمدت أحكام نفسه وتبدل بها أحكاما أخرى وطبيعة ثانية ، حتى كأنه أُنشئ نشأة أخرى غير نشأته الأولى وولد ولادا جديداً .

ومما يذكر عن المسيح عليه السلام أنه قال : « يابني إسرائيل لن تلجوا ملكوت السماء حتى تولدوا مرتين » .

سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يذكر ذلك ويفسره : بأن الولادة نوعان :

أحدهما : هذه المعروفة .

والثانية : ولادة القلب والروح وخروجهما عن مشيمة النفس وظلمة الطبع .

قال : وهذه الولادة لما كانت بسبب الرسول كان كالأب للمؤمنين وقد قرأ أبي بن كعب رضي الله عنه **(النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أب لهم)** .

قال : ومعنى هذه الآية والقراءة في قوله تعالى ﴿ **وأزواجه أمهاتهم** ﴾ إذ ثبوت أمومة أزواجه لهم : فرع عن ثبوت أبوته .

قال : فالشيخ والمعلم والمؤدب أب الروح ، والوالد أب الجسم .

١٦ - قال ابن القيم في الجزء الثالث صفحة (١٢٨) : -

قوله : « الوقت : ظرف الكون » الوقت : عبارة عن مقارنة حادث لحادث عند المتكلمين ، فهو نسبة بين حادثين .

فقوله : « ظرف الكون » أي وعاء التكوين ، فهو الوعاء الزماني الذي يقع فيه التكوين ، كما أن ظرف المكان : هو الوعاء المكاني الذي يحصل فيه الجسم . ولكن « الوقت » في اصطلاح القوم أخص من ذلك .

قال أبو علي الدقاق : الوقت ماأنت فيه ، فإن كنت في الدنيا فوقتك الدنيا ، وإن كنت بالعقبى فوقتك العقبى ، وإن كنت بالسرور فوقتك السرور ، وإن كنت بالحزن فوقتك الحزن .

يريد أن الوقت ماكان الغالب على الإنسان من حاله .

وقد يريد : أن الوقت مابين الزمانين الماضي والمستقبل ، وهو اصطلاح أكثر الطائفة . ولهذا يقولون : الصوفي والفقير ابن وقته .

يريدون أن همته لاتتعدى وظيفة عمارته بما هو أولى الأشياء به ، وأنفعها له ، فهو قائم بما هو مطالب به في الحين والساعة الراهنة : فهو لايهتم بماضي وقته وآتيه ، بل يهتم بوقته الذي هو فيه ، فإن الاشتغال بالوقت الماضي والمستقبل يضيع الوقت الحاضر ، وكلما حضر وقت اشتغل عنه بالطرفين فتصير أوقاته كلها فوات .

قال الشافعي رضي الله عنه : صحبت الصوفية فما انتفعت منهم إلا بكلمتين ، سمعتهم يقولون : الوقت سيف فإن قطعته وإلا قطعك. ، ونفسك إن لم تشغلها بالحق وإلا شغلتك بالباطل .

قلت : يالهما من كلمتين ، ماأنفعهما وأجمعهما وأدلهما على علو همة قائلهما ويقظته ، ويكفي في هذا ثناء الشافعي على طائفة هذا قدر كلماتهم .

وقد قسم بعضهم الصوفية أربعة أقسام : أصحاب السوابق ، وأصحاب العواقب ، وأصحاب الوقت ، وأصحاب الحق .

قال : فأما أصحاب السوابق فقلوبهم أبدا فيما سبق لهم من الله لعلمهم أن الحكم الأزلي لايتغير باكتساب العبد .

ويقولون : من أقصته السوابق لم تدنه الوسائل ، ففكرهم في هذا أبدا .

ومع ذلك فهم يجدُّون في القيام بالأوامر واجتناب النواهي والتقرب إلى الله بأنواع القرب غير واثقين بها ولا ملتفتين إليها ويقول قائلهم : -

من أين أرضيك إلا أن توفقني ... هيهات هيهات ماالتوفيق من قبلي
إن لم يكن لي في المقدور سابقة ... فليس ينفع ماقدمت من عملي

وأما أصحاب العواقب : فهم متفكرون فيما يختم به أمرهم ، فإن الأمور بأواخرها والأعمال بخواتيمها والعاقبة مستورة كما قيل : -

لايغرنك صفا الأوقات ... فإن تحتها غوامض الآفات

فكم من ربيع نورت أشجاره وتفتحت أزهاره وزهت ثماره لم يلبث أن أصابته جائحة سماوية فصار كما قال الله عز وجل : ﴿ **حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها** - إلى قوله - **يتفكرون** ﴾ .

فكم من مريد كَبَا بِهِ جواد عزمه ... فخر صريعًا لليدين وللفم

وقيل لبعضهم - وقد شوهد منه خلاف ما كان يعهد عليه -: ما الذي أصابك؟
فقال : حجاب وقع ، وأنشد :-

أحسنت ظنك بالأيام إذ حسنت ولم تخف سوء ما يأتي به القدر
وسالمتك الليالي فاغتررت بها وعند صفو الليالي يحدث الكدر

ليس العجب ممن هلك كيف هلك ؟ إنما العجب ممن نجا كيف نجا ؟

تعجبين من سقمي صحتي هي العجب !!

الناكصون على أعقابهم أضعاف أضعاف من اقتحم العقبة :-

خذ من الألف واحدا واطرح الكل من بعده

وأما أصحاب الوقت : فلم يشتغلوا بالسوابق ولابالعواقب ، بل اشتغلوا بمراعاة الوقت ومايلزمهم من أحكامه ، وقالوا : العارف ابن وقته ، لاماضي له ولامستقبل .

ورأى بعضهم الصدِّيق رضي الله عنه في منامه فقال له : أوصني ، فقال له : كُن ابن وقتك .

وأما أصحاب الحق : فهم مع صاحب الوقت والزمان ومالكها ومدبرهما مأخوذون بشهوده عن مشاهدة الأوقات ، لايتفرغون لمراعاة وقت ولا زمان ، كما قيل : -

لست أدري أطال ليلي أم لا كيف يدري بذاك من يتقلّى
لو تفرغت لاستطالة ليلى ولرعي النجوم كنت مخلّى

إن للعاشقين عن قصر الليل وعن طوله من العشق شغلا قال الجنيد :

دخلت على السري يوما فقلت له : كيف أصبحت ؟ فأنشأ يقول : -

ما في النهار ولا في الليل لي فرج فلا أبالي أطال الليل أم قصرا

ثم قال : ليس عند ربكم ليل ولا نهار .

يشير إلى أنه غير متطلع إلى الأوقات ، بل هو مع الذي يقدر الليل والنهار .

١٧ ـ قال ابن القيم في الجزء الثالث صفحة (٣٣٤) :

« فصل »

قال صاحب المنازل « باب المعرفة » : قال الله تعالى : ﴿ **وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق** ﴾ .

المعرفة : إحاطة بعين الشيء كما هو ....

والفرق بين « العلم » و « المعرفة » عند أهل هذا الشأن [١] : أن « المعرفة » عندهم هي العلم الذي يقوم العالم بموجبه ومقتضاه ، فلا يطلقون المعرفة على مدلول العلم وحده ، بل لا يصفون بالمعرفة إلا من كان عالما بالله وبالطريق الموصل إلى الله وبآفاتها وقواطعها ، وله حال مع الله تشهد له بالمعرفة .

فالعارف ـ عندهم ـ من عرف الله سبحانه بأسمائه وصفاته وأفعاله ، ثم صدق الله في معاملته ثم أخلص له في مقصوده ونياته ثم انسلخ من أخلاقه الرديئة وآفاته ثم تطهر من أوساخه وأدرانه ومخالفاته ثم صبر على أحكام الله في نعمه وبلياته ثم دعا إليه على بصيرة بدينه وآياته ثم جرد الدعوة إليه وحده بما جاء به رسوله ، ولم يُشبْها بآراء الرجال وأذواقهم ومواجيدهم ومقاييسهم ومعقولاتهم ولم يزن بها ماجاء به الرسول عليه من الله أفضل صلواته .

---

(١) أي السادة الصوفية رحمهم الله .

فهذا الذي يستحق اسم العارف على الحقيقة ـ إذا سمي به غيره على الدعوى والاستعارة .

وقد تكلموا على « المعرفة » بآثارها وشواهدها .

فقال بعضهم : من أمارات المعرفة بالله حصول الهيبة منه فمن ازدادت معرفته ازدادت هيبته .

وقال أيضا : المعرفة توجب السكون ، فمن ازدادت معرفته ازدادت سكينته .

وقال لي بعض أصحابنا : ماعلامة المعرفة التي يشيرون إليها ؟ فقلت له : أنس القلب بالله ، قال لي : علامتها أن يحس بقرب قلبه من الله فيجده قريبا منه .

وقال الشبلي : ليس لعارف علاقة ، ولالمحب شكوى ، ولالعبد دعوى ولالخائف قرار ، ولالأحد من الله فرار .

وهذا كلام جيد ، فإن المعرفة الصحيحة تقطع من القلب العلائق كلها ، وتعلقه بمعروفه ، فلا يبقى فيه علاقة بغيره ، ولاتمر به العلائق إلا وهي مجتازة ، لاتمر مرور استيطان ....

وقيل : العارف فوق مايقول ، والعالم دون مايقول .

يعني أن العالم علمه أوسع من حاله وصفته ، والعارف حاله وصفته فوق كلامه وخبره .

وقال أبو سليمان الداراني : إن الله تعالى يفتح للعارف على فراشه مالم يفتح له وهو قائم يصلي .

وقال غيره : العارف تنطق المعرفة على قلبه وحاله وهو ساكت .

وقـال ذوالنون : لكل شيء عقوبـة ، وعقوبـة العـارف انقطـاعـه عن ذكر الله .

وقال بعضهم : ريـاء العـارفين أفضل من إخلاص المريـدين ، وهـذا كلام ظاهره منكر جدا يحتاج إلى شرح : ـ

فالعارف لايرائي المخلوق طلبا لمنزلة في قلبه ، وإنما يكون ريـاؤه نصيحـة وإرشاداً وتعليما ليقتدى به ، فهو يدعو إلى الله بعمله كما يدعو إليه بقولـه فهو ينتفع بعلمه وينفع به غيره .

وإخلاص المريد مقصور على نفسه .

فالعـارف جمع بين الإخلاص والـدعوة إلى الله ، فـإخلاصـه في قلبـه ، وهو يُظهر علمـه وحـالـه ليقتـدى بـه ، فـالعـارف ينفع بسكوتـه والعـالم إنمـا ينفع بكلامه ـ ولو سكنوا أثنت عليه الحقائق ـ .

وقال ذوالنون : الزهاد ملوك الآخرة وهـمفقراء العارفين .

وسئل الجنيد عن العارف ؟ فقال : لون الماء لون إنائه ، وهـذه كلمـة رمز بها إلى حقيقة العبودية :

وهو أن يتلون بتلون أقسام العبودية ، فبينا تراه مصليا إذ رأيتـه ذاكرا أو قارئاً أو معلماً أو متعلمـاً أو مجـاهـداً أو حـاجـاً أو مسـاعـداً للضعيف أو مغيثـاً للملهوف ، فيضرب في كل غنيمـة من الغنـائم بسهم ، فهـو مـع المتسببين متسبب ومع المتعلمين متعلم ومع الغزاة غاز ومع المصلين مصلٍ ومع المتصدقين متصدق ، فهو يتنقل في منازل العبودية من عبوديـة إلى عبوديـة ، وهو مقيم على معبود واحد لاينتقل إلى غيره ....

وقال أبو سعيد : المعرفة تأتي من عين الوجود وبذل المجهود .

وهـذا كـلام حسن ، يشير إلى أن المعرفـة ثمرة بـذل المجهـود في الأعمـال ، وتحقق الـوجـد في الأحـوال ، فهي ثمرة عمـل الجـوارح ، وحـال القلب لاينـال بمجرد العلم والبحث ، فمن ليس له عمل ولاحال فلا معرفة له ....

وقال بعض السلف : نوم العارف يقظة ، وأنفـاسـه تسبيح ، ونوم العـارف أفضل من صلاة الغافل .

وإنما كان نوم العارف يقظة لأن قلبه حي وعيناه تنامان وروحه ساجـدة تحت العرش بين يدي ربها وفاطرها ، جسده في الفرش وقلبه حول العرش .

وإنما كان نومه أفضل من صلاة الغـافل لأن بـدن الغـافل واقف في الصلاة وقلبه يسبَح في حشوش الدنيا والأماني ، ولذلك كانت يقظتـه نومـا لأن قلبـه موات .

وقيل : مجالسة العارف تدعوك من ست إلى ست : من الشـك إلى اليقين ، ومن الرياء إلى الإخلاص ومن الغفلة إلى الذكر ، ومن الرغبـة في الـدنيـا إلى الرغبة في الآخرة ، ومن الكبر إلى التواضع ، ومن سوء الطوية إلى النصيحة .

١٨ ـ قال ابن القيم في الجزء الثالث صفحة (١١٠) : ـ

قال : (الدرجـة الثـانيـة ملاحظـة نور الكشف وهي تَسبل لبـاس التولي وتذيق طعم التجلي وتعصم من عوار التسلي) .

هذه الدرجة أتم مما قبلهـا ، فـإن تلـك الـدرجـة : ملاحظـة مـاسبق بنور العلم ، وهذه ملاحظة كشف بحال قد استولى على قلبه حتى شغلـه عن الخلق ، فأسبل عليه لباس توليه لله وحده وتوليه عما سواه .

ونـور الكشف عنـدهم : هـو مبـدأ الشهـود ، وهـو نـور تجلي معـاني الأسماء الحسنى على القلب فتضيء بـه ظلمـة القلب ويرتفـع بـه حجـاب الكشف ،

ولاتلتفت إلى غير هذا ، فتزل قدم بعد ثبوتها .

فإنك تجد في كلام بعضهم « تجلي الذات يقتضي كذا وكذا ، وتجلي الصفات يقتضي كذا وكذا ، وتجلي الأفعال يقتضي كذا وكذا » ، والقوم عنايتهم بالألفاظ فيتوهم المتوهم أنهم يريدون تجلي الذات والصفات والأفعال للعيان ، فيقع من يقع منهم في الشطحات والطامات والصادقون العارفون برآء من ذلك .

وإنما يشيرون إلى كمال المعرفة ، وارتفاع حجب الغفلة والشك والإعراض ، واستيلاء سلطان المعرفة على القلب بمحو شهود السوى بالكلية ، فلا يشهد القلب سوى معروفه .

وينظرون هذا بطلوع الشمس فإنها إذا طلعت انطمس نور الكواكب ولم تعدم الكواكب ، وإنما غطى عليها نور الشمس فلم يظهر لها وجود ، وهي في الواقع موجودة في أماكنها .

وهكذا نور المعرفة إذا استولى على القلب قوى سلطانها وزالت الموانع والحجب عن القلب ، ولاينكر هذا إلا من ليس من أهله .

ولايعتقد أن الذات المقدسة والأوصاف برزت وتجلت للعبد كما تجلى سبحانه للطور وكما يتجلى يوم القيامة للناس إلا غالط فاقد للعلم ، وكثيرا مايقع الغلط من التجاوز من نور العبادات والرياضة والذكر إلى نور الذات والصفات .

فإن العبادة الصحيحة والرياضة الشرعية والذكر المتواطئ عليه القلب واللسان يوجب نورا على قدر قوته وضعفه ، وربما قوي ذلك النور حتى يشاهد بالعيان فيغلط فيه ضعيف التميز بين خصائص الربوبية ومقتضيات العبودية فيظنه نور الذات وهيهات ثم هيهات .

نور الذات لايقوم له شيء ، ولو كشف سبحانه وتعالى الحجاب عنه لتدكدك العالم كله كما تدكدك الجبل وساخ لما ظهر له القدر اليسير من التجلي

فالإسلام له نور والإيمان له نور أقوى منه والإحسان له نور أقوى منهما ، فإذا اجتمع الإسلام والإيمان والإحسان وزالت الحجب الشاغلة عن الله تعالى : امتلأ القلوب والجوارح بذلك النور ، لابالنور الذي هو صفة الرب تعالى ، فإنه صفاته لاتحل في شيء من مخلوقاته كما أن مخلوقاته لاتحل فيه ، فالخالق سبحانه بائن عن المخلوق بذاته وصفاته فلا اتحاد ولاحلول ولاممازجة ـ تعالى الله عن ذلك كله علواً كبيراً .

١٩ ـ قال ابن القيم في الجزء الثالث صفحة (٩٩) : ـ

قوله « وذوق المسامرة : طعم العيان » مرادهم بالمسامرة : مناجاة القلب ربه وإن سكت اللسان ، فلذة استيلاء ذكره تعالى ومحبته على قلب العبد وحضوره بين يديه وأنسه وقربه منه حتى يصير كأنه يخاطبه ويسامره ويعتذر إليه تارة ويتملقه تارة ويثني عليه تارة حتى يبقى القلب ناطقاً بقوله : (أنت الله الذي لاإله إلاأنت) من غير تكلف له بذلك ،بل يبقى هذا حالا ومقاماً ولاينكر وصول القوم [١] إلى هذا ، فقد قال النبي ﷺ : « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه » فإذا بلغ في مقام الإحسان بحيث يكون كأنه يرى الله سبحانه، فهكذا مخاطبته ومناجاته له .

٢٠ ـ قال ابن القيم في الجزء الثاني صفحة (٤٥٩) : ـ

ومن منازل ﴿ **إياك نعبد وإياك نستعين** ﴾ منزلة « الإحسان » ، وهي لب الإيمان وروحه وكماله ، وهذه المنزلة تُجمع جميع المنازل فجميعها منطوية فيها .

---

(١) أي شيوخ الصوفية رحمهم الله .

وكل ماقيل من أول الكتاب إلى ههنا فهو من الإحسان . أهـ .

هـذه عشرون قطعـة نفيسـة من كلام الحـافـظ ابن القيم في كتـابـه العظيم « مدارج السالكين » شرح « منازل السائرين » اخترناهـا من مواضع مختلفـة . والكتاب كله مملوء بالكنوز الثمينة وكل مافيه يتعلق بـأمور التصوف المختلفـة ، والآن سنذكر نمـاذج من كلامـه المتعلق بـالتصوف والسـادة الصوفيـة من بعض كتبه الأخرى أيضاً وباختصار جداً إن شاء الله : ـ

قال في كتابه « روضة المحبين ونزهة المشتاقين » صفحة (٤٠٦) مانصه : ـ

ومن عرف الله لم يكن شيء أحب إليه منه ، ولم تبق له رغبة فيما سواه إلا فيما يقربه إليه ويعينه على سفره إليه .

ومن علامات المعرفة : الهيبة ، فكلمـا ازدادت معرفـة العبـد بربـه ازدادت هيبته له وخشيته إياه ، كما قال تعالى : ﴿ **إنما يخشى اللهَ من عبـاده العلمـاء** ﴾ أي العلماء به .

وقال النبي ﷺ « أنا أعرفكم بالله وأشدكم له خشية » .

ومن عرف الله صفا له العيش وطـابت لـه الحيـاة وهـابـه كل شيء وذهب عنه خوف المخلوقين وأنس بالله واستوحش من الناس ، وأورثتـه المعرفـة الحيـاء من الله والتعظيم له والإجلال والمراقبة والمحبة والتوكل عليه والإنابة إليه والرضا والتسليم لأمره . وقيل للجنيـد رحمـه الله تعـالى : إن هـاهنـا أقوامـاً يقولون : « إنهم يصلون إلى البر بترك الحركات » فقال : هؤلاء تكلموا بـإسقـاط الأعمـال وهو عندي عظيم والذي يزني ويسرق أحسن حالاً من الذي يقول هـذا ، فـإن العارفين بـالله أخـذوا الأعمـال عن الله وإلى الله رجعوا فيهـا ، ولو بقيت ألف عام لم أنقص من أعمال البر شيئاً .

وقال : لايكون العارف عارفاً حتى يكون كالأرض يطؤه البر والفاجر ، وكالمطر يسقي مايحب ومالايحب .

وقال يحيي بن معاذ : يخرج العارف من الدنيا ولا يقضي . وطره من شيئين : بكاؤه على نفسه ، وشوقه إلى ربه .

وقال بعضهم : لايكون العارف عارفاً حتى لو أعطي ملك سليمان لم يشغله عن الله طرفة عين .

وقيل : العارف أنِس بالله فاستوحش من غيره ، وافتقر إلى الله فأغناه عن خلقه ، وذل لِله فأعزه في خلقه .

وقال أبو سليمان الداراني : يفتح للعارف على فراشه مالا يفتح له وهو قائم يصلي .

وقال ذوالنون : لكل شيء عقوبة ، وعقوبة العارف انقطاعه عن ذكر الله .

وبالجملة فحياة القلب مع الله لاحياة له بدون ذلك أبداً ، ومتى واطأ اللسانُ القلبَ في ذكره ، وواطأ القلب مراد حبيبه منه واستقل له الكثير مع قوله وعمله واستكثر له القليل من بره ولطفه ، وعانق الطاعة وفارق المخالفة وخرج عن كله لمحبوبه فلم يبق منه شيء وامتلأ قلبه بتعظيمه وإجلاله وإيثار رضاه وعز عليه الصبر عنه ، وعُدم القرار دون ذكره والرغبة إليه والاشتياق إلى لقائه ، ولم يجد الأنس إلا بذكره وحفظ حدوده وآثره على غيره فهو المحب حقاً .

وقال الجنيد : سمعت الحارث المحاسبيَّ يقول : المحبة ميلك إلى الشيء بكليتك ثم إيثارك له على نفسك وروحك ومالك ، ثم موافقتك له سرا وجهراً

ثم علمك بتقصيرك في حبه .

وقيل : المحبة نار في القلب تحرق ماسوى مراد الحبيب من محبه .

وقيل : بل هي بذل المجهود في رضا الحبيب ، ولاتصح إلا بالخروج عن رؤية المحبة إلى رؤية المحبوب .

وفي بعض الآثار الإلهية : عبدي أنا وحقِّك لك محب ، فبحقي عليك كن لي محباً .

وقال عبد الله بن المبارك : من أعطي شيئاً من المحبة ولم يعط مثله من الخشية فهو مخدوع .

وقال يحيى بن معاذ : مثقال خردلة من الحب أحبّ إليَّ من عبادة سبعين سنة بلا حب .

وقال أبو بكر الكتاني : جرت مسألة في المحبة بمكة أيام موسم ، فتكلم الشيوخ [١] فيها ، وكان الجنيد أصغرهم سناً ، فقالوا : هات ماعندك ياعراقي ، فأطرق رأسه ودمعت عيناه ثم قال : عبد ذاهب عن نفسه متصل بذكر ربه قائم بأداء حقوقه ناظر إليه بقلبه أحرق قلبه أنوار هُوِيَّته وصفا شربه من كأس وده ، فإن تكلم فبالله وإن نطق فمن الله وإن تحرك فبأمر الله وإن سكت فمع الله ، فهو بالله ولله ومع الله ، فبكى الشيوخ وقالوا : ماعلى هذا مزيد ، جبرك الله ياتاج العارفين .

وقيل : أوحى الله إلى داود عليه السلام .

« ياداود إني حرمت على القلوب أن يدخلها حبي وحب غيري .

فأجمع العارفون كلهم : أن المحبة لاتصح إلا بالموافقة حتى قال بعضهم :

(١) أي شيوخ الصوفية رحمهم الله .

حقيقة الحب موافقة المحبوب في مراضيه ومساخطه .

واتفق القوم [١] أن المحبة لاتصح إلا بتوحيد المحبوب .

ويُحكى أن رجلاً ادعى الاستهلاك في محبة شخص فقال له : كيف وهذا أخي أحسن مني وجهاً وأتم جمالاً ؟ فالتفت الرجل إليه فدفعه الشاب وقال : من يدعي هوانا ينظر إلى سوانا ؟ .

وذكرت المحبة عند ذي النون فقال : كفوا عن هذه المسألة لاتسمعها النفوس فتدَّعيها ، ثم أنشأ يقول : ـ

الخوف أولى بالمسيء إذا تأله والحزن

والحب يجمل بالتقي وبالنقي من الدرن

وقال سمنون : ذهب المحبون لله بشرف الدنيا والآخرة ، إن النبي ﷺ قال : « المرء مع من أحب » فهم مع الله في الدنيا والآخرة .

وقال يحيى بن معاذ : ليس بصادق من ادعى محبته ثم لم يحفظ حدوده .

فالمحبة شجرة في القلب عروقها الذل للمحبوب وساقها معرفته وأغصانها خشيته وورقها الحياء منه وثمرتها طاعته ومادتها التي تسقيها ذكره ، فمتى خلا الحب عن شيء من ذلك كان ناقصاً .

وقد وصف الله سبحانه نفسه بأنه يحب عباده المؤمنن ويحبونه ، فأخبر أنهم أشد حبا لله ، ووصف نفسه بأنه الودود وهو الحبيب ، قاله البخاري ، والود خالص الحب فهو يود عباده المؤمنين ويودونه ....

ولو لم يكن في محبة الله إلا أنها تنجي محبَّه من عذابه لكان ينبغي للعبد أن لا يتعوض عنها بشيء أبداً .

---

(١) أي السادة الصوفية رحمهم الله .

وسئل بعض العلماء : أين تجد في القرآن أن الحبيب لايعذب حبيبه ؟ فقال : في قوله تعالى : ﴿ **وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم** ﴾ الآية .

وقال الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل بن يونس عن الحسن رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : والله لايعذب الله حبيبه ، ولكن قد يبتليه في الدنيا .

وقال الإمام أحمد : حدثنا سيار ، حدثنا جعفر ، حدثنا أبو غالب ، قال : بلغنا أن هذا الكلام في وصية عيسى بن مريم ﷺ (يامعشر الحواريين تحببوا إلى الله ببغض أهل المعاصي ، وتقربوا إليه بالمقت لهم والتمسوا رضاه بسخطهم ، قالوا : يانبي الله فمن نجالس ؟ ! قال : جالسوا من يزيد في أعمالكم منطقه ومن تذكركم بالله رؤيته ويزهدكم في دنياكم علمه) ......

وقال عبد الواحد بن زيد عن الحسن : لو علم العابدون أنهم لا يرون ربهم في الآخرة لذابت أنفسهم في الدنيا .

وقال هشام بن حسان عنه أنه تبارك وتعالى يتجلى لأهل الجنة فإذا رأوه نسوا نعيم الجنة .

أعجب الصبر صبر المحبين . قال الشاعر : ـ

والصبر يحمد في المواطن كلها ‏ ‏ ‏ إلا عليك فإنه لايحمد

وقف رجل على الشبلي فقال : أي الصبر أشد على الصابرين ؟ قال : الصبر في الله ، فقال السائل : لا ، فقال : الصبر لله ، قال : لا ، قال : فالصبر مع الله ، قال : لا ، قال : فما هو ؟ قال : الصبر عن الله ، فصرخ الشبلي صرخة كادت روحه تزهق .. قال الشاعر : ـ

والصبر عنك فمذموم عواقبه ‏ ‏ ‏ والصبر في سائر الأشياء محمود

الخوف يبعدك عن معصيته ، والرجاء يخرجك إلى طاعته ، والحب يسوقك إليه سوقاً لما علم الله سبحانه أن قلوب المشتاقين إليه لاتهدأ إلا بلقائه ضرب لهم أجلاً للقاء تسكيناً لقلوبهم ، فقال الله تعالى : ﴿ **من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت** ﴾ .

يامن شكى شوقه من طول فرقته اصبر لعلك تلقى من تحب غدا
وسر إليه بنار الشوق مجتهداً عساك تلقى على نار الغرام هدى

أقر شيء لعيون المحب خلوته بسرِّه مع محبوبه ، حدثني من رأى شيخنا [١] في عنوان أمره خرج إلى البرية بكرة فلما أصحر تنفس الصعداء ثم تمثل بقول الشاعر : ـ

وأخرج من بين البيوت لعلني أحدث عنك القلب بالسر خاليا

الشوق يحمل المحب على العجلة في رضاء المحبوب والمبادرة إليها على الفور ولو كان فيها تَلفه ﴿ **وماأعجلك عن قومك ياموسى ، قال هم أولاء على أثري وعجلت إليك رب لترضى** ﴾ .

قال بعضهم : أراد شوقاً إليك فستره بلفظ الرضا ....

لو قيل للمحب على الدوام : ماتتمنى ؟ لقال : لقاء المحبوب .

ولما نزلنا منزلاً طلَّه الندىٰ أنيقاً وبستاناً من النور حالياً
أجد لنا طيب المكان وحسنه مُنىً فتمنينا فكنتَ الأمانيا

وقال الجنيد : سمعت السري يقول : الشوق أجل مقام العارف إذا تحقق فيه ، وإذا تحقق بالشوق لها عن كل مايشغله عمن يشتاق إليه .

---

(١) أي شيخ الإسلام ابن تيمية .

وقيل : أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : قل لشبان بني إسرائيل لم تشغلون نفوسكم بغيري وأنا مشتاق إليكم ماهذا الجفاء ؟ ولو يعلم المدبرون عني كيف انتظاري لهم ورفقي بهم ومحبتي لترك معاصيهم لماتوا شوقاً إليَّ وانقطعت أوصالهم من محبتي ، هذه إرادتي للمدبرين عني فكيف إرادتي للمقبلين عليَّ ؟

وسئل الجنيد : من أي شيء بكاء المحب إذا لقي المحبوب ؟ فقال : إنما يكون ذلك سروراً به ووجداً من شدة الشوق إليه .

قال : ولقد بلغني أن أخوين تعانقا فقال أحدهما : واشوقاه ، وقال الآخر : واوجداه .

وكانت عجوز لها غائب فقدم من السفر فأظهر أهلها الفرح والسرور به ، فجعلت تبكي فقيل لها : ماهذا البكاء ؟ فقالت : ذكَّرني قدوم هذا الفتى يوم القدوم على الله .

وقال بعض المحبين : قلوب المشتاقين منوّرة بنور الله ، فإذا تحرك اشتياقهم أضاء النور مابين السماء والأرض فيعرضهم الله سبحانه وتعالى على الملائكة فيقول : هؤلاء المشتاقون إليَّ أشهدكم أني إليهم أشوق .

وقال في كتابه « الفوائد »[١] صفحة « ٥٥-» :

فائدة جليلة

بين العبد وبين الله والجنة قنطرة تقطع بخطوتين : خطوة عن نفسه وخطوة عن الخلق فيسقط نفسه ويلغيها فيما بينه وبين الناس ، ويسقط الناس ويلغيهم فيما بينه وبين الله ، فلايلتفت إلا إلى من دله على الله وعلى الطريق الموصلة إليه ....

(١) طبعة دار الكتب العلمية ـ بيروت .

مافي هذه الدار موضع خلوة فاتخذه في نفسك لابد أن تجذبك الجواذب فاعرفها وكن منها على حذر ، لاتضرك الشواغل إذا خلوت منها وأنت فيها : نور الحق أضوأ من الشمس فيحق لخفافيش البصائر أن تعشو عنه .

الطريق إلى الله خالٍ من أهل الشك ومن الذين يتبعون الشهوات وهو معمور بأهل اليقين والصبر وهم على الطريق كالأعلام ﴿ **وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون** ﴾ .

وقال في (الفوائد) أيضاً صفحة (٥٩) :

فائدة

قال الله تعالى : ﴿ **والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا** ﴾ علّق سبحانه الهداية بالجهاد فأكمل الناس هداية أعظمهم جهاداً .

وأفرض الجهاد جهاد النفس وجهاد الهوى وجهاد الشيطان وجهاد الدنيا . فمن جاهد هذه الأربعة في الله هداه الله سبل رضاه الموصلة إلى جنته ، ومن ترك الجهاد فاته من الهدى بحسب ماعطل من الجهاد .

قال الجنيد : « والذين جاهدوا أهواءهم فينا بالتوبة لنهدينهم سبل الإخلاص » ولا يتمكن من جهاد عدوه في الظاهر إلا من جاهد هذه الأعداء باطنا ، فمن نُصر عليها نُصر على عدوه ، ومن نصرت عليه نصر عليه عدوه .

وقال في (الفوائد) أيضاً صفحة (١١٧) :

فصل

علامة صحة الإرادة أن يكون هَمُّ المريد رضا ربه واستعداده للقائه وحزنه على وقت مر في غير مرضاته ، وأسفه على قربه والأنس به .

وجماع ذلك أن يصبح ويمسي وليس له هم غيره .

وقال أيضًا في (الفوائد) صفحة (١٧٠) : ـ

معرفة الله سبحانه نوعان : معرفة إقرار ، وهي التي اشترك فيها الناس البر والفاجر والمطيع والعاصي .

والثاني : معرفة توجب الحياء منه والمحبة له وتعلق القلب به والشوق إلى لقائه وخشيته والإنابة إليه والأنس به والفرار من الخلق إليه ، وهذه هي المعرفة الخاصة الجارية على لسان القوم [١] ، وتفاوتهم فيها لايحصيه إلا الذي عرفهم بنفسه وكشف لقلوبهم من معرفته ماأخفاه عن سواهم .

وكلٌّ أشار هذه المعرفة بحسب مقامه وماكشف له منها ، وقد قال أعرف الخلق به « لاأحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » وأخبر أنه سبحانه يفتح عليه يوم القيامة من محامده بما لايحسنه الآن ....

فصل

الجهل بالطريق وآفاتها والمقصود يوجب التعب الكثير مع الفائدة القليلة ، فإن صاحبه إما أن يجتهد في نافلة مع إضاعته الفرض ، أو في عمل الجوارح لم يواطئه عمل القلب ، أو عمل بالباطن والظاهر لم يتقيد بالاقتداء ، أو همة إلى عمل لم ترق صاحبها إلى ملاحظة المقصود ، أو عمل لم يحترز من آفاته المفسدة له حال العمل وبعده ، أو عمل غفل فيه عن مشاهدة المنة فلم يتجرد عن مشاركة النفس فيه ، أو عمل لم يشهد تقصيراً فيه فيقوم بعده في مقام الاعتذار منه ، أو عمل لم يوفه حقه من النصح والإحسان وهو يظن أنه وفاه .

فهذا كله مما ينقص الثمرة مع كثرة التعب ، والله والموفق .

---

(١) أي السادة الصوفية رحمهم الله .

فصل

إذا عزم العبد على السفر إلى الله تعالى وإرادته عرضت له الخوادع والقواطع فينخدع أولاً بالشهوات والرياسات والملاذ والمناكح والملابس .

فإن وقف معها انقطع ، وإن رفضها ولم يقف معها وصدق في طلبه ابتلي بوطء عقبه وتقبيل يده والتوسعة له في المجلس والإشارة إليه بالدعاء ورجاء بركته ونحو ذلك .

فإن وقف معه انقطع به عن الله وكان حظه منه ، وإن قطعه ولم يقف معه ابتلي بالكرامات والكشوفات .

فإن وقف معها انقطع بها عن الله وكانت حظه ، وإن لم يقف معها ابتلي بالتجريد والتخلي ولذة الجمعية وعزة الوحدة والفراغ من الدنيا .

فَإن وقف مع ذلك انقطع به عن المقصود ، وإن لم يقف معه وسار ناظراً إلى مراد الله منه ومايحبه منه بحيث يكون عبده الموقوف على محابه ومراضيه أين كانت وكيف كانت تعب بها أو استراح تنعَّم أو تألم أخرجته إلى الناس أو عزلته عنهم ، لايختار لنفسه غير مايختاره له وليُّه وسيده واقف مع أمره ينفذه بحسب الإمكان ونفسه عنده أهون عليه أن يقدم راحتها ولذتها على مرضاة سيده وأمره .

فهذا هو العبد الذي قد وصل ونفذ ولم يقطعه عن سيده شيء ألبتة وبالله التوفيق .

وقال في (الفوائد) أيضاً صفحة (١٩٢) :

من الذاكرين من يبتدئ بذكر اللسان وإن كان على غفلته ثم لا يزال فيه حتى يحضر قلبه فيتواطئا على الذكر ، ومنهم من لا يرى ذلك ولايبتدئ على

غفلته بل يسكن حتى يحضر قلبه فيشرع في الذكر بقلبه ، فإذا قوي استتبع لسانه فتواطئا جميعا .

فالأول ينتقل الذكر من لسانه إلى قلبه ، والثاني ينتقل من قلبه إلى لسانه من غير أن يخلو قلبه منه بل يسكن أولا حتى يحسَّ بظهور الناطق فيه ، فإذا أحسّ بذلك نطق قلبه ثم انتقل النطق القلبي إلى الذكر اللساني ثم يستغرق في ذلك حتى يجد كل شيء منه ذاكرا .

وأفضل الذكر وأنفعه ماواطأ فيه القلب اللسان ، وكان من الأذكار النبوية ، وشهد الذاكر معانيه ومقاصده .

وقال في « الفوائد » أيضاً صفحة « ١٩٦ » :

فائدة

الإنابة : هي عكوف القلب على الله عز وجل كاعتكاف البدن في المسجد لايفارقه .

وحقيقة ذلك عكوف القلب على محبته وذكره بالإجلال والتعظيم ، وعكوف الجوارح على طاعته بالإخلاص له والمتابعة لرسوله ، ومن لم يعكف قلبه على الله وحده عكف على التماثيل المتنوعة .

كما قال إمام الحنفاء لقومه : ﴿ **ماهذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون** ﴾ ، فاقتسم هو وقومه العكوف فكان حظ قومه حقيقة العكوف على التماثيل ، وكان حظه العكوف على الرب الجليل .

والتماثيل جمع تمثال وهي الصور الممثلة فتعلُّق القلب بغير الله واشتغاله والركون إليه عكوف منه على التماثيل التي قامت بقلبه ، وهي نظير العكوف على تماثيل الأصنام ، ولهذا كان شرك عباد الأصنام بالعكوف بقلوبهم وهممهم

وإراداتهم على تماثيلهم ، فإذا كان في القلب تماثيل قد ملكته واستعبدته بحيث يكون عاكفاً عليها فهو نظير عكوف الأصنام عليها .

ولهذا سماه النبي ﷺ عبدا لها ودعا عليه بالتعس والنكس فقال : تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم ، تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش .

الناس في هذه الدار على جناح سفر كلهم ، وكل مسافر فهو ظاعن إلى مقصده ونازل على من يسر بالنزول عليه ، وطالب الله والدار الآخرة إنما هو ظاعن إلى الله في حال سفره ونازل عليه عند القدوم عليه .

فهذه همته في سفره وفي انقضائه ﴿ **يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي** ﴾ وقالت امرأة فرعون ﴿ **رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة** ﴾ فطلبت كون البيت عنده قبل طلبها أن يكون في الجنة فإن الجار قبل الدار .

« من كلام الشيخ علي »

قيل لي في نوم كاليقظة ويقظة كالنوم : لاتبد فاقة إلى غيري فأضاعفها عليك مكافأة لخروجك عن حدك في عبوديتك ، ابتليتك بالفقر لتصير ذهبا خالصا فلا تزيفن بعد السبك ، حكمت لك بالفقر ولنفسي بالغني ، فإن وصلتها بي وصلتك بالغنى ، وإن وصلتها بغيري حسمت عنك مواد معونتي طرداً لك عن بابي ، لاتركن إلى شيء دوننا فإنه وبال عليك وقاتل لك ، إن ركنت إلى العمل رددناه عليك ، وإن ركنت إلى المعرفة نكرناها عليك ، وإن ركنت إلى الوجد استدرجناك فيه ، وإن ركنت إلى العمل أوقفناك معه ، وإن ركنت إلى المخلوقين وكلناك إليهم ، ارضنا لك رباً نرضاك لنا عبداً.

وقال الإمام الحافظ ابن القيم في (الوابل الصيب من الكلم الطيب) [١] **صفحة (٦٨) : ـ**

قال تعالى : ﴿ **ولاتطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا** ﴾ فإذا أراد العبد أن يقتدي برجل فلينظر هل هو من أهل الذكر أو من الغافلين ؟ وهل الحاكم عليه هو الهوى أو الوحي ؟ فإن كان الحاكم عليه هو الهوى وهو من أهل الغفلة كان أمره فرطا . ومعنى الفرط قد فسر بالتضييع ، أي أمره الذي يجب أن يلزمه ويقوم به ، وبه رشده وفلاحه ضائع قد فرط فيه .

وفسر بالإسراف أي قد أفرط ، وفسر بالإهلاك ، وفسر بالخلاف للحق وكلها أقوال متقاربة .

والمقصود : أن الله سبحانه وتعالى نهى عن طاعة من جمع هذه الصفات .

فينبغي للرجل أن ينظر إلى شيخه وقدوته ومتبوعه ، فإن وجده كذلك فليبعد منه ، وإن وجده ممن غلب عليه ذكر الله تعالى واتباع السنة وأمره غير مفروط عليه بل هو حازم في أمره فليتمسك بغرزه .

ولافرق بين الحي والميت إلا بالذكر ، فمثل الذي يذكر ربه والذي لايذكر ربه كمثل الحي والميت ....

..... وقال تعالى : ﴿ **قل يا عبادِ الذين آمنوا اتقوا ربكم ، للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة وأرض الله واسعة إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب** ﴾ ، فهذه أربعة مواضع ذكر تعالى فيها : أنه يجزي المحسن بإحسانه جزائين : جزاء في الدنيا وجزاء في الآخرة ، فالإحسان له جزاء

---

(١) طبعة دار البيان دمشق .

معجل ولابد ، والإساءة لها جزاء معجل ولابد .

ولو لم يكن إلا ما يجازي به المحسن من انشراح صدره في انفساح قلبه وسروره ولذاته بمعاملة ربه عز وجل وطاعته وذكره ونعيم روحه بمحبته ، وذكره وفرحه بربه سبحانه وتعالى أعظم مما يفرح القريب من السلطان الكريم عليه بسلطانه . وما يجازي به المسيء من ضيق الصدر وقسوة القلب وتشتته وظلمته وحزازاته وغمه وهمه وحزنه وخوفه .

وهذا أمر لايكاد من له أدنى حس وحياة يرتاب فيه ، بل الغموم والهموم والأحزان والضيق عقوبات عاجلة ونار دنيوية وجهنم حاضرة .

والإقبال على الله تعالى والإنابة إليه والرضىٰ به وعنه وامتلاء القلب من محبته واللهج بذكره والفرح والسرور بمعرفته : ثواب عاجل وجنة وعيش لانسبة لعيش الملوك إليه البتة .

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول : إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لايدخل جنة الآخرة .

وقال لي مرة : مايصنع أعدائي بي ؟ أنا جنتي وبستاني في صدري ، إن رحت فهي معي لاتفارقني ، إن حبسي خلوة وقتلي شهادة وإخراجي من بلدي سياحة .

وكان يقول في محبسه في القلعة : لو بذلت ملء هذه القلعة ذهبا ماعدل عندي شكر هذه النعمة ، أو قال : ماجزيتهم على ماتسبَّبوا لي فيه من الخير ونحو هذا .

وكان يقول في سجوده وهو محبوس : « اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك » ماشاء الله .

وقال لي مرة : المحبوس من حُبس قلبه عن ربه تعالى ، والمأسور من أسره هواه . ولما دخل إلى القلعة وصار داخل سورها نظر إليه وقال : ﴿ **فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب** ﴾ وعلم الله مارأيت أحداً أطيب عيشاً منه قط ، مع ماكان فيه من ضيق العيش وخلاف الرفاهية والنعيم بل ضدها .

ومع ماكان فيه من الحبس والتهديد والإرهاق ، وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشاً وأشرحهم صدرا وأقواهم قلباً وأسرِّهم نفسا تلوح نضرة النعيم على وجهه .

وكنا إذا اشتد بنا الخوف وساءت منا الظنون وضاقت بنا الأرض أتيناه فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه فيذهب ذلك كله ، وينقلب انشراحا وقوة ويقينا وطمانينة .

فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه ، وفتح لهم أبوابها في دار العمل فأتاهم من روحها ونسيمها وطيبها مااستفرغ قواهم لطلبها والمسابقة إليها .

وكان بعض العارفين يقول : لو علم الملوك وأبناء الملوك مانحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف .

وقال آخر : مساكين أهل الدنيا خرجوا منها وماذاقوا أطيب مافيها ، قيل : وماأطيب ما فيها ؟ قال : محبة الله تعالى ومعرفته وذكره ، أو نحو هذا .

وقال آخر : إنه لتمر بالقلب أوقات يرقص فيها طربا .

وقال آخر : إنه لتمر بي أوقات أقول : إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب .

فمحبة الله تعالى ومعرفته ودوام ذكره والسكون إليه والطمأنينة إليه وإفراده بالحب والخوف والرجاء والتوكل والمعاملة بحيث يكون هو وحده المستولي على هموم العبد وعزماته وإراداته : هو جنة الدنيا والنعيم الذي لا يشبهه نعيم وهو قرة عين المحبين وحياة العارفين .

وإنما تقر عيون الناس به على حسب قرة أعينهم بالله عز وجل ، فمن قرت عينه بالله قرت به كل عين ، ومن لم تقر عينه بالله تقطعت نفسه على الدنيا حسرات .

* * *

الحافظ الذهبي



الإمام الحافظ شمس الدين محمد بن
أحمد بن عثمان الذهبي الشافعي

ذكر الإمام الحافظ ابن رجب الحنبلي في ذيله على طبقات الحنابلة الجزء الثاني صفحة (٣٠١) في ترجمة بعض الفقهاء فقال : ـ

(عبد الله بن أبي بكر بن أبي البدر محمد الحربي البغدادي الفقيه الفقير الزاهد القدوة بقية شيوخ العراق ـ ويعرف بكتيلة ......

وكان قدوة زاهدا عابدا ذا أحوال وكرامات ، وكان أرباب الدولة وغيرهم يعظمونه ويحترمونه وله أتباع وأصحاب ، وصحب الشيخ أحمد المهندز وغيره من الصالحين وحكى عنه أبو عبد الله بن الدباهي الزاهد .

قال الذهبي : حدثنا ابن الدباهي عن الشيخ أنه ـ مع جلالته ـ كان في بعض الأوقات يترنم ويغني لنفسه ، وأنه كان فيه كيس وظرف وبشاشة وقال : سمعته يقول : كنت على سطح ببغداد يوم عرفة وأنا مستلق على ظهري ، قال : فما شعرت إلا وأنا واقف بعرفة مع الركب سويعة .

ثم لم أشعر إلا وأنا على حالتي الأولى مستلق ، قال : فلما قدم الركب جاءني إنسان صارخاً فقال : ياسيدي أنا قد حلفت بالطلاق أني رأيتك بعرفة العام ، وقال لي واحد وجماعة : أنت واهم ، الشيخ ماحج في هذا العام ، قال : فقلت له : امض لم يقع عليك طلاق) .

وسنذكر الآن قطعا مختلفة من كتاب الحافظ الذهبي الكبير « تذكرة الحفاظ » حيث يذكر فيها أحوال مشايخ الصوفية من الحفاظ والمحدثين ويأتي بذيله ذكر كثير من أمور التصوف أيضا وقد اكتفينا بذلك فقط دون الرجوع إلى كتب الحافظ الذهبي الأخرى رَوْمًا للاختصار .

١ ـ قال الذهبي في « تذكرة الحفاظ » الجزء الثاني صفحة (٧٦١) :

« **الحيري** » الحافظ الزاهد القدوة المجاب الدعوة أبو جعفر أحمد بن حمدان ابن علي بن سنان النيسابوري ...... حكى عنه ابنه أبو عمرو أنه رَحل على كبر السن إلى الموصل إلى أبي يعلى من أجل حديث محمد بن عباد عن ابن عيينة ، ورحل إلى جرجان إلى عمران بن موسى بن مجاشع لحديث تحويل القبلة ، وكان أبي يُحيي الليل .

وكان أولاده زاهدين وكان ابن بنته الشيخ أبو بشر الحلواني أوحد وقته وشيخ الحرم بقي إلى سنة ست وثمانين وثلاثمائة ، توفي أبو جعفر قبل ابن خزيمة بأيام سنة إحدى عشرة وثلاثمائة .

قال السلمي : صحب أبو جعفر أبا حفص النيسابوري والشاه بن شجاع وكان الجنيد [١] يكاتبه ، وكان أبو عثمان يقول : من أحب أن ينظر إلى سبيل الخائفين فلينظر إلى أبي جعفر ، رحمة الله عليهم .

٢ ـ قال في تذكرة الحفاظ الجزء الثالث صفحة (٨٥٢) :

« **ابن الأعرابي** » الإمام الحافظ الزاهد شيخ الحرم أبو سعيد أحمد بن محمد ابن زياد بن بشر بن درهم البصري الصوفي صاحب التصانيف ...... وكان ثقة ثبتاً عارفاً عابداً ربانياً كبير القدر بعيد الصيت .

قال السلمي : سمعت محمد بن الحسن الخشاب سمعت ابن الأعرابي يقول : المعرفة كلها الاعتراف بالجهل ، والتصوف كله ترك الفضول ، والزهد كله أخذ ما لابد منه ، والمعاملة كلها استعمال الأولى فالأولى ، والرضا كله ترك الاعتراض ، والعافية كلها سقوط التكلف بلا تكلف .

---

(١) هؤلاء الثلاثة من أئمة التصوف وسادات الصوفية رحمهم الله .

ومن تصانيفه : كتاب طبقات النساك ، وكان قد صحب الجنيد وأبا أحمد القلانسي وصنف تاريخاً للبصرة كبيرا ، ومن كلامه في ترجمة الثوري : أنه مات وهم يتكلمون عنده في شيء سكوتهم عنه أولى لأنه شيء يتكهنون فيه ويتعشقون بظنونهم ، فإذا كان أولئك كذلك فكيف بمن حدث بعدهم .

وقال أيضاً : وإنما كانوا يقولون « جمع » وصورة الجمع عند كل أحد بخلافها عند الآخر ، وكذلك صورة الفناء ، فكانوا يتفقون في الأسماء ويختلفون في معناها ، لأن ماتحت الاسم غير محصور لأنها من المعارف ، وكذلك علم المعرفة غير محصور لانهاية له ولا لوجوده ولا لذوقه إلى أن قال : فإذا سمعت الرجل يسأل عن الجمع والفناء أو يجيب فيهما فاعلم أنه فارغ ليس من أهل ذلك ، إذ أهلهما لا يسألون عنه لعلمهم أنه لا يدرك بالوصف .

مولد ابن الأعرابي سنة ست وأربعين ومائتين ومات في ذي القعدة سنة أربعين وثلاثمائة ، رحمه الله تعالى .

٣ - وقال في تذكرة الحفاظ الجزء الثالث صفحة (٩٠١) :

« **محمد بن داود بن سليمان** » الحافظ الزاهد الحجة شيخ الصوفية أبو بكر النيسابوري ، سمع محمد بن عمرو قشمرد ومحمد بن إبراهيم البوشنجي وابن الضريس والنسائي وأمثالهم بخراسان والحجاز والشام ومصر والموصل ، وصنف الأبواب والشيوخ وأملى زمانا ، وروى عنه الحاكم وابن مندة وابن جميع وأبو زكريا المزكي وخلق ، وكان يُعد من الأولياء ، قال الدارقطني : ثقة فاضل .

وعنه قال : أكلت في أيام القحط رغيفاً واحداً في أربعين يوما بالبصرة ، كنت إذا جعت قرأت يسٓ بنية الشبع .

وقال الخليلي : معروف بالحفظ بيّن حفظه وعلمه في فوائد أملاها ، قلت : توفى سنة اثنتين وأربعين وثلاثمائة رحمه الله تعالى .

٤ ـ وقال في تذكرة الحفاظ الجزء الثالث صفحة (٩٦١) :

« **غندر** » وأما غندر الثالث [١] فهو صوفي محدث جوال ، لقي الجنيد وطبقته وكتب الحديث وسكن مصر وهو الشيخ أبو الطيب محمد بن جعفر بن دران البغدادي غندر ، سمع أبا خليفة الجمحي وإبراهيم بن عبد الله المخزومي وأبا يعلى الموصلي ، حمل عنه الدارقطني وأبو حفص الكتاني وطائفة سواهما ، توفي سنة سبع وخمسين وثلاثمائة .

٥ ـ وقال في تذكرة الحفاظ الجزء الأول صفحة (٢٤٥) :

« **الفضيل بن عياض** » [٢] الإمام القدوة شيخ الإسلام أبوعلي التميمي اليربوعي المروزي شيخ الحرم ...... سكن مكة وكان إماماً ربانياً صمدانياً قانتا ثقة كبير الشأن ......

قال ابن المبارك : مابقي على ظهر الأرض أفضل من الفضيل ....

وقال ابن سعد : ولد بخراسان وسمع بالكوفة ثم تعبد ونزل مكة ، وكان ثقة نبيلا فاضلا عابداً كثير الحديث ....

وقال هارون الرشيد : مارأيت في العلماء أهيب من مالك ولا أورع من الفضيل .

وقال شريك : لم يزل لكل قوم حجة في زمانهم وإن فضيل بن عياض حجة لأهل زمانه .

وقال إبراهيم بن الأشعث : رأيت ابن عيينة يقبل يد الفضيل بن عياض مرتين .

---

(١) وقد ذكر غندر الأول والثاني قبل هذا .

(٢) الإمام الجليل من سادات المشايخ الصوفية الكبار من مشايخ الإمام البخاري وغيره .

٦ ـ وقال في « تذكرة الحفاظ » الجزء الثاني صفحة (٦٤٠) :

« **ابن أبي عاصم** » الحافظ الكبير الإمام أبو بكر أحمد بن عمرو النبيل أبي عاصم الشيباني الزاهد قاضي أصبهان ، سمع جده لأمه أبا سلمة التبوذكي وأبا الوليد هدية بن خالد وهشام بن عمار والأزرق بن علي وخلقاً كثيراً .

وله الرحلة الواسعة والتصانيف النافعة .... وقيل : ذهبت كتبه بالبصرة في فتنة الزنج فأعاد من حفظه خمسين ألف حديث .

وقال ابن الأعرابي في طبقات النساك : فأما ابن أبي عاصم فسمعت من يذكر أنه كان يحفظ لشقيق [1] البلخي ألف مسألة وكان من حفاظ الحديث والفقه ، وكان مذهبه القول بالظاهر وترك القياس .

٧ ـ وقال في « تذكرة الحفاظ » الجزء الثالث صفحة (١٠١٦) :

«**الطوسي** » الحافظ أبو الفضل نصر بن محمد بن أحمد بن يعقوب العطار وهو ابن أبي نصر الطوسي ..... قال الحاكم : هو أحد أركان الحديث بخراسان مع ما يرجع إليه من الدين والزهد والسخاء والتعصب لأهل السنة ، أول رحلته كانت إلى مرو إلى الليث بن محمد ، وما خلف بالطابران يوم مات مثله ، وإمام في علوم الصوفية وأخبارهم ، ولقي شيوخهم ، فإنه توفي يوم توفي ولم يخلف بخراسان مثله في التقدم واللقي .

قلت : كان قد صحب الشبلي [2] ، ومات في المحرم سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة .

---

(١) شيخ المشايخ ومن سادات الصوفية الكبار رحمهم الله تعالى .

(٢) الإمام الصوفي الكبير رحمه الله .

٨ ـ وقال في « تذكرة الحفاظ » الجزء الثالث صفحة (١٠٧٠) :

« **الماليني** » الحافظ العالم الزاهد أبو سعد أحمد بن محمد بن أحمد بن عبد الله بن حفص الأنصاري الهروي الماليني الصوفي ، ويعرف أيضًا بطاؤس الفقراء ..... وجمع وحصل من المسانيد الكبار شيئًا كثيرًا ، وكان ثقة متقنا صاحب حديث ومن كبار الصوفية .

وله كتاب أربعين الصوفية ، حدث عنه الحافظ عبد الغني وتمام الرازي وأبو حازم العبدوي وأبو بكر البيهقي وأبو بكر الخطيب و ...... وآخرون .

وقال حمزة السهمي : دخل الماليني جرجان في سنة أربع وستين ورحل رحلات كثيرة إلى أصبهان وماوراء النهر ومصر والحجاز ، ثم قال : وتوفي سنة تسع وأربعمائة فوهم ، بل توفي سنة اثنتي عشرة ، وقد ذكره ابن الصلاح في طبقات الشافعية .

٩ ـ وقال في « تذكرة الحفاظ » الجزء الثالث صفحة (١٠٨٨) :

« **عطية بن سعيد** » الحافظ شيخ الإسلام أبو محمد الأندلسي المغربي القفصي الصوفي ....

وقال الخطيب : قدم بغداد وحدث عن زاهر السرخسي وعلي بن الحسين الأذني حدثني عنه أبو الفضل ابن المهدي وقال : كان زاهدا لايضع جنبه إنما ينام محتبيا .

قلت : وسمع بما وراء النهر الصحيح من إسماعيل بن حاجب صاحب الفربري ورواه بمكة وسمع بالأندلس من الإمام عبد الله بن محمد الباجي ، وسمع بالقيروان من عبد الله بن خيران ونحوهم . فأكثر وبرع في هذا الشأن .

قال الحميدي : أقام بنيسابور مدة ، وكان صوفياً على قدم التوكل والإيثار عاد إليه أصحاب السلمي .

وقال عبد العزيز بن بندار الشيرازي : صحبته مدة ببغداد وكان من الإيثار والكرم على أمر عظيم ، يقتصر على فوطة ومرقعة ، وكان قد جمع كتبا حملها على نجاتي كثيرة فرافقته وخرجنا إلى الياسرية ، وليس معه إلا وطاؤه وركوته ومرقعته فعجبت من حاله ، فلما بلغنا المنزلة ذهبنا نتخلل الرفاق ، فإذا شيخ خراساني حوله حشم فقال لنا : انزلوا بمجلسنا فأحضر سفرة فأكلنا وقمنا ، فلم يزل على هذه الحال يتفق لنا كل يوم من يطعمنا ويسقينا إلى مكة وما حملنا شيئا ، وحدث بصحيح البخاري بمكة ، وكان يتكلم على الرجال وأحوالهم فيتعجب من حضر .

وتوفي بمكة سنة ثمان وأربعمائة أو نحوها .

قال الحميدي : له كتاب في تجويز السماع فكان كثير من المغاربة يتحامونه لذلك.

وصنف طرق حديث المغفر في أجزاء عدة ، نا أبو غالب بن بشران نا عطية نا القاسم بن علقمة نا بهز فذكر حديثاً ، قلت : رزق القبول الوافر بنيسابور وسكنها مدة .

١٠ ـ قال في « تذكرة الحفاظ » الجزء الثالث صفحة (١٠٩٢) :

« **أبو نعيم** » الحافظ الكبير محدث العصر أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران المهراني الأصبهاني الصوفي الأحول سبط الزاهد محمد ابن يوسف البناء ولد سنة ست وثلاثين وثلاثمائة وله ست سنين ...

تفرد في الدنيا بإجازتهم كما تفرد بالسماع من خلق ، ورحلت الحفاظ إلى بابه لعلمه وحفظه وعلو أسانيده ....

قال الخطيب : لم أر أحدا أطلق عليه اسم الحفظ غير أبي نعيم وأبي حازم العبدوي .

قال علي بن فضل الحافظ : قد جمع شيخنا السلفي أخبار أبي نعيم فسمّى نحوا من ثمانين نفس حدثوه عنه .

وقال : لم يصنف مثل كتابه (حلية الأولياء) سمعناه على أبي المظفر القاشاني عنه سوى فوت يسير .

قال أحمد بن محمد بن مردويه : كان أبو نعيم في وقته مرحولا إليه لم يكن في أفق من الآفاق أحد أحفظ منه ولا أسند منه ، كان حفاظ الدنيا قد اجتمعوا عنده وكل يوم نوبة واحد منهم يقرأ مايريده إلى قريب الظهر ، فإذا قام إلى داره ربما كان يقرأ عليه في الطريق جزء وكان لايضجر ، لم يكن له غذاء سوى التسميع والتصنيف .

وقال حمزة بن العباس العلوي : كان أصحاب الحديث يقولون : بقي الحافظ أبو نعيم أربع عشرة سنة بلا نظير ، لايوجد شرقاً ولا غرباً أعلى إسنادا منه ولا أحفظ منه ، وكانوا يقولون : لما صنف كتاب الحلية حمل الكتاب في حياته إلى نيسابور فاشتروه بأربعمائة دينار .

وقد روى الإمام أبو عبد الرحمن السلمي مع تقدمه في « طبقات الصوفية » له : أخبرنا عبد الواحد بن أحمد الهاشمي أنا أبو نعيم أحمد بن عبد الله أنا محمد ابن علي بن حبيش ببغداد فذكر حديثاً ....

ولأبي نعيم تصانيف مشهورة ككتاب معرفة الصحابة ، وكتاب دلائل

النبـوة في مجلـدين ، وكتـاب المستخرج على البخـاري والمستخرج على مسلم وكتاب تاريخ أصبهان وصفة الجنة وكتـاب الطب وكتـاب فضـائل الصحـابـة وكتاب المعتقد وأشياء صغار سمعنا بعضها يعمل فيهـا الواهيـات ويكاسر عنهـا كدأب غيره من المحدثين والله الموعد .

ولأبي عبد الله بن مندة حط على أبي نعيم صعب من قبل المذهب كما للآخر حط عليه ، لاينبغي أن يلتفت إلى ذلك للواقع الذي بينهما : مات أبو نعيم في العشرين من المحرم سنة ثلاثين وأربعمائة عن أربع وتسعين سنة ، فهو والبرقـاني وأبو ذر والصوري أهل الطبقة التاسعة من أربعين الطبقات لابن المفضل .

١١ ـ قـال في « تـذكرة الحفـاظ » الجـزء الثـالث صفحـة (١١٦٢) :

« **المؤذن** » أبو صالح بن عبد الملك بن علي بن أحمد النيسـابوري الحـافـظ محـدث وقتـه بخراسـان ، سمـع أبـا نعيم عبـد الملك بن الحسن الإسفرائيني وأبـا الحسن العلوي وأبا يعلى المهلبي وأبا طاهر بن محمش والحاكم أبـا عبـد الله وعبـد الله بن يـوسف السهمي بجرجـان ، وأبـا القـاسم بن بشران ببغـداد والمسـدد الأملوكي بدمشق ، وأبا نعيم الحافظ بأصبهان ، والحسن بن الأشعث بمنبـج وأبـا ذر الهروي بمكة وصحب الأستاذ أبـا علي الـدقـاق وأحمـد بن نصر الطـالقـاني ، وعمل مسودة لتاريخ مرو .....

قال عبـد الغـافر بن إسماعيل في تـاريخـه : أبو صـالح المؤذن الأمين المتقن المحدث الصوفي نسيج وحده في طريقته وجمعه وإفادته ، مارأينا مثله في حفظ القرآن وجمع الأحاديث ، سمع الكثير وجمع الأبواب والشيوخ وأذن حسبة سنين عدة ، وكان يحثني على معرفة الحديث ولم أتمكن من جمع هـذا التـاريخ إلا من مسوداته ومجموعاته فهي المرجوع إليها ......

وقال زاهد الشحامي : خرج أبو صالح ألف حديث عن ألف شيخ له .

وقال الخطيب : كتب عني أبو صالح وكتبت عنه وهو ثقة ....

قال أبو سعد السمعاني : هو صوفي حافظ متقن نسيج وحده في الجمع والإفادة ، أذّن مدة احتسابا ووعظ في الليل وشيخ على المدرسة البيهقية وكانت تحت يده أوقاف الكتب والأجزاء الحديثية فيتعهد حفظها ويأخذ صدقات التجار والأكابر ويوصلها إلى المستحقين .

قال أبو بكر محمدبن يحي المزكي : مايقدر أحد أن يكذب في الحديث هنا وأبو صالح حي .

وقال أبو المظفر منصور ابن السمعاني : إذا دخلتم على أبي صالح فادخلوا بالحرمة فإنه نجم الزمان ونسيج وقته .

قال أبو سعد السمعاني : رأى أبا صالح بعضُ الصالحين ليلة موته وكان النبي ﷺ قد أخذ بيده وقال : جزاك الله عني خيراً ، فنعما قمت بحقي ونعما نشرت من سنتي .

قال عبد الغافر : توفي في سابع رمضان سنة سبعين وأربعمائه .

١٢ ـ وقال في « تذكرة الحفاظ » الجزء الثالث صفحة (١١٧٠) :

« **الكتاني** » الإمام المحدث مفيد دمشق ومحدثها أبو محمد عبد العزيز بن أحمد بن محمد بن علي التميي الدمشقي الصوفي ، سمع الكثير وجمع فأوعى ونسخ مالا يوصف كثرة .....

قال ابن ماكولا : كتب عني وكتبت عنه وهو مكثر متقن .

وقال الخطيب في فوائد النسب : ثقة أمين ، ووصفه ابن الأكفاني : بالصدق والاستقامة وسلامة المذهب ودوام التلاوة .

وحدثني أن شيخه أبا القاسم عبيد الله الأزهري سمع منه ببغداد ، ودخلت عليه في مرض موته فقال : أنا أشهدكم أني قد أجزت لكل من هو مولود الآن في الإسلام ، قلت : قد حدث عنه بهذه الإجازة طائفة : منهم محفوظ بن صعري التغلبي .

١٣ ـ وقال في « تذكرة الحفاظ » الجزء الثالث صفحة (١١٨٣) :

« **شيخ الإسلام** » الحافظ الإمام الزاهد أبو إسماعيل عبد الله بن محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن علي بن جعفر بن منصور بن مت الأنصاري الهروي من ذرية أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه .....

قال أبو النضر الغالي : كان أبو إسماعيل بكر الزمان وواسطة عقد المعاني وصورة الإقبال في فنون الفضائل وأنواع المحاسن منها : نصرة الدين والسنة من غير مداهنة ولا مراقبة لسلطان ولا وزير ، وقد قاسى بذلك قصد الحساد في كل وقت وسعوا في روحه مرارا وعمدوا إلىٰ إهلاكه أطوارا فوقاه الله شرهم وجعل قصدهم أقوى سبب لارتفاع شأنه .

قلت : تخرج به خلق كثير وفسر القرآن مدة وفضائله كثيرة ، ورأيت أهل الاتحاد يعظمون كلامه في منازل السائرين ويدَّعون أنه موافقهم ذائق لوجدهم ورامز لتصوفهم الفلس ، وأنى يكون ذلك وهو من دعاة السنة وعصبة آثار السلف ، ولاريب أن في منازل السائرين أشياء من محط المحو والفناء وإنما مراده بذلك الفناء الغيبة عن شهود السوى ولم يرد عدم السوى في الخارج .

وفي الجملة هذا الكتاب لون آخر غير الأنموذج الذي أصفق عليه صوفية التابعين ودرج عليه نساك المحدثين والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .....

قال السلفي : وسألت المؤتمن عن أبي إسماعيل الأنصاري ، فقال : كان آية في لسان التذكير والتصوف من سلاطين العلماء . سمع ببغداد من أبي محمد الخلال وغيره ، يروي في مجالسه أحاديث بالأسانيد وينهى عن تعليقها عنه . وكان بارعا في اللغة حافظا للحديث ......

وقال عبد الغافر بن إسماعيل : كان على حظ تام من معرفة العربية والحديث والتواريخ والأنساب ، إماما كاملا في التفسير حسن السيرة في التصوف ، غير مشتغل بكسب مكتفياً بما يباسط به المريدين والأتباع من أهل مجلسه في العام مرة أو مرتين على رأس الملأ فيحصل على ألوف من الدنانير وأعداد من الثياب والحلي فيأخذها ويفرقها على اللحام والخباز وينفق منها ولا يأخذ من السلاطين ولا من أركان الدولة شيئاً ، وقلما يرى عنهم ولا يدخل عليهم ولا يبالي بهم فبقي عزيزا مقبولا قبولا أتم من الملك ، مطاع الأمر نحواً من ستين سنة من غير مزاحمة وكان إذا حضر المجلس لبس الثياب الفاخرة وركب الدواب الثمينة ، ويقول : إنما أفعل هذا إعزازا للدين ورغماً لأعدائه حتى ينظروا إلى عزي وتجملي فيرغبوا في الإسلام ، ثم إذا انصرف إلى بيته عاد إلى المرقعة والقعود مع الصوفية في الخانقاه يأكل معهم ولا يتميز بحال ، وعنه أخذ أهل هراة التبكير بالفجر وتسمية أولادهم في الأغلب بعبد المضاف إلى أسماء الله تعالى .

قال أبو سعد السمعاني : كان مظهرا للسنة داعيا إليها محرضا عليها وكان مكتفيا بما يباسط به المريدين ، ما كان يأخذ من الظلمة شيئاً ، وما كان

يتعدى إطلاق ماورد في الظواهر من الكتاب والسنة معتقداً ماصح وغير مصرح بما يقتضيه تشبيه ، وقال : من لم ير مجلسي وتذكيري فطعن فيَّ فهو مني في حل .

وقال أبو النضر الفامي : توفي أبو إسماعيل في ذي الحجة سنة إحدى وثمانين وأربعمائة وقد جاوز أربعا وثمانين سنة .

١٤ ـ وقال في « تذكرة الحفاظ » الجزء الرابع صفحة (١٤٣٩) :

« **اليونيني** »الشيخ الفقية الحافظ الإمام القدوة تقي الدين أبو عبد الله محمد ابن أبي الحسن أحمد بن عبد الله بن عيسى بن أحمد بن علي البعلبكي الحنبلي ، مولده سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة بيونين ، ولبس الخرقة من الشيخ عبد الله البطائحي صاحب الشيخ عبد القادر[1] ، وصحب الشيخ عبد الله اليونيني وتفقه بالشيخ الموفق وبرع في الخط المنسوب وسمع من أبي طاهر الخشوعي وأبي التمام القلانسي وحنبل الرصافي والحافظ عبد الغني وأبي اليمن الكندي وغيرهم ......

وكان والده مرخما ببعلبك ثم بدمشق فمات ونشأ الفقيه يتيماً بالكشك مع والدته فأسلمته نشابيا ثم حفظ القرآن وجود الكتابة ثم حفظ الجمع بين الصحيحين للحميدي بكماله ، ذكره الحافظ عمر ابن الحاجب فأطنب في وصفه فأسهب وأغرب وأعرب فقال : اشتغل بالفقه والحديث إلى أن صار إماما حافظا .. إلى أن قال : لم ير في زمانه مثل نفسه في كماله وبراعته وجمع بين علمي الشريعة والحقيقة وكان حسن الخُلُق والخَلق نفاعا للخلق مطرحا للتكلف ، من جملة محفوظة « الجمع بين الصحيحين للحميدي » وحدثني أنه حفظ

---

(١) هو الإمام الرباني والقطب الصمداني الشيخ عبد القادر الجيلاني والذي تنسب إليه جميع سلاسل الطرق القادرية .

صحيح مسلم جميعه وكرر عليه في أربعة أشهر وكان يكرر على أكثر مسند أحمد من حفظه وأنه كان يحفظ في الجلسة الواحدة مايزيد على سبعين حديثاً .

وقال ولده قطب الدين : حفظ الجمع بين الصحيحين وحفظ صحيح مسلم في أربعة أشهر وحفظ سورة الأنعام في يوم واحد وحفظ ثلاث مقامات من الحريرية في بعض يوم ، وكان الأشرف يحترمه ويعظمه وكذلك أخوه الصالح وقدم في أواخر عمره دمشق فخرج الملك الناصر يوسف إلى زيارته بزاوية الفرنثي وتأدب معه .

قلت [١] : كان الشيخ الفقيه كبير القدر يذكر بالكرامات والأحوال ، وكان أهل بعلبك يسمعون بقراءته على المشايخ الواردين عليهم كالقزويني والبهاء المقدسي وابن رواحة الحموي ، وقد سقت أخباره وأوراده في تاريخ الإسلام .

توفي في تاسع عشر رمضان سنة ثمان وخمسين وستمائة .

١٥ ـ وقال في « تذكرة الحفاظ » الجزء الرابع صفحة (١٣٥٦) : ـ

« الشيرازي » الإمام الحافظ الرحال أبو يعقوب يوسف بن أحمد بن إبراهيم الصوفي مفيد بغداد وشيخ الصوفية بالرباط الأرجواني وصاحب الأربعين البلدية ...... أجاد في تصنيف الأربعين وأبان عن حفظ وله رحلة واسعة وكان صدوقاً موثقاً كتب عنه أبو المواهب الحافظ ووثقه ابن الدبيثي وكان ظريفاً حلو المحاضرة ، توصل إلى الدولة وذهب رسولا عن الخليفة إلى الأطراف وارتفعت رتبته وكثر ماله ، روى شيئاً يسيراً تقع لنا روايته بالإجازة .

---

(١) القائل هو الإمام الحافظ الذهبي رحمه الله .

تـوفي في شهر رمضـان سنـة خمس وثمـانين وخمسمائـة كهلاً في مبـدأ من الشيخوخة .

١٦ ـ وقال الحافـظ الـذهبي في نهـايـة الجزء الرابع وهو الأخير من تـذكرة الحفاظ مانصه :

وإلى هنا انتهى بنا كتاب التذكرة ، ولعل فيمن لم نوردهم غفلـة أو نسيـانـا من هو في رتبة المذكورين علماً وحفظـاً وقـد كنت ألفت معجماً لي يختص بمن طلب هـذا الشـأن من شيوخي ورفـاقي فـاستـوعبت من لـه أدنى عمـل وبينت أحوالهم .

(ثم ذكر الذهبي شيوخه منهم فقط) .

(نـذكر هنـا ثلاثـة من شيوخ صـاحب التـذكرة فقـط لعلاقتهم بمـوضـوع الكتاب) قال رحمه الله مانصه : ـ

(٢) ولزمت (١) الشيـخ الإمـام المحدث مفيـد الجماعـة أبـا الحسن علي بن مسعود بن نفيس الموصلي ، وسمعت منه جملة ، وكان ديناً خيراً متصوفا متعففاً قرأ مـالا يوصف كثرة وحصل أصولا كثيرة كان يجـوع ويبتـاعهـا ، سمـع بمصر والشـام وعـاش سبعين سنـة ، مـات سنـة أربع وسبعمائـة وظهر لـه نصف جزء سمعه من أبي القاسم بن رواحة .

(٣) وسمعت من مفيد الطلبة المحـدث الإمـام المتقن اللغوي صفي الـدين محمود بن أبي بكر الأرموي ثم القرافي الصـوفي ، قرأ الكثير على المشـايـخ ، وكان فصيحاً فاضلاً كتب شيئاً كثيراً وعُني بهذا الشأن وبرع في علم اللسان وصنف ، روى لنا عن النجيب الحراني والكمال بن عبد ، ومات في سنـة ثلاث وعشرين

(١) هذا هو الشيخ الوحيد من مشايخ الحافظ الذهبي الذي ذكر عنه أنـه « لزمـه »أمـا بقيـة المشـايخ فقد ذكر عنهم أنه سمع منهم فقط . فلاحظ .

وسبعمائة عن بضع وسبعين سنة رحمه الله تعالى ا هـ .

ثم ذكر في هذا الفهرس تحت رقم (٢٤) :-

(٢٤) وسمعت من الإمام المحدث الأوحد الأكمل فخر الإسلام صدر الدين إبراهيم بن محمد بن المؤيد بن حمويه الخراساني الجويني شيخ الصوفية ، قدم علينا طالب حديث وروى لنا عن رجلين من أصحاب المؤيد الطوسي ، وكان شديد الاعتناء بالرواية وتحصيل الأجزاء حسن القراءة مليح الشكل مهيبا دينا صالحا وعلى يده أسلم غازان الملك .

مات سنة اثنتين وعشرين وسبعمائة وله ثمان وسبعون سنة رحمه الله تعالى .اهـ

واكتفينا هنا بنقل ماذكره الإمام الحافظ الذهبي في مؤلفه النفيس « تذكرة الحفاظ » فقط حتى يُعلم أن كبار حفاظ الحديث الشريف كان منهم كثير من مشايخ التصوف أيضاً ، ثم وعلى كل حال هؤلاء لهم مشايخ وتلاميذ فإن الطعن فيهم يتعدى به الطعن في مشايخهم وتلاميذهم من حفاظ الحديث وأساطين السنة النبوية على صاحبها الصلاة والسلام .

وقد لاحظت أن أمثال الحافظ الذهبي أيضاً له عدة مشايخ من الصوفية بل إنه ماذكر في أحد منهم أنه « لزمه » إلا الذي وصفه منهم أنه كان « ديناً خيراً متصوفاً متعففاً » .

وهكذا يلاحظ كيف يذكر السادة الصوفية « وهذه بعض النماذج فقط قدمناها هنا وجل كتبه مليئة بمثل هذا الذي ذكرناه » ، فإن قلمه تراه يسيل بذكر مناقبهم الجليلة وكراماتهم العجيبة وإطراء الثناء والمدح عليهم .

وتلاحظ من عباراته وأسلوبه أن الرجل من أشد المحبين للقوم والمتوددين

إليهم مثله مثل جمهور علماء الإسلام في ذلك .

وهذا ماستلاحظ أيضاً في الإمام العماد ابن كثير رحمهم الله جميعاً ورضي عنهم ونفعنا والمسلمين بعلومهم ومعارفهم ونور قلوبنا جميعاً بأنوار الإيمان والمعرفة بفضله وكرمه إنه سبحانه وتعالى جواد كريم .

* * *



الحافظ بن كثير



الإمام الحافظ أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن كثير الدمشقي الشافعي

١ ـ ذكر في « البداية والنهاية » [١] الجزء الحادي عشر صفحة (١٨٠) فيمن توفي من الأعيان في سنة ثنتين وعشرين وثلاثمائة فقال :

(محمد بن أحمد بن القاسم أبو علي الروذبادي) . وقيل اسمه أحمد بن محمد ، ويقال الحسين بن الهمام ، والصحيح الأول ، أصله من بغداد وسكن مصر ، وكان من أبناء الرؤساء والوزراء والكتبة .

وصحب الجنيد [٢] وسمع الحديث وحفظ منه كثيراً وتفقه بإبراهيم الحربي وأخذ النحو عن ثعلب ، وكان كثير الصدقة والبر للفقراء ، وكان إذا أعطى الفقير شيئاً جعله في كفه تحت يد الفقير ثم يتناوله الفقير ، يريد أن لا تكون يد الفقير تحت يده .

قال أبو نعيم : سئل أبو علي الروذباري عمن يسمع الملاهي ويقول : إنه وصل إلى منزلة لا يؤثر فيه اختلاف الأحوال ؟ فقال : نعم وصل ولكن إلى سقر .

وقال : الإشارة : الإبانة لما تضمنه الوجد من المشار إليه لاغيره وفي الحقيقة أن الإشارة تصحبها العلل ، والعلل بعيدة من غير الحقائق ....

وقال : إن المشتاقين إلى الله يجدون حلاوة الشوق عند ورود المكاشف لهم عن روح الوصال إلى قربة أحلى من الشهد ......

وقال : في اكتساب الدنيا مذلة النفوس ، وفي اكتساب الآخرة عزها ، فيا

---

(١) طبْعة مكتبة الرياض الحديثة ـ الرياض ـ المملكة العربية السعودية .

(٢) هو شيخ الصوفية الأجل المعروف عند القوم وغيرهم بسيد الطائفة .

عجباً لمن يختار المذلة في طلب مايفنى على العز في طلب مايبقى . ومن شعره : ـ

لو مضى الكل مني لم يكن عجبا   وإنما العجب في البعض كيف بقي

أدرك بقية روح منك قد   تلفت قبل الفراق فهذا آخر الرفق

و « محمد بن إسماعيل » المعروف بخير النساج أبو الحسين الصوفي ، من كبار المشايخ ذوي الأحوال الصالحة والكرامات المشهورة أدرك سريا السقطي وغيره من مشايخ القوم ، وعاش مائة وعشرين سنة .

ولما حضرته الوفاة نظر إلى زاوية البيت فقال : قف رحمك الله ، فإنك عبد مأمور وأنا عبد مأمور ، وماأمرتَ به لايفوت وماأمرتُ به يفوت ، ثم قام وتوضأ وصلى وتمدد ومات ـ رحمه الله ـ .

وقد رآه بعضهم في المنام فقال له : مافعل الله بك ؟ فقال : استرحنا من دنياكم الوخيمة .

٢ ـ وذكر في البداية والنهاية الجزء الحادي عشر صفحة (٣٣٤) في حوادث سنة أربع وتسعين وثلاثمائة ، بعد ماذكر حكايات عجيبة عن قارئين قال :

ولما رجع هذان القارئان رتبهما ولي الأمر مع أبي بكر بن البهلول ، وكان مقرئا مجيداً أيضاً ، ليصلوا بالناس صلاة التراويح في رمضان ، فكثر الجمع وراءهم لحسن تلاوتهم ، وكانوا يطيلون الصلاة جداً ويتناوبون في الإمامة ، يقرأون في كل ركعة بقدر ثلاثين آية ، والناس لاينصرفون من التراويح إلا في الثلث الأول من الليل أو قريب النصف منه ، وقد قرأ ابن البهلول يوما في جامع المنصور قوله تعالى : ﴿ **ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر**

الله ومـا نزل من الحق ﴾ فنهض إليـه رجل صـوفي وهـو يتمايـل فقـال : كيف قلت ؟ فأعاد الآية ، فقال الصوفي : بلى والله ، وسقط ميتاً رحمه الله .

قال ابن الجوزي : وكذلك وقع لأبي الحسن بن الخشاب شيخ ابن الرفـاء ، وكان تلميذاً لأبي ابن الأدمي المتقـدم ذكره ، وكان جيـد القراءة حسن الصوت أيضاً ، قرأ ابن الخشاب هذا في جامع الرصافة في الإحياء هذه الآية ﴿ **ألم يـأن للـذين آمنوا** ﴾ فتواجـد رجل صـوفي وقـال : بلى والله قـد آن ، وجلس وبكى بكاءً طويلاً ثم سكت سكتة فإذا هو ميت رحمه الله .

٣ ـ وذكر في « البـدايـة والنهـايـة » الجزء الحـادي عشر صفحـة (٨٤) في سنة سبع وثمانين ومائتين قال :

ومن توفي فيها أبو بكر بن أبي عاصم صاحب السنة والمصنفات وهو « أحمد ابن عمرو بن أبي عاصم الضحاك ابن النبيل » ، له مصنفات في الحديث منها : كتاب السنة في أحاديث الصفات على طريق السلف ، وكان حـافظـاً قـد ولي قضاء أصبهان بعـد صـالـح بن أحمـد ، وقـد طـاف البلاد قبل ذلـك في طلب الحديث ، وصحب أبا تراب النخشبي وغيره من مشـايخ الصوفيـة ، وقـد اتفق له كرامة هائلة : كان هو واثنـان من كبـار الصـالحين في سفر فنزلوا على رمل أبيض ، فجعل أبو بكر هذا يقبله بيـده ويقول : اللهم ارزقنـا خبيصـا يكون غداء على لون هذا الرمل .

فلم يكن بأسرع من أن أقبل أعرابي وبيده قصعـة فيهـا خبيص بلون ذلـك الرمل وفي بياضه ، فأكلوا منه .

وكان يقول : لاأحب أن يحضر مجلسي مبتدع ولامدعٍ ولاطعـان ولا لعـان ولافاحش ولابذيء ولامنحرف عن الشافعي وأصحاب الحديث .

توفي في هذه السنة بأصبهان ، وقد رآه بعضهم بعد وفـاتـه وهو يصلي فلمـا

انصرف قال : مافعل بك ؟ فقال : يؤنسني ربي عز وجل .

٤ ـ وذكر في « البداية والنهاية » الجزء الحادي عشر صفحة (٩٧) في سنة تسعين ومائتين قال :

(وفيها توفي من الأعيان ..... و « محمد بن عبد الله أبو بكر الدقاق » أحد أئمة الصوفية وعبادهم روى عن الجنيد أنه قال : رأيت إبليس في المنام وكأنه عريان فقلت : ألا تستحي من الناس ؟ فقال : ـ وهو لا يظنهم ناساً ـ لو كانوا ناساً ماكنت ألعب بهم كما يلعب الصبيان بالكرة ، إنما الناس جماعة غير هؤلاء ، فقلت : أين هم ؟ فقال : في مسجد الشونيزي قد أضنوا قلبي وأتعبوا جسدي ، كلما هممت بهم أشاروا إلى الله عز وجل فأكاد أحترق ، قال : فلما انتبهت لبست ثيابي ورحت إلى المسجد الذي ذكر فإذا فيه ثلاثة جلوس ورؤوسهم في مرقعاتهم ، فرفع أحدهم رأسه إليَّ وقال : ياأبا القاسم لاتغتر بحديث الخبيث ، وأنت كلما قيل لك شيء تقبل ؟ فإذا هم أبو بكر الدقاق وأبو الحسين النوري وأبو حمزة محمد بن علي بن علوية بن عبد الله الجرجاني الفقيه الشافعي تلميذ المزني ، ذكره ابن الأثير .

٥ ـ وذكر في « البداية والنهاية » الجزء الحادي عشر صفحة (١١٣) في سنة ثمان وتسعين ومائتين ذكر :

أنه توفي فيها من الأعيان ..... و « الجنيد بن محمد بن الجنيد » أبو القاسم الخزاز ، ويقال له القواريري أصله من نهاوند ولد ببغداد ونشأ بها وسمع الحديث من الحسين بن عرفة وتفقه بأبي ثور إبراهيم بن خالد الكلبي ، وكان يفتي بحضرته وعمره عشرون سنة ، وقد ذكرناه في طبقات الشافعية ، واشتهر بصحبة الحارث المحاسبي وخاله سري السقطي ولازم التعبد ففتح الله عليه بسبب ذلك علوما كثيرة ، وتكلم على طريقه الصوفية .

وكان ورده في كل يـوم ثـلاثمـائـة ركعـة وثـلاثين ألف تسبيحـة ، ومكث أربعين سنة لا يأوي إلى فراشة ففتح عليه من العلم النافع والعمل الصالح بأمور لم تحصل لغيره في زمانه .

وكان يعرف سـائر فنـون العلم ، وإذا أخـذ فيهـا لم يكن لـه فيهـا وقفـة ولاكبوة ، حتى كان يقول في المسـألـة الواحـدة وجوهـا كثيرة لم تخطر للعلمـاء ببال وكذلك في التصوف وغيره .

ولما حضرته الوفاة جعل يصلي ويتلو القرآن فقيل لـه : لو رفقت بنفسـك في مثل هذا الحال ؟ فقال : لأحد أحوج إلى ذلك مني الآن ، وهذا أوان طي صحيفتي .

قال ابن خلكان : أخذ الفقه عن أبي ثور ، ويقال : كان يتفقه على مذهب سفيان الثوري ، وكان ابن سريج يصحبه ويلازمه وربما استفاد منه أشيـاء في الفقه لم تخطر له ببال .

ويقال : إنه سأله مرة عن مسألة فأجابه فيها بجوابات كثيرة فقال : يـاأبـا القاسم لم أكن أعرف فيها سوى ثلاثة أجوبة مما ذكرت فأعدها عليَّ ، فأعـادهـا بجوابـات أخرى غير ذلـك ، فقـال لـه : لم أسمع بمثـل هـذا ، فـأملـه عليَّ حتى أكتبه .

فقال الجنيد : لئن كنت أجريه فـأنـا أمليـه ، أي أن الله هو الـذي يجري ذلك على قلبي وينطق به لساني ، وليس هـذا مستفـاد من كتب ولا من تعلّم وإنما هذا من فضل الله عز وجل يلهمنيه ويجريه على لساني ، فقال : فمن أين استفدت هذا العلم ؟ قال : من جلوسي بين يدي الله أربعين سنة .

والصحيح أنه كان على مذهب سفيان الثوري وطريقه . والله أعلم ا هـ .

وسئل الجنيد عن العارف ؟ فقال : من نطق عن سرك وأنت ساكت .

وقال : مذهبنا هذا مقيد بالكتاب والسنة ، فمن لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث لايقتدىٰ به في مذهبنا وطريقتنا .

ورأى بعضهم معه مسبحة : فقال له : أنت مع شرفك تتخذ مسبحة ؟ فقال : طريق وصلت به إلى الله لاأفارقه .

وقال له خاله السري : تكلم على الناس ، فلم ير نفسه موضعاً ، فرأى في المنام رسول الله ﷺ فقال له : تكلم على الناس ، فغدا على خاله فقال له : لم تسمع مني حتى قال لك رسول الله ، فتكلم على الناس .

فجاءه يوماً شاب نصراني في صورة مسلم فقال له : ياأبا القاسم مامعنى قول النبي ﷺ : « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله » فأطرق الجنيد ، ثم رفع رأسه إليه وقال : أسلم فقد آن لك أن تسلم قال : فأسلم الغلام .

وقال الجنيد : ماانتفعت بشيء انتفاعي بأبيات سمعتهامن جارية تغني بها في غرفة وهي تقول : ـ

إذا قلت أهدى الهجر لي حلل البلى	تقولين لولا الهجر لم يطب الحب
وإن قلت هذا القلب أحرقه الجوى	تقولين إن الجوى شرف القلب
وإن قلت ماأذنبت قالت مجيبة	حياتك ذنب لايقاس به ذنب

قال : فصعقت وصحت ، فخرج صاحب الدار فقال : ياسيدي مالك ؟ قلت : مما سمعت ، قال : هي هبة مني إليك ، فقلت : قد قبلتها وهي حرة لوجه الله ، ثم زوجتها لرجل ، فأولدها ولدا صالحاً حج على قدميه ثلاثين حجة .

٦ ـ وذكر في « البداية والنهاية » الجزء الحادي عشر صفحة (١٩٢) سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة قال :

وفيها توفي من الأعيان : « أبو محمد جعفر المرتعش » أحد مشايخ

الصوفية . كذا ذكره الخطيب ، وقال أبو عبد الرحمن السلمي : اسمه عبد الله ابن محمد أبو محمد النيسابوري ، كان من ذوي الأموال فتخلى منها وصحب الجنيد وأبا حفص وأبا عثمان . وأقام ببغداد حتى صار شيخ الصوفية ، فكان يقال : عجائب بغداد : إشارات الشبلي ونكت المرتعش وحكايات جعفر الخواص .

سمعت أبا جعفر الصائغ يقول : قال المرتعش : من ظن أن أفعاله تنجيه من النار أو تبلغه الرضوان فقد جعل لنفسه وفعله خطراً ، ومن اعتمد على فضل الله بلغه الله أقصى منازل الرضوان .

وقيل للمرتعش : إن فلاناً يمشي على الماء ، فقال : إن مخالفة الهوى أعظم من المشي على الماء والطيران في الهواء .

ولما حضرته الوفاة بمسجد الشونيزية حسبوا ماعليه من الدين فإذا عليه سبعة عشر درهماً فقال : بيعوا خريقاتي هذه واقضوا بها ديني ، وأرجو من الله تعالى أن يرزقني كفناً ، وقد سألت الله ثلاثاً : أن يميتني فقيراً ، وأن يجعل وفاتي في هذا المسجد فإني صحبت فيه أقواماً ، وأن يجعل عندي من آنس به وأحبه ، ثم أغمض عينيه فمات .

٧ ـ وذكر في « البداية والنهاية » الجزء الحادي عشر صفحة (١٩٣) في ذكر سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة قال :

وفيها توفي من الأعيان أيضاً « علي بن محمد أبو الحسن المزين الصغير » أحد مشايخ الصوفية ، أصله من بغداد وصحب الجنيد وسهلا التستري ، وجاور بمكة حتى توفي في هذه السنة ، وكان يحكي عن نفسه قال : وردت بئراً في أرض تبوك فلما دنوت منها زلقت فسقطت في البئر وليس أحد يراني ، فلما كنت في أسفله إذا فيه مصطبة فتعلقت بها وقلت : إن مت لم أفسد على

الناس الماء ، وسكنت نفسي وطابت للموت ، فبينا أنا كذلك إذا أفعى قد تدلت عليَّ فلفت عليَّ ذنبها ثم رفعتني حتى أخرجتني إلى وجه الأرض وانسابت ، فلم أدر أين ذهبت ولا من أين جاءت .

وفي مشايخ الصوفية : آخر يقال له أبو جعفر المزين الكبير جاور بمكة ومات بها أيضاً وكان من العباد .

روى الخطيب عن علي بن أبي علي إبراهيم بن محمد الطبري عن جعفر الخلدي قال : ودّعت في بعض حجاتي المزين الكبير فقلت له : زودني ، فقال لي : إذا فقدت شيئاً فقل : « ياجامع النّاس ليوم لاريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد اجمع بيني وبين كذا » فإن الله يجمع بينك وبين ذلك الشيء ، قال : وجئت إلى الكتاني فودعته وسألته أن يزودني فأعطاني خاتماً على فصه نقش فقال : إذا اغتممت فانظر إلى فص هذا الخاتم يزول غمك ، قال : فكنت لأدعو بذلك الدعاء إلا استجيب لي ، ولاأنظر في ذلك الفص إلا زال غمي ، فبينا أنا ذات يوم في سمرية إذ هب ريح شديدة ، فأخرجت الخاتم لأنظر إليه فلم أدر كيف ذهب ، فجعلت أدعو بذلك الدعاء يومي أجمع أن يجمع عليَّ الخاتم ، فلما رجعت إلى المنزل فتشت المتاع الذي في المنزل فإذا الخاتم في بعض ثيابي التي كانت بالمنزل .

٨ ـ ذكر في « البداية والنهاية » الجزء الثالث عشر صفحة (٩٣) في ذكر سنة سبع عشرة وستمائة قال :

وفيها توفي من الأعيان ..... فذكر منهم (الشيخ عبد الله اليونيني) الملقب « أسد الشام » رحمه الله ورضي عنه ، من قرية ببعلبك يقال لها « يونين » وكانت له زاوية يُقصد فيها للزيارة ، وكان من الصالحين الكبار المشهورين بالعبادة والرياضة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر له همة عالية في الزهد والورع بحيث إنه كان لا يقتني شيئاً ولا يملك مالا ولاثيابا بل يلبس

عارية ، ولا يتجاوز قميصا في الصيف وفروة فوقه في الشتـاء وعلى رأسـه قبعـاً من جلود المعز شعره إلى ظاهر .

وكان لا ينقطع عن غـزاة من الغـزوات ، ويرمي عن قـوس زنتـه ثمـانـون رطلاً ، وكان يجاور في بعض الأحيان بجبل لبنان ، ويأتي في الشتاء إلى عيون العاسريا في سفح الجبل المطل على قرية دومة شرقي دمشق لأجل سخونة المـاء فيقصده الناس للزيارة هنـاك ، ويجيء تـارة إلى دمشق فينزل بسفح قـاسيون عند القادسية .

وكانت له أحوال ومكاشفات صالحة ، وكان يقال له « أسد الشام » .

حكى الشيخ أبو المظفر سبط ابن الجوزي عن القاضي جمـال الـدين يعقوب الحاكم بكرك البقاع أنه شـاهـد مرة الشيخ عبـد الله وهو يتوضـأ من تور عنـد الجسر الأبيض إذ مر نصراني ومعـه حمل بغل خمراً ، فعثرت الـدابـة عنـد الجسر فسقط الحمل ، فرأى الشيخ وقد فرغ من وضوئه ولا يعرفـه ، واستعـان بـه على رفع الحمل فاستدعاني الشيخ فقال : تعال يافقيه ، فتساعـدنـا على تحميل ذلـك الحمل على الدابة ، وذهب النصراني فتعجبت من ذلك وتبعت الحمل وأنـا ذاهب إلى المدينة فانتهى به إلى العقبة فأورده إلى الخمَّـار بهـا فـإذا خلّ ، فقـال لـه : الخمّار : ويحك هذا خل ؟ فقال النصراني : أنـا أعرف من أين أتيت ، ثم ربـط الدابة في خان ورجع إلى الصالحين فسأل عن الشيخ فعرفه فجاء إليه فأسلم على يديه .

وله أحوال وكرامات كثيرة جداً ، وكان لا يقوم لأحد دخل عليه ويقول : « إنما يقوم الناس لرب العالمين » .

وكان الأمجد إذا دخل عليه جلس بين يديه فيقول له : ياأمجد فعلت كـذا وكذا ، ويأمره بما يأمره وينهـاه عمـا ينهـاه عنـه ، وهو يمتثل جميع مـا يقولـه

له ، وما ذاك إلا لصدقه في زهده وورعه وطريقه .

وكان يقبل الفتوح وكان لايدخر منه شيئاً لغد ، وإذا اشتد جوعه أخذ من ورق اللوز ففركه واستفه ويشرب فوقه الماء البارد رحمه الله تعالى وأكرم مثواه .

وذكروا أنه كان يحج في بعض السنين في الهواء ، وقد وقع هذا لطائفة كبيرة من الزهاد وصالحي العُبَّاد ، ولم يبلغنا هذا عن أحد من أكابر العلماء .

وأول من يذكر عنه هذا : حبيب العجمي وكان من أصحاب الحسن البصري ثم من بعده من الصالحين رحمهم الله تعالى أجمعين .

فلما كان يوم جمعة من عشر ذي الحجة من هذه السنة صلى الصبح عبد الله اليونيني وصلاة الجمعة بجامع بعلبك ، وكان قد دخل الحمام يومئذ قبل الصلاة وهو صحيح ، فلما انصرف من الصلاة قال للشيخ داود المؤذن وكان يغسل الموتى : انظر كيف تكون غدا ، ثم غدا الشيخ إلى زاويته فبات يذكر الله تعالى تلك الليلة ويتذكر أصحابه ومن أحسن إليه ولو بأدنى شيء ويدعو لهم ، فلما دخل وقت الصبح صلى بأصحابه ، ثم استند يذكر الله وفي يده سُبحة ، فمات وهو كذلك جالس لم يسقط ، ولم تسقط السُبحة من يده .

فلما انتهى الخبر إلى الملك الأمجد صاحب بعلبك فجاء إليه فعاينه كذلك فقال : لو بنينا عليه بنيانا هكذا يشاهد الناس منه آية ؟ فقيل له : ليس هذا من السنة ، فنحي وكفن وصلي عليه ودفن تحت اللوزة التي كان يجلس تحتها يذكر الله تعالى . ورحمه الله ونور ضريحه .

وكانت وفاته يوم السبت وقد جاوز ثمانين عاما أكرمه الله تعالى .

وكان الشيخ محمد الفقيه اليونيني من جملة تلاميذه وممن يلوذ به ، وهو جد هؤلاء المشايخ بمدينة بعلبك .

٩ ـ وذكر في « البداية والنهاية » الجزء الثالث عشر صفحة (١٣٨) في ذكر سنة ثلاثين وستمائة وممن توفي من الأعيان في هذه السنة من المشاهير . فذكر منهم « الشيخ شهاب الدين السهروردي » [١] :

صاحب عوارف المعارف ، عمر بن محمد بن عبد الله بن محمد بن محمد بن حمويه ، واسمه عبد الله البكري البغدادي شهاب الدين أبو حفص السهروردي ، شيخ الصوفية ببغداد .

كان من كبار الصالحين وسادات المسلمين ، وتردد في الرسلية بين الخلفاء والملوك مرارا ، وجعلت له أموال جزيلة ففرقها بين الفقراء والمحتاجين .

وقد حج مرة وفي صحبته خلق من الفقراء لا يعلمهم إلا الله عز وجل .

وكانت فيه مروءة وإغاثة للملهوفين وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر ، وكان يعظ الناس وعليه ثياب البذلة ، قال مرة في ميعاده هذا البيت وكرره :

مافي الصحاب أخو وجد تطارحه   إلا محب له في الركب محبوب

فقام شاب وكان في المجلس فأنشده : ـ

كأنما يوسف في كل راحلة   وفي كل بيت منه يعقوب

فصاح الشيخ ونزل عن المنبر وقصد الشاب ليعتذر إليه فلم يجده ووجد مكانه حفرة فيها دم كثير من كثرة ماكان يفحص برجليه عند إنشاد الشيخ البيت .

وذكر له ابن خلكان أشياء كثيرة من أناشيده وأثنى عليه خيراً وأنه توفي في هذه السنة وله ثلاث وتسعون سنة . رحمه الله تعالى .

---

(١) إليه مرجع سلاسل الطريقة السهروردية .

١٠ ـ وذكر في البداية والنهاية الجزء الثالث عشر صفحة (١٤١) في ذكر سنة إحدى وثلاثين وستمائة ومن توفي في هذه السنة من الأعيان ..... نذكر منهم « الشيخ عبد الله الأرمني »:

أحد العباد الزهاد الذين جابوا البلاد وسكنوا البراري والجبال والوهاد واجتمعوا بالأقطاب والأبدال والأوتاد ، وممن كانت له الأحوال والمكاشفات والمجاهدات والسياحات في سائر النواحي والجهات وقد قرأ القرآن في بدايته وحفظ كتاب القدوري على مذهب أبي حنيفة ، ثم اشتغل بالمعاملات والرياضات ، ثم أقام آخر عمره بدمشق حتى مات بها ودفن بسفح قاسيون .

وقد حكي عنه أشياء حسنة منها : ـ

أنه قال : اجتزت مرة في السياحة ببلدة فطالبتني نفسي بدخولها فآليت أن لاأستطعم منها بطعام ، ودخلتها ، فمررت برجل غسَّال فنظر إليَّ شزراً فخفت منه وخرجت من البلد هارباً فلحقني ومعه طعام ، فقال : كل فقد خرجت من البلد ، فقلت له : وأنت في هذا المقام وتغسل الثياب في الأسواق ؟ فقال : لاترفع رأسك ولاتنظر إلى شيء من عملك وكُن عبداً لله فإن استعملك في الحسن فارض به ، ثم قال رحمه الله : ـ

ولو قيل لي مت قلت سمعا وطاعة وقلت لداعي الموت أهلاً ومرحباً

...... وذكر له الحافظ ابن كثير رحمه الله حكايات أخرى .

١١ ـ وذكر في « البداية والنهاية » الجزء الثالث عشر صفحة (٢٢٧) في ذكر سنة ثمان وخمسين وستمائة ومن توفي فيها من الأعيان ... فذكر منهم :

الشيخ محمد الفقيه اليونيني : الحنبلي البعلبكي الحافظ ، هو محمد بن أحمد ابن عبد الله بن عيسى بن أبي الرجال أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن محمد بن الحسين بن إسحاق بن جعفر الصادق .

كذا نقل هذه النسبة الشيخ قطب الدين اليونيني من خط أخيه الأكبر أبي الحسين علي، وأخبره أن والده قال له : نحن من سلالة جعفر الصادق ، قال : وإنما قال له هذا عند الموت ليتحرج من قبول الصدقات .

أبو عبد الله بن أبي الحسين اليونيني الحنبلي تقي الدين الفقيه الحنبلي الحافظ المفيد البارع العابد الناسك ، ولد سنة ثنتين وسبعين وخمسمائة .

وسمع الخشوعي وحنبلاً والكندي والحافظ عبد الغني وكان يثني عليه ، وتفقه على الموفق ولزم الشيخ عبد الله اليونيني فانتفع به ، وكان الشيخ عبد الله يثني عليه ويقدمه ويقتدي به في الفتاوى .

وقد لبس الخرقة من شيخ شيخه عبد الله البطائحي ، وبرع في علم الحديث وحفظ الجمع بين الصحيحين بالفاء والواو ، وحفظ قطعة صالحة من مسند أحمد ، وكان يعرف العربية أخذها عن التاج الكندي ، وكتب مليحا حسناً .

وكان الناس ينتفعون بفنونه الكثيرة ، ويأخذون عنه الطرق الحسنة وقد حصلت له وجاهة عظيمة عند الملوك .

توضأ مرة عند الملك الأشرف بالقلعة حال سماع البخاري على الزبيدي ، فلما فرغ من الوضوء نفض السلطان تخفيفته وبسطها على الأرض ليطأ عليها وحلف السلطان له إنها طاهرة ولابد أن يطأ برجليه عليها ففعل ذلك ......

وبسط الحافظ ابن كثير رحمه الله في مناقبه وعلو مرتبته ، ثم قال : -

وكانت الملوك كلهم يحترمونه ويعظمونه ويجيئون إلى مدينته بنو العادل وغيرهم .

وكذلك كان مشايخ الفقهاء كابن الصلاح وابن عبد السلام وابن الحاجب

والحصري وشمس الـدين بن سني الـدولـة وابن الجـوزي وغيرهم يعظمـونـه ويرجعون إلى قوله لعلمه وعمله وديانته وأمانته .

وقد ذكرت له أحوال ومكاشفات وكرامات كثيرة رحمـه الله ، وزعم بعضهم أنه قطب منذ ثنتي عشرة سنة فالله أعلم ......

وذكر ولده قطب الدين أنـه مـات في التـاسع عشر من رمضـان من هـذه السنة عن ثمان وثمانين سنة رحمه الله تعالى .

١٢ ـ وذكر في « البداية والنهايـة » الجزء الثـالث عشر صفحـة (٣٤٢) في ذكر سنة أربع وتسعين وستمائة ومن توفي فيها من الأعيان ... فذكر منهم : ـ « الفاروقي الشيخ الإمام العابد الزاهد » :

الخطيب عـز الـدين أبـو العبـاس أحمـد بن الشيـخ محيي الـدين إبراهيم بن عمر بن الفرج بن سابور بن علي بـن غنيمة الفاروقي الواسطي ، ولد سنـة أربع عشرة وستمائـة وسمع الحـديث ورحـل فيـه ، وكانت لـه فيـه يـد جيـدة ، وفي التفسير والفقه والوعظ والبلاغة ، وكان دينا ورعا زاهـدا ، قـدم إلى دمشق في دولة الظاهر فأعطي تدريس الجاروضية وإمام مسجد ابن هشـام ، ورتب لـه فيه شيء على المصالح ، وكان فيه إيثار ولـه أحوال صـالحـة ومكاشفـات كثيرة .... وذكر له الحافظ ابن كثير رحمه حكايات ومقامات ، ثم قال :

وكان يوم موته يوماً مشهوداً بواسـط ، وصلي عليـه بـدمشق وغيرهـا رحمـه الله . وكان قـد لبس خرقـة التصـوف من السهروردي ، وقرأ القراءات العشر وخلف ألفي مجلد ومـائتي مجلـدٍ ، وحـدث بـالكثير ، وسمع منـه البرزالي كثيراً صحيح البخاري وجامع الترمذي وسنن ابن ماجه ومسند الشافعي ومسند عبـد ابن حميد ومعجم الطبراني الصغير ومسنـد الـدارمي وفضـائل القرآن لأبي عبيـد وثمانين جزءاً وغير ذلك .

١٣ ـ وذكر في « البداية والنهاية » الجزء الرابع عشر صفحة (٢٢٧) في ذكر سنة تسع وأربعين وسبعمائة قال فيه :

وفي يوم السبت ثالث رجب صُلِّيَ على الشيخ علي المغربي أحد أصحاب الشيخ تقي الدين ابن تيمية بالجامع الأفرمي بسفح قاسيون ، ودفن بالسفح رحمه الله ، وكانت له عبادة وزهادة وتقشف وورع ، ولم يتول في هذه الدنيا وظيفة بالكلية ، ولم يكن له مال بل كان يأتي بشيء من الفتوح يستنفقه قليلاً قليلا ، وكان يعاني التصوف ، وترك زوجة وثلاثة أولاد رحمه الله .

* * *

الحافظ ابن رجب الحنبلي



وغالب كتب الحافظ ابن رجب مشحونة بذكر السادة الصوفية وكلامهم وأحوالهم ونكتفي هنا بذكر قطعات مختلفة من تأليفه البديع « الذيل على طبقات الحنابلة » فجميع الذين يذكرهم ونذكرهم هم حنابلة سلفيون أو ممن ينتسب إليهم مشايخ الحركة السلفية فيتم به المقصود على أحسن وجه إن شاء الله وعليه سبحانه التكلان .

١ ـ ذكر في « الذيل على طبقات الحنابلة »الجزء الأول صفحة (٢١١) في ترجمة « الإمام أبي محمد عبد الله بن علي البغدادي » : ـ

قال الحافظ الضياء المقدسي : أخبرنا أبو الفضل عبد الواحد بن سلطان ببغداد ، نا محمد المقرئ ، أجاز لهم وأنشدنا لنفسه : ـ

ترك التكلف في التصوف واجب ومن المحال تكلف الفقراء
قوم إذا امتد الظلام رأيتهم يتركعون تركع القراء
والوجد منهم في الوجوه محله ثم السماع يحل في الأعضاء
لا يرفعون بذاك صوتاً مجهراً يتجنبون مواقع الأهواء
ويواصلون الدهر صوماً دائماً في البأس إن يأتي وفي السراء
وتراهم بين الأنام إذا أتوا مثل النجوم الغر في الظلماء
صدقت عزائمهم وعز مراهم وعلت منازلهم على الجوزاء
صدقوا الإله حقيقة وعزيمة ورعوا حقوق الله في الآناء
والرقص نقص عندهم في عقدهم ثم القضيب بغير ما إخفاء
هذا شعار الصالحين ومن رضي من سادة الزهاد والعلماء
فإذا رأيت مخالفاً لفعالهم فاحكم عليه بمعظم الإغواء

٢ ـ وذكر في « الذيل على طبقات الحنابلة » الجزء الأول صفحة (٣٠٦) فقال :

(عثمان بن مرزوق بن حميد بن سلام القرشي الفقيه العارف الزاهد أبو عمرو نزيل الديار المصرية) .

صحب شرف الإسلام عبد الوهاب بن الجيلي بدمشق وتفقه واستوطن مصر وأقام بها إلى أن مات ، وأفتى بها ودرس وناظر وتكلم على المعارف والحقائق .

وانتهت إليه تربية المريدين بمصر ، وانتمى إليه خلق كثير من الصلحاء .

وأثنى عليه المشايخ وحصل له قبول تام من الخاص والعام وانتفع بصحبته خلق كثير ، وكان يعظم الشيخ عبد القادر[1] ، ويقال : إنه اجتمع به هو وأبو مدين بعرفات ولبسا منه الخرقة ، وسمعا منه جزءاً من مروياته .

وسمع الحديث ورواه ، حدث عنه أبو الثناء محمود بن عبد الله بن مطروح المقرئ الجيلي وأبو الثناء أحمد بن ميسرة بن أحمد بن موسى بن غنام الغدراني الحنبلي المصري الكافحي ، وكانا صالحين ، وكان الأول مقرئاً حسن التلفظ بالقرآن ، وكان الثاني كثير الذكر والتسبيح ، حدث عنه المنذري ، وقرأ على الأول القرآن وكان الشيخ أبو عمرو له كرامات وأحوال ومقامات وكلام حسن على لسان أهل الطريقة فمن ذلك قوله : ـ

الطريق إلى معرفة الله وصفاته : الفكر والاعتبار بحكمه وآياته ولاسبيل للألباب إلى معرفة كنه ذاته ، ولو تناهت الحكم الإلهية في حد العقول وانحصرت القدر الربانية في درك العلوم لكان ذلك تقصيراً في الحكمة ونقصا في القدرة ، لكن احتجبت أسرار الأزل عن العقول كما احتجبت سبحات الجلال

---

(١) الإمام الرباني والقطب الصمداني الشيخ عبد القادر الجيلاني الحنبلي مرجع سلاسل الطريقة القادرية .

عن الأبصار ، فقد رجع معنى الوصف في الوصف وعَمِيَ الفهم عن الـدرك ودار الملك في الملـك وانتهى المخلوق إلى مثلـه واشتـد الطلب إلى شكلـه ﴿ **وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسا** ﴾ ......

ومن كـلامـه : حليـة العـارف الخشيـة والهيبـة ، وإيـاكم ومحـاكاة أصحـاب الأحوال قبل إحكام الطريق وتمكن الأقدام فإنهـا تقطع بكم ، ودليل تخليطـك صحبتك للمخلطين ، ودليل أنسك بالمستوحشين ......

وحُكي عن الشيخ أبي إسحـاق إبراهيم بن مرسيـل الضرير الفقيـه الشـافعي الزاهد رحمه الله تعالى قال : كان الشيخ أبو عمرو بن مرزوق من أوتـاد مصر ، كان شائع الذكر ظاهر الكرامات .

زاد النيل سنة زيادة عظيمـة كادت مصر تغرق وأقـام على الأرض حتى كاد وقت الزرع يفوت فضج النـاس بـالشيـخ أبي عمرو بن مرزوق بسبب ذلـك ، فـأتى إلى شـاطيء النيل وتـوضـأ منـه فنقص في الحـال نحـو ذراعين ونـزل عن الأرض حتى انكشفت وزرع الناس في اليوم الثاني .

قـال : وفي بعض السنين لم يطلع النيـل البتـة وفـات أكثر وقت زراعتـه ، وغلت الأسعـار وظن الهلاك وضجـوا بـالشيـخ أبي عمرو بن مرزوق فجـاء إلى شاطيء النيل وتوضأ فيه بإبريق كان مع خادمه ، فزاد النيل في ذلـك اليوم ، وتعاقبت زيادته إلى أن انتهت إلى حده ، وبلغ الله به المنـافع وبـارك في زرع الناس تلك السنة .

قرأت بخط الشيخ ناصح الدين عبد الرحمن بن نجم بن الحنبلي قـال : حكى لي الشيخ زين الدين علي بن نجـاء قـال : زرت الشيخ عثمان بن مرزوق بمصر فقال : يجيء أسد الدين شيركوه إلى هـذه البلاد ويروح ولا يحصل لـه شيء ، ثم يعود يجيء ويروح ولا يأخذ البلد ، ثم يجيء فيأخذ ماأدري قال في الثالثـة

أو الرابعة فيملك مصر . فجرى الأمر كما ذكر ، فقلت له : ياسيدي من أين لك هذا ؟ فقال والله ياوالدي ماأعلم الغيب وإنما لي عادة أن أرى رسول الله ﷺ أراه في بعض الجمع فيخبرني ، قلت : لعله أراد في النوم ....

وقال الشيخ تقي الدين ابن تيمية رحمه الله تعالى : وثم جماعات منتسبون إلى الشيخ أبي عمرو بن مرزوق ويقولون أشياء مخالفة لما كان الشيخ أبو عمرو عليه ، وهذا الشيخ كان ينتسب إلى مذهب الإمام أحمد وكان من أصحاب الشيخ عبد الوهاب ابن الشيخ أبي الفرج وهؤلاء ينتسبون إلى مذهب الشافعي ويقولون أقوال مخالفة لمذهب الشافعي وأحمد بل ولسائر أئمة المسلمين ، ولشيخهم الشيخ أبي عمرو .

وهذا الشيخ أبو عمرو : شيخ من شيوخ أهل العلم والدين وله أسوة أمثاله ...... إلخ . اهـ .

٣ ـ وذكر في « الذيل على طبقات الحنابلة » الجزء الأول صفحة (٢٩٠) :

(عبد القادر بن أبي صالح بن عبد الله بن جنكي دوست بن أبي عبد الله ابن عبد الله الجيلي ثم البغدادي الزاهد) .

شيخ العصر وقدوة العارفين وسلطان المشايخ وسيد أهل الطريقة في وقته محيي الدين أبو محمد ، صاحب المقامات والكرامات والعلوم والمعارف والأحوال المشهورة .

وبعض الناس يذكر نسبه إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه ..... ولد سنة تسعين وأربعمائة أو سنة إحدى وتسعين بكيلان .

وفد بغداد شابا فسمع بها الحديث من أبي غالب بن الباقلاني وجعفر السراج وأبي بكر بن سوسن وابن بيان وأبي طالب بن يوسف وابن خشيش وأبي الزيني .

وتفقه علي القاضي أبي سعد المخرامي وأبي الخطاب الكلوذاني .

وقيل إنه قرأ أيضاً على ابن عقيل والقاضي أبي الحسين وبرع في المذهب والخلاف والأصول وغير ذلك .

وقرأ الأدب على زكريا التبريزي وصحب الشيخ حماد الدباس الزاهد ودرس بمدرسة شيخه وأقام بها إلى أن مات ودفن بها .

قال ابن الجوزي : كانت هذه المدرسة لطيفة ، ففوضت إلى عبد القادر فتكلم على الناس بلسان الوعظ وظهر له صيت بالزهد وكان له سمت وصمت ، وضاقت المدرسة بالناس .

وكان يجلس عند سور بغداد مستنداً إلى الرباط وينوب عنده في المجلس خلق كثير فعمرت المدرسة ووسعت وتعصبت في ذلك العوام وأقام في مدرسته يدرس ويعظ إلى أن توفي .

وذكره ابن السمعاني فقال : إمام الحنابلة وشيخهم في عصره فقيه صالح ديّن خيّر كثير الذكر دائم الفكر سريع الدمعة كتبت عنه ، وكان يسكن بباب الأزج في المدرسة التي بنوا له ....

قلت : ظهر الشيخ عبد القادر للناس وجلس للوعظ بعد العشرين وخمسمائة وحصل له القبول التام من الناس ، واعتقدوا ديانته وصلاحه وانتفعوا به وبكلامه ووعظه ، وانتصر أهل السنة بظهوره ، واشتهرت أحواله وأقواله وكراماته ومكاشفاته وهابه الملوك فمن دونهم .

قال الشيخ موفق الدين صاحب المغني : لم أسمع عن أحد يحكى عنه من الكرامات أكثر مما يحكى عن الشيخ عبد القادر ، ولا رأيت أحداً يعظم من أجل الدين أكثر منه .

وذكر الشيخ عز الدين بن عبد السلام شيخ الشافعية : إنه لم تتواتر كرامات أحد من المشايخ إلا الشيخ عبد القادر فإن كراماته نقلت بالتواتر .....

وقرأت بخط ابن الحنبلي أيضاً أن خاله أبا الحسن بن نجا الواعظ اجتمع بالشيخ عبد القادر وكان يحكي عنه قال : سبقت يوم العيد إلى المصلى إلى المكان الذي يصلي فيه الشيخ عبد القادر قال : فجاء الشيخ عبد القادر ومعه خلق كثير والناس يقبلون يده فصلى ركعتين قبل الصلاة فقلت في نفسي : ماهذه الصلاة فمن السنة أن لاتنفل قبلها ، قال : فلما سلّم التفت إليَّ وقال : لها سبب .. وللشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى كلام حسن في التوحيد والصفات والقدر وفي علوم المعرفة موافق للسنة وله كتاب « الغنية لطالبي طريق الحق » وهو معروف وله كتاب « فتوح الغيب » وجمع أصحابه من مجالسه في الوعظ كثيراً .

وكان متمسكاً في مسائل الصفات والقدر ونحوهما بالسنة بالغا في الرد على من خالفها ...... ونقلت من خط السيف بن المجد الحافظ : سمعت الشيخ الزاهد علي بن سليمان البغدادي المعروف بالخباز برباطه بالجانب الغربي من بغداد يحكي عن الشيخ عبد القادر الجيلي وناهيك به فإنه صاحب المكاشفات والكرامات التي لم تنقل لأحد من أهل عصره أنه قال : لا يكون ولي لله تعالى إلا على اعتقاد أحمد رضي الله عنه ....

وقال ابن النجار : وسمعت أبا محمد الأخفش يقول : كنت أدخل على الشيخ عبد القادر في وسط الشتاء وقوة برده وعليه قميص واحد وعلى رأسه طاقية والعرق يخرج من جسده وحوله من يروحه بالمروحة كما يكون في شدة الحر .....

قال ابن الجوزي : توفي الشيخ عبد القادر ليلة السبت ثامن وقال غيره ،

تـاسع ربيـع الآخر سنـة إحـدى وستين وخمسمائـة بعـد المغرب ودفن من وقتـه بمدرسته وبلغ تسعين سنة .

وسمعت أنه كان يقول عند موتـه : رفقـاً رفقـاً . ثم يقول : وعليكم السلام وعليكم السلام ، أجيء إليكم أجيء إليكم .

٤ ـ وذكر في « الذيل على طبقات الحنابلة » الجزء الأول صفحة (٣٨٤) :

(سعـد بن عثمان بن مرزوق بن حميـد بن سـلام القرشي المصري المـولـد ، البغدادي الدار الفقيه الزاهد أبو الحسين) .

وتفقه ببغداد في المـذهب على أبي الفتح بن المني ولازم درسـه وسمع من أبي محمد بن الخشاب وغيره وحصل له القبول التام من الخـاص والعـام وكان ورعـاً زاهداً عابداً .

قرأت بخط ناصح الـدين بن الحنبلي في حقـه : كان مشتغلاً بحفـظ كتـاب « الوجهين والروايتين » تصنيف القـاضي أبي يعلى ، وكان من الزهـد والصـلاح والتطهير والتورع في المأكول على صفة تعجز كثيراً من المجتهدين في العبادة .

وكان يمشي مطرق الرأس يلتقـط الأوراق المكتـوبـة حتى اجتمـع عنـده من ذلك شيء كثير فيحملـه بحمال إلى الشـاطئ فيتولى غسلـه ويرسلـه مع المـاء ، وكان لا يستقضي أحدا حاجة إلا أعطاه أجره ولو أشعل له سراجاً ......

ورأى رجل في بغداد النبيَّ ﷺ وهو يقول : لولا الشيخ سعد نزل بكم بلاء أو كما قال .

ثم سعى الشيخ سعد إلى الجمعة وماعنده خبر بهذا المنام فانعكف النـاس بـه يتبركون بـه وازدحموا فرموه مرات ، وكأن منـاديـاً ينـادي في قلوب النـاس ، وهـو يقـول : أعـوذ بـالله من الفتنـة إيش بي ؟ إيش بـالنـاس ؟ حتى ضرب

الناس عنه وخلص منهم .

وقال القادسي : هو أحد الزهاد الأبدال الأوتاد ، ومن تشد إليه الرحال ومن كان لله عليه إقبال ، الصائم في النهار القائم في الظلام .

قدم بغداد وسكن برباط الشيخ عبد القادر وما كان يقبل من أحد شيئاً ولا يغشى باب أحد من السلاطين ، كان ينفذ له في كل عام شيء من مِلك له بمصر يكفيه طوال سنته .

حكى لي والدي قال : كنت أتردد إليه كثيراً - فأتيته يوما فهجس في نفسي أن لي مدة أتردد إليه وما حلف عليَّ قطّ ولاقدم لي شيئاً ، فما استتمت كلامي حتى قال لي : أي أحمد والله ماأرضىٰ لك طعامي لأنه طعام شقي ، قال : وأخذني من الوجد شيء عظيم ، ثم دخل ليخرج لي من الزاد ، فقلت : لو أخرج إليَّ رغيف فضله لانتَغِض به الأقوام ، فقال عجلا من داخل البيت : أي شيخ أحمد بل رغيفان . قال : فزاد تحيري ودهشتي ، وكان الشيخ سعد كثير البكاء والخشوع .

قال ابن النجار : كان عبداً صالحاً مشهوراً بالعبادة والمجاهدة والورع والتقشف والقناعة والتعفف ، وكان خشن العيش مخشوشنا كثير الانقطاع عن الناس وكان على غاية من الوسوسة والمبالغة في الطهارة ......

وقيل : إن شيخه ابن المني لما احتضر أوصى أن يصلي عليه الشيخ سعد ، وقد تقدم إنه صلى عليه يومئذ وأن الناس ازدحموا عليه للتبرك به حتى كاد يهلك.

قال المنذري : توفي في سادس شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة ساجداً في صلاته ودفن من الغد .....

وذكر ابن النجار أنه كان قد قرأ في الصلاة التي توفي فيها ﴿ **فأما إن كان من المقربين * فروح وريحان وجنة نعيم** ﴾ .

٥ ـ وذكر في « الذيل على طبقات الحنابلة » الجزء الثاني صفحة (٣٦) في ترجمة : الشيخ عبد الله الجبائي :

قال أبو الفرج ابن الحنبلي وكتبته من خطه : كانت حرمة الشيخ عبد الله الجبائي كبيرة ببغداد ، فلما دخلت أصبهان سنة ثمانين وجدته بها وهو عظيم الحرمة فكان كل يوم يأتي إلى زيارتي ، وبجاهه سمعت على الحافظ أبي موسى الجزء من السباعيات فإنه كان مريضاً وقد حجب الناس عنه ، فلم يقدروا على حجب الشيخ عبد الله فدخلنا معه فأخذ الإذن من الحافظ أبي موسى لي في القراءة عليه ، وكان إذا مشى في السوق قام له أهل السوق .

وحكى لي الشيخ طلحة ـ يعني العلثي ـ أن للشيخ عبد الله ـ يعني الجبائي ـ رياضات ومجاهدات يطول ذكرها ......

قال ابن رجب : سمع الشيخ أبو محمد (عبد الله الجبائي) ببغداد من ابن ناصر الحافظ الأرموي وابن الطلاية وسعيد بن البنا ودعوان بن علي الحسني وأبي علي حمد بن شاتيل القاضي وأبي المعمر الأنصاري وغيرهم .

وسمع بأصبهان من أبي الخير الباغباني ومسعود الثقفي وغيرهما .

وتفقه ببغداد على أبي حكيم النهرواني وأخذ عنه القطعة التي كتبها من شرح الهداية . وصحب الشيخ عبد القادر الجيلي مدة مائلاً إلى التزهد والصلاح والخير والانقطاع وانتفع به وكان يحكي عنه كثيراً من أحواله وكراماته .

قال ابن النجار : كتب إليّ عبد الله بن أبي الحسن الجبائي ونقلته من خطه قال : كنت أسمع كتاب « حلية الأولياء » على شيخنا أبي الفضل بن ناصر فرق قلبي وقلت في نفسي : أشتهي أن أنقطع عن الخلق وأشتغل بالعبادة ، ومضيت وصليت خلف الشيخ عبد القادر فلما صلى جلسنا بين يديه فنظر إليّ وقال : إذا أردت الانقطاع فلا تنقطع حتى تتفقه وتجالس

الشيوخ وتتأدب بهم فحينئذ يصلح لك الانقطاع ، وإلا فتمضي وتنقطع قبل أن تتفقه وأنت فريخ ماريَّشت فإن أشكل عليك شيء من أمر دينك تخرج من زاويتك وتسأل الناس عن أمر دينك ؟ مايحسن بصاحب الزاوية أن يخرج من زاويته ويسأل الناس عن أمر دينه ، ينبغي لصاحب الزاوية أن يكون كالشمعة يستضاء بنوره .

قال : وكان الشيخ يوماً يتكلم في الإخلاص والرياء والعجب وأنا حاضر في المجلس ، فخطر في نفسي : كيف الخلاص من العجب ؟ فالتفت إليَّ الشيخ وقال : إذا رأيت الأشياء من الله وأنه وفقك لعمل الخير وأخرجت نفسك من الشين سلمت من العجب . اهـ .

٦ ـ وذكر في « الذيل على طبقات الحنابلة » الجزء الثاني صفحة (٢٦٩) :

محمد بن أحمد بن عبد الله بن عيسى بن أبي الرجال أحمد بن علي اليونيني البعلبكي الشيخ الفقيه المحدث الحافظ الزاهد العارف الرباني تقي الدين أبو عبد الله ابن أبي الحسين ، أحد الأعلام وشيوخ الإسلام .

ولد في سادس رجب سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة بيونين من قرى بعلبك ونشأ يتيماً بدمشق ، فأقعدته أمه في صنعة النشاب ، ثم حفظ القرآن ، وسمع الحديث من أبي طاهر الخشوعي وأبي التام القلانسي وحنبل المكبر وأبي اليمن الكندي والحافظ عبد الغني وغيرهم ، وتفقه بالشيخ موفق الدين وأخذ الحديث عن الحافظ عبد الغني ، والعربية عن أبي اليمن الكندي ، وبرع في الخط المنسوب . ولبس خرقة التصوف من الشيخ عبد الله البطايحي صاحب الشيخ عبد القادر ، ولزم خدمة الشيخ عبد الله اليونيني الزاهد صاحب الأحوال والكرامات الذي يقال له أسد الشام وانتفع به .

وكان الشيخ عبد الله هذا يثني على الشيخ الفقيه ويقدمه ويقتدي به في

الفتاوى ، وكذلك كان شيخه الحافظ عبد الغني يثني عليه .

وبرع في الحديث وحفظ فيه الكتب الكبار حفظا متقنا كـ « الجمع بين الصحيحين » للحميدي ، و « صحيح مسلم » .....

وذكره عمر بن الحاجب الحافظ فأطنب في وصفه وأسهب وقال : اشتغل بالفقه والحديث إلى أن صار إماماً حافظاً ، إلى أن قال : ولم ير في زمانه مثل نفسه في كماله وبراعته ، وجمع بين علمي الشريعة والحقيقة ....

وقال الحافظ عز الدين الحسيني : هو أحد المشايخ المشهورين الجامعين بين العلم والدين وكان حفظ كثيراً من الحديث النبوي مشهوراً بذلك . انتهى . وكان حريصاً على سماع الحديث وقراءته مع علو سنه وعظم شأنه وكان أهل بعلبك يسمعون بقراءته على المشايخ الواردين عليهم كالقزويني وبهاء الدين المقدسي وابن رواحة الحموي وغيرهم .

وكان ذا أحوال وكرامات وأوراد وعبادات لايخل بها ولايؤخرها عن وقتها لورود أحد عليه ولو كان من الملوك .

وكان لايرى إظهار الكرامات ويقول : كما أوجب الله على الأنبياء إظهار المعجزات أوجب على الأولياء إخفاء الكرامات .

ويروى عن الشيخ عثمان شيخ دير ناعش ـ وكان من أهل الأحوال ـ قال : قَطَب الشيخ الفقيه ثمان عشرة سنة .

وكان له رحمه الله منزلة عند الملوك ويحترمونه احتراماً زائدا حتى كان مرة بقلعة دمشق في سماع البخاري عند الملك الأشرف فقام الشيخ الفقيه مرة يتوضأ ، فقام السلطان ونفض تخفيفته لما فرغ الشيخ من الوضوء وقدمها إليه ليتنشف بها أو ليطأ عليها برجله وحلف أنها طاهرة وأنه لابد أن يفعل ذلك .

قال الحافظ الذهبي : حدثني بذلك شيخنا أبو الحسين بن اليونيني أو ابن الشيخ الفقيه ، قال الحافظ : والشك مني .

قال : وسار الملك الأشرف إلى بعلبك مرة ، فبدأ قبل كل شيء فأتى دار الشيخ الفقيه ونزل فدق الباب فقيل : من ذا ؟ فقال : موسى .....

وكانت الملوك كلهم يحترمونه ويعظمونه بنو العادل وغيرهم ، وكذلك مشايخ العلماء كابن الصلاح وابن عبد السلام وابن الحاجب والحصري ، والقضاة : كابن سناء الدولة وابن الجوزي وغيرهم .

وكان الناس ينتفعون بعلومه وفنونه ، ويتلقون عنه الطريقة الحسنة ، وكان عظيم الهيبة منور الشيبة مليح الصورة ضخما حسن السمت والوقار ، وكان يلبس قبعاً صوفه إلى الخارج على طريقة شيخه الشيخ عبد الله .

وكان كثير الاقتداء به والطاعة له ، حكى مرة أنه كان قد عزم على الرحلة إلى حران قال : وكان قد بلغني أن بها رجلاً يعرف علم الفرائض جيداً ، فلما كانت الليلة التي أريد في صبحتها أن أسافر جاءتني رسالة الشيخ عبد الله اليونيني فعزم عليّ إلى القدس الشريف ، فكأني كرهت ذلك وفتحت المصحف فطلع قوله تعالى : ﴿ **اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون** ﴾ .

قال : فخرجت معه إلى القدس ، فوجدت ذلك الحراني بالقدس فأخذت عنه علم الفرائض ، حتى خيل إليّ أني قد صرت أبرع منه فيه ......

وتوفي ليلة تاسع عشر رمضان سنة ثمان وخمسين وستمائة ببعلبك ودفن عند شيخه عبد الله اليونيني رحمة الله عليهما .

٧ ـ وذكر في « الذيل على طبقات الحنابلة » الجزء الثاني صفحة (٣٥٨) :

أحمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن مسعود بن عمر الواسطي الحزامي ، الزاهد القدوة العارف ، عماد الدين أبو العباس ابن شيخ الحزاميين .

ولد في حادي عشر أو ثاني عشر ذي الحجة سنة سبع وخمسين وستمائة بشرقي واسط وكان أبوه شيخ الطائفة الأحمدية ....

وكان الشيخ تقي الدين ابن تيمية يعظمه ويجله ويقول عنه : هو جنيد وقته وكتب إليه كتابا من مصر أوله (إلى شيخنا الإمام العارف القدوة السالك) .

قال البرزالي عنه في معجمه : رجل صالح عارف صاحب نسك وعبادة وانقطاع وعزوف عن الدنيا ، وله كلام متين في التصوف الصحيح ، وهو داعية إلى طريق الله تعالى ، وقلمه أبسط من عباراته ، واختصر السيرة النبوية ، وكان يتقوت من النسخ ، ولا يكتب إلا مقدار مايدفع به الضرورة ، وكان محبا لأهل الحديث معظما لهم وأوقاته محفوظة .

وقال الذهبي : كان سيدا عارفاً كبير الشأن ، منقطعا إلى الله تعالى وكان ينسخ بالأجرة ويتقوت ، ولا يكاد يقبل من أحد شيئاً إلا في النادر .

صنف أجزاء عديدة في السلوك والسير إلى الله تعالى ، وفي الرد على الاتحاديه والمبتدعة وكان داعية إلى السنة ومذهبه مذهب السلف الصالح في الصفات يمرها كما جاءت ، وقد انتفع به جماعة صحبوه ، ولاأعلم خلف بدمشق في طريقته مثله .

قلت : ومن تصانيفه « شرح منازل السائرين » ولم يتمه وله نظم حسن في السلوك . كتب عنه الذهبي والبرزالي وسمع منه جماعة من شيوخنا وغيرهم ، وكان له مشاركة جيدة في العلوم ، وعبارة حسنة قوية وفهم جيد وخط حسن في غاية الحسن وكان معمور الأوقات بالأوراد والعبادات والتصنيف والمطالعة والذكر والفكر ، مصروف العناية إلى المراقبة والمحبة والأنس بالله والبقاء به ، كثير اللهج بالأذواق والتجليات والأنوار القلبية ، منزوياً عن الناس ، لا يجتمع

إلا بمن يحبه ويحصل له باجتماعه به منفعة دينية .

٨ ـ وذكر في « الذيل على طبقات الحنابلة » الجزء الثاني صفحة (٣٦١) :

(**محمد بن أحمد** بن أبي النصر ابن الدباهي البغدادي الزاهد ، شمس الدين أبو عبد الله بن أبي العباس) .

ولد سنة ست ـ أو سبع ـ وثلاثين وستمائة ببغداد .

وصحب الشيخ يحي الصرصري وكان خال والدته ، والشيخ عبد الله كتيلة مدة ، وسافر معه ، وأجاز له التستري من ماردين ، وجاور بمكة عشر سنين ودخل الروم والجزيرة ومصر والشام ثم استوطن دمشق وتوفي بها .

قال الشيخ كمال الدين ابن الزملكاني عنه : شيخ صالح عارف زاهد كثير الرغبة في العلم وأهله ، والحرص على الخير والاجتهاد في العبادة ، تخلى من الدنيا وخرج عنها ولازم العبادة والعمل الدائم والجد ، واستغرق أوقاته في الخير ، وكان لديه فضل ، وعنده مشاركات جيدة في العلوم ، وله عبارة حسنة فيما يكتبه ، وطلب الفوائد الدينية ، متقشف ورع صلب في الدين مجانب لمن يخشى على دينه منه محب للصالحين وأهل الخير منقطع عن الناس مهيب يقوم الليل ويكثر الصوم ، ويطيل الصلاة بخشوع وإخبات واستغراق ويتلو القرآن العظيم ، لايرى خاليا من أفعال الخير وأعمال البر ويتصدق في السر وينصح الإخوان ويسعى في مصالحهم ويحسن القيام على عياله ويلازم الجماعات في الجامع ، ولا يغشى السلاطين ولا الولاة ولاأهل الدنيا إلا عند ضرورة دينية ، وكان يخشن مأكله وملبسه ، ويحب طريق السلف الصالح ، وإذا رآه إنسان عرف الجد في وجهه ، يقوم فيما يظهر له من الحق ويأمر بما يمكنه من المعروف ، وينهى عما يقدر على النهي عنه من المنكر ، ولم يزل كذلك حتى توفي .

قال البرزالي : أحد المشايخ العارفين الصالحين ، وله كلام حسن وجمع وتأليف وهو حسن الجملة عديم التكلف وافر الإخلاص متبع للسنة حسن المشاركة في العلم سيد من السادات .

وقال الذهبي : كان إماماً فقيه النفس عارفا بمعاملات القلوب ، صحب خلقاً من المشايخ ، وأخذ عنهم أخلاق القوم (١) وطريقهم وكان حسن المجالسة متبعا للسنة محذرا من البدعة كثير الطلب ترك أباه ونعمته وتجرد ودخل الروم والجزيرة والشام ومصر والحجاز يصحب بقايا الصوفية ويقتفي آثارهم وحفظ كثيراً عنهم وعن مشايخ الطريق ، وأنفق كثيراً من الأموال من ميراثه على الفقراء .

وقرأ الفقه في شبيبته على مذهب أحمد ، وجاور بالحرمين بضع عشرة سنة وتأهل وولد له فلما لمعت له أنوار شيخنا - يعني ابن تيمية - وظفر بأضعاف تطلبه ارتحل إلى دمشق بأهله واستوطنها .

علقت عنه أشياء من تأليفه خطبة بليغة وصحبته بضع عشرة سنة وسمعت منه جزءا بإجازته من التشتبري .

قلت : سمع منه البرزالي والذهبي وذكراه في معجميهما .

٩ - وذكر في « الذيل على طبقات الحنابلة » الجزء الثاني صفحة (١٣٣) :

عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة بن مقدام بن نصر عبد الله المقدسي ثم الدمشقي الصالحي الفقيه الزاهد الإمام شيخ الإسلام وأحد الأعلام موفق الدين أبو محمد ، أخو الشيخ أبي عمر المتقدم ذكره .

ولد في شعبان سنة إحدى وأربعين وخمسمائة بجماعيل .....

---

(١) أي السادة الصوفية رحمهم الله .

ورحل إلى بغداد هو وابن خالته الحافظ عبد الغني سنة إحدى وستين وسمعا الكثير من هبة الله الدقاق وابن البطي وسعد الله الدجاجي والشيخ عبد القادر وابن تاج الفراء ...... وغيرهم .

وأقام عند الشيخ عبد القادر[١] بمدرسته مدة يسيرة فقرأ عليه من الخرقي ثم توفي الشيخ فلازم أبا الفتح بن المني وقرأ عليه المذهب والخلاف والأصول حتى برع ......

وقال سبط ابن الجوزي : كان إماما في فنون ولم يكن في زمانه ـ بعد أخيه أبي عمر والعماد ـ أزهد ولا أورع منه ، وكان كثير الحياء عزوفاً عن الدنيا وأهلها هيناً ليناً متواضعاً محبا للمساكين حسن الأخلاق جوادا سخيا من رآه كأنه رأى بعض الصحابة ، وكأنما النور يخرج من وجهه ، كثير العبادة يقرأ كل يوم وليلة سُبعا من القرآن ولايصلي ركعتي السنة في الغالب إلا في بيته اتباعا للسنة وكان يحضر مجالسي دائما في جامع دمشق وقاسيون .

وقال أيضاً : شاهدت من الشيخ أبي عمر وأخيه الموفق ونسيبه العماد مانرويه عن الصحابة والأولياء الأفراد ، فأنساني حالهم أهلي وأوطاني ثم عُدْتُ إليهم على نية الإقامة عسىٰ أن أكون معهم في دار المقامة .

وقال ابن النجار : كان الشيخ موفق الدين إمام الحنابلة بالجامع ، وكان ثقة حجة نبيلا غزير الفضل كامل العقل شديد التثبت دائم السكوت حسن السمت نزها ورعا عابدا على قانون السلف على وجهه النور ، وعليه الوقار والهيبة ، ينتفع الرجل برؤيته قبل أن يسمع كلامه ، صنف التصانيف المليحة في المذهب والخلاف وقصده التلامذة والأصحاب وسار اسمه في البلاد واشتهر

---

(١) الإمام الرباني والقطب الصمداني الشيخ عبد القادر الجيلاني إليه مرجع سلاسل الطريقة القادرية .

ذكره ، وكان حسن المعرفة بالحديث وله يد في علم العربية .

وقال عمر بن الحاجب الحافظ في معجمه : هو إمام الأئمة ومفتي الأمة خصه الله بالفضل الوافر والخاطر الماطر والعلم الكامل طنت في ذكره الأمصار وضنت بمثله الأعصار ، وقد أخذ بمجامع الحقائق النقلية والعقلية ، فأما الحديث فهو سابق فرسانه وأما الفقه فهو فارس ميدانه وأعرف الناس بالفتيا ، وله المؤلفات الغزيرة ومأظن الزمان يسمح بمثله . متواضع عند الخاصة والعامة حسن الاعتقاد ذو أناة وحلم ووقار ، وكان مجلسه عامرا بالفقهاء والمحدثين وأهل الخير وصار في آخر عمره يقصده كل أحد ، وكان كثير العبادة دائم التهجد لم يُر مثله ولم يَر مثل نفسه .

وبلغني من غير وجه عن الإمام أبي العباس ابن تيمية رحمه الله تعالى أنه قال : مادخل الشام - بعد الأوزاعي - أفقه من الشيخ الموفق .

وقد أفرد الحافظ الضياء سيرة الشيخ في جزئين وكذلك أفردها الحافظ الذهبي .

قال الضياء : وكان شيخنا العماد يعظم الشيخ الموفق تعظيما كثيراً ويدعو له ويقعد بين يديه كما يقعد المتعلم من العالم .

سمعت الإمام المفتي شيخنا أبا بكر محمد بن معالي بن غنيمة ببغداد يقول : ما أعرف أحدا في زماني أدرك درجة الاجتهاد إلا الموفق .

وسمعت أبا عمرو بن الصلاح المفتي يقول : مارأيت مثل الشيخ الموفق .

وقال الشيخ عبد الله اليونيني : ماأعتقد أن شخصاً ممن رأيته حصل له من الكمال في العلوم والصفات الحميدة التي يحصل بها الكمال سواه ، فإنه رحمه الله كان كاملاً في صورته ومعناه من الحسن والإحسان والحلم والسؤدد والعلوم المختلفة والأخلاق الجميلة والأمور التي مارأيتها كملت في غيره ، وقد رأيت من

كرم أخلاقه وحسن عشرته ووفور حلمه وكثرة علمه وغزير فطنته وكمال مروءته وكثرة حيائه ودوام بشره وعزوف نفسه عن الدنيا وأهلها والمناصب وأربابها ماقد عجز عنه كبار الأولياء ......

قال سبط ابن الجوزي : حكى أبو عبد الله بن فضل الأعتاكي قال : قلت في نفسي لو كان لي قدرة لبنيت للموفق مدرسة وأعطيته كل يوم ألف درهم ، قال : فجئت بعد أيام فسلمت عليه فنظر إليَّ وتبسم ، وقال : إذا نوى الشخص نية كتب له أجرها .

وحكى أبو الحسن بن حمدان الجرائحي قال : كنت أبغض الحنابلة لما شنع عليهم من سوء الاعتقاد فمرضت مرضاً شنج أعضائي وأقمت سبعة عشر يوماً لاأتحرك وتمنيت الموت ، فلما كان وقت العشاء جاءني الموفق وقرأ عليَّ آيات وقال : ﴿ **وننزل من القرآن ماهو شفاء للناس ورحمة للمؤمنين** ﴾ ومسح على ظهري فأحسست بالعافية وقام ، فقلت : ياجارية افتحي له الباب ، فقال : أنا أروح من حيث جئت وغاب عن عيني فقمت من ساعتي إلى بيت الوضوء فلما أصبحت دخلت الجامع فصليت الفجر خلف الموفق وصافحته فعصر يدي وقال : احذر أن تقول شيئاً فقلت : أقول وأقول .

وقال قوّام جامع دمشق : كان ليلة يبيت في الجامع فتفتح له الأبواب فيخرج ويعود فتغلق على حالها .

وحدث العفيف كتائب بن أحمد بن مهدي البانياسي ـ بعد موت الشيخ الموفق بأيام ـ وقال : رأيت الشيخ الموفق على حافة النهر يتوضأ فلما توضأ أخذ قبقابه ومشى على الماء إلى الجانب الآخر ، ثم لبس القبقاب وصعد إلى المدرسة ـ يعني مدرسة أخيه أبي عمر ـ ثم حلف كتائب بالله : لقد رأيته ومالي في الكذب حاجة وكتمت ذلك في حياته فقيل له : هل كانت رجلاه تغوص في الماء ؟ قال : لا إلا كأنه يمشي على وطاء ، رحمه الله .

وقرأت بخط الذهبي : سمعت رفيقنا أبا طاهر أحمد الدريبي سمعت الشيخ إبراهيم بن أحمد بن حاتم ـ وزرت معه قبر الشيخ الموفق ـ فقال : سمعت الفقيه محمد اليونيني شيخنا يقول : رأيت الشيخ الموفق يمشي على الماء .

صنف الشيخ الموفق رحمه الله التصانيف الكثيرة الحسنة في المذهب فروعاً وأصولا وفي الحديث واللغة والزهد والرقائق وتصانيفه في أصول الدين في غاية الحسن أكثرها على طريقة أئمة المحدثين مشحونة بالأحاديث والآثار بالأسانيد كما هي طريقة الإمام أحمد وأئمة الحديث ......

وانتفع بتصانيفه المسلمون عموماً وأهل المذهب خصوصاً ، وانتشرت واشتهرت بحسن قصده وإخلاصه في تصنيفها ، ولاسيا كتاب « المغني » فإنه عظم النفع به وأكثر الثناء عليه .

قال الحافظ الضياء : رأيت الإمام أحمد بن حنبل في النوم وألقى عليَّ مسألة في الفقه فقلت : هذه في الخرقي ، فقال : ماقصر صاحبكم الموفق في شرح الخرقي .

وقرأت بخط الحافظ الدبيثي قال : سمعت الشيخ علاء الدين المقدسي ـ قلت وقد أجاز لي المقدسي هذا ـ قال : سمعت شيخنا أبا العباس ابن تيمية ـ قال الذهبي وأظنني سمعت من شيخنا ابن تيمية ـ يقول : قال لي الشيخ تاج الدين عبد الرحمن بن إبراهيم القزازي : كان الشيخ عز الدين ابن عبد السلام شيخنا يرسلني أستعير له المحلى والمجلَّى من ابن عربي وقال : قال الشيخ عز الدين : مارأيت في كتب الإسلام في العلم مثل المحلى والمجلى وكتاب « المغني » للشيخ موفق الدين بن قدامة في جودتها وتحقيق مافيها .

توفي رحمه الله يوم السبت يوم عيد الفطر سنة عشرين وستمائة بمنزله بدمشق وصلي عليه من الغد وحمل إلى سفح قاسيون فدفن به وكان له جمع

عظيم امتد الناس في طرق الجبل فملؤوه .

قال أبو المظفر سبط ابن الجوزي : حكى إسماعيل بن حماد الكاتب البغدادي قال : رأيت ليلة عيد الفطر كأن مصحف عثمان قد رفع من جامع دمشق إلى السماء فلحقني غم شديد فتوفي الموفق يوم العيد .

قال : ورأى أحمد بن سعد ـ أخو محمد بن سعد الكاتب المقدسي ـ وكان أحمد هذا من الصالحين ـ قال رأيت ليلة العيد ملائكة ينزلون من السماء جملة وقائل يقول : « انزلوا بالنوبة » فقلت : ماهذا ؟ قالوا : ينقلون روح الموفق الطيبة في الجسد الطيب .

قال : وقال عبد الرحمن بن محمد العلوي : رأيت كأن النبي ﷺ مات وقبر بقاسيون يوم عيد الفطر ، قال : وكنا بجبل بني هلال فرأينا على قاسيون ليلة العيد ضوءا عظيماً ، فظننا أن دمشق قد احترقت وخرج أهل القرية ينظرون إليه ، فوصل الخبر بوفاة الموفق يوم العيد ودفن بقاسيون رحمه الله .

١٠ ـ وذكر في « الذيل على طبقات الحنابلة » الجزء الثاني صفحة (٥٢) :

محمد بن أحمد بن محمد بن قدامة بن مقدام بن نصر بن عبد الله الجماعيلي المقدسي ثم الدمشقي الصالحي الزاهد العابد الشيخ أبو عمر .

قال ابن أخته الحافظ ضياء الدين : مولده سنة ثمان وعشرين وخمسمائة .

قال أبو الفرج بن الحنبلي : حفظ الشيخ القرآن وقرأه بحرف أبي عمرو . وسمع الحديث من والده وأبي المكارم بن هلال وأبي تميم سلمان ابن الرحبي وغيرهم كثير ...... وخرج له الحافظ عبد الغني المقدسي أربعين حديثاً من رواياته وحدث بها .

وسمع منه جماعة منهم : الضياء والمنذري وروى عنه ابن خليل وولده أبو الفرج عبد الرحمن قاضي القضاة وحفظ منه مختصر الخرقي في الفقه .....

قال الحافظ الضياء : وكان الله قد جمع لـه معرفـة الفقـه والفرائض والنحو مع الزهد والعمل وقضاء حوائج الناس .

قال : وكان لايكاد يسمع دعاء إلا حفظه ودعـا بـه ولايسمع ذكر صلاة إلا صلاها ولايسمع حديثاً إلا عمل به ، وكان يصلي بالناس في نصف شعبان مائـة ركعة وهو شيخ كبير وكأنه أنشط الجماعـة ، وكان لايترك قيـام الليل من وقت شبوبته ، وسافر هو وجماعـة فقـام في الليل يصلي ويحرس الجمـاعـة وقلل الأكل في مرضه قبل موته حتى عاد كالعود ومات وهو عاقد على أصابعه يسبح .

وقال : وحـدثت عن زوجتـه قـالت : كان يقوم الليل فـإذا جـاءه النوم ، عنده قضيب يضرب به على رجليه فيذهب عنه النوم .

قال وكان كثير الصيام سفراً وحضراً .

قال ولده عبد الله : إنه في آخر عمره سرد الصوم فلامـه أهلـه فقـال : إنمـا أصـوم أغتنم أيـامي لأني إن ضعفت عجـزت عن الصـوم وإن مت انقطـع عملي وكان لا يكاد يسمـع بجنـازة إلا حضرهـا ، ولابمريض إلا عـاده ، ولاجهـاد إلا خرج فيه وكان يقرأ في الصلاة كل ليلـة سُبعـاً مرتلا ، ويقرأ سُبعـاً بين الظهر والعصر ، فإذا صلى الفجر قرأ آيات الحرس بعد أن يفرغ من التسبيح وكان قد كتب في ذلـك كراسـة وهى معلقـة في المحراب ، وربمـا قرأ فيهـا خـوفـاً من النعاس ، ثم يقرأ ويلقن إلى ارتفاع النهـار ، ثم يصلي الضحى صلاة طويلـة ، وكان يسجـد سجـدتين طويلتين إحـداهمـا في الليل والأخرى في النهـار يطيل فيهما السجود ، ويصلي بعـد أذان الظهر قبل سنتهـا في كل يوم ركعتين ، يقرأ في الأولى أول « المؤمنون » وفي الثانية آخر « الفرقان » وكان يصلي بين المغرب

والعشاء أربع ركعات يقرأ فيهن السجدة ويٰسٓ وتبارك والدخان ، ويصلي كل ليلة جمعة بين العشائين صلاة التسبيح ويطليها ، ويصلي يوم الجمعة ركعتين بمائة ﴿ **قل هو الله أحد** ﴾ وكان يصلي في كل يوم وليلة اثنتين وسبعين ركعة نافلة وله أوراد كثيرة ، وكان يزور القبور كل جمعة بعد العصر ولا ينام إلا على وضوء ، ويحافظ على سنن وأذكار عند نومه من التسبيح والتكبير والتحميد وقراءة تبارك وغيرها من القرآن ، ويقول بين سنة الفجر والفرض أربعين مرة : « ياحي ياقيوم لا إله إلا أنت » ....

وكان يقول : لاعلم إلا مادخل مع صاحبه القبر ......

وكان إذا خطب ترق القلوب ويبكي بعض الناس بكاءً كثيراً ، وكان له هيبة عظيمة في القلوب حتى كان أحد الطلبة يريد أن يسأله عن شيء فما يجسر أن يسأله وإذا دخل المسجد سكتوا وخفضوا أصواتهم ، وإذا عبر في الطريق والصبيان يلعبون هربوا وإذا أمر بشيء لايجسر أحد أن يخالفه ......

واحتاج الناس في سنة إلى المطر فطلع معهم إلى مغارة الدم ومعه نساء من محارمه واستسقى ودعا فجاء المطر حينئذ وجرت الأودية شيئاً لم يره الناس من مدة ، وله كرامات كثيرة .

وذكر بعضهم قال : جئنا مرة إلى عنده ونحن ثلاثة أنفس جياع فقدم إلينا سُكرُجة فيها لبن وكسيرات فأكلنا وشبعنا وأنا أنظر إليها كأنها لم تنقص .

قال الضياء وسمعت الإمام محمد بن أبي بكر بن عمر يقول : دعاني الشيخ مرة وكنت أخاف من ضرر الأكل فابتدأني وقال : إذا قرأ الإنسان قبل الأكل ﴿ **شهد الله أنه لاإله إلا هو** ﴾ و﴿ **لإيلاف قريش** ﴾ ثم أكل فإنه لا يضره .

وسمعت الإمام أبا بكر عبد الله بن الحسن بن النحاس يقول : كان والدي يحب الشيخ أبا عمر فقال لي يوم جمعة : أنا أصلي الجمعة خلف الشيخ ومذهبي

أن ﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم** ﴾ من الفاتحة ، ومذهبه أنها ليست من الفاتحة ، وأخاف أن يكون في صلاتي شيء فمضينا إلى المسجد فوجدنا الشيخ فسلّم على والدي وعانقه ثم قال : ياأخي صلِّ وأنت طيب القلب فإنني ماتركت ﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم** ﴾ في نافلة ولافريضة منذ أممت بالناس فالتفت إليَّ والدي وقال : احفظ .

وكان بعض الناس يرسل إلى الشيخ في كل سنة شيئاً فيقبله ، فأرسل إليه مرة دينارين فردهما ، فتألم ثم فكر فيهما فوجدهما من جهة غير طيبة ، قال : فبعث إليه غيرهما فقبلهما .

قال الضياء : وسمعت أحمد بن عبد الملك بن عثمان قال : جاء رجلان إلى الشيخ أبي عمر فقالا له : إن قراحاً قد أخذ فلاناً وحبسه فادع عليه ، فباتا عند الشيخ فلما كان من الغد قال : قضيت الحاجة ، وإذا جنازة قراح عابرة .

وأطال الضياء ترجمة الشيخ أبي عمر ، وكذلك أبو المظفر سبط ابن الجوزي في المرآة وقال : كان معتدل القامة حسن الوجه عليه أنوار العبادة ، لايزال مبتسماً نحيل الجسم من كثرة الصيام والقيام .

وكان أخوه الموفق يقول عنه : هو شيخنا ربانا وأحسن إلينا وعلمنا وحرص علينا وكان للجماعة كالوالد يقوم بمصالحهم ...... وكان يؤثرنا ويدع أهله محتاجين ، وبنى المدرسة والمصنع بعلو همته ، وكان مجاب الدعوة وماكتب لأحد ورقة للحمى إلا شفاه الله تعالى .

قال أبو المظفر : وكراماته كثيرة وفضائله غزيرة ...... قال : وأصابني قولنج عاينت منه شدة فدخل عليَّ أبو عمر وبيده خروب شامي مدقوق ، فقال : استف هذا وكان عندي جماعة فقالوا : هذا يزيد القولنج ويضره ، فما التفت إلى قولهم فأخذته من يده فأكلته ، فبرأت في الحال .

قال : وحكى الجمال البصراوي الواعظ قال : أصابني قولنج في رمضان فاجتهدوا في أن أفطر ، فلم أفعل وصعدت إلى قاسيون فقعدت موضع الجامع اليوم ، وإذا بالشيخ أبي عمر قد أقبل من الجبل وبيده حشيشة فقال : شم هذه تنفعك فأخذتها وشممتها فبرأت .

وقرأت بخط الناصح ابن الحنبلي : كان أبو عمر فقيهاً زاهداً عابداً كتب بخطه كثيراً من كتب الحديث والفقه على مذهب الإمام أحمد ، وكتاب « المغني » لأخيه وكان مع ذلك له أوراد من الصلاة والتلاوة يقوم بها ، وحج وغزا وكان شيخ جماعته مطاعاً فيهم محترماً عند نور الدين محمود بن زنكي وزاره وبنى لهم في الجبل مسجداً وسقاية .

وقال غيره : له آثار جميلة منها : مدرسة بالجبل ، وهي وقف على القرآن والفقه ، وقد حفظ القرآن فيها أمم لا يحصون .

وذكر جماعة : أن الشيخ أبا عمر قطب ، وأقام « قطب الوقت » قبل موته ست سنين .

وقال أبو المظفر : كان على مذهب السلف الصالح حسن العقيدة متمسكاً بالكتاب والسنة والآثار المروية وغيرها كما جاءت من غير طعن على أئمة الدين وعلماء المسلمين وينهى عن صحبة المبتدعين ويأمر بصحبة الصالحين .....

وتوفي رحمه الله تعالى وغسل في السحر ، ومن وصل إلى الماء الذي غسل به نشف به النساء مقانعهن والرجال عمائمهم ، ولم يتخلف عن جنازته أحد من القضاة والعلماء والأمراء والأعيان وعامة الخلق ، وكان يوماً مشهوداً .

ولما خرجوا بجنازته من الدير كان يوماً شديد الحر ، فَأقبلت غمامة فأظلت الناس إلى قبره ، وكان يسمع منها دويّ كدوي النحل ، ولولا المبارز المعتمد والشجاع بن محارب وشبل الدولة الحسامي ما وصل إلى قبره من كفنه شيء

وإنما أحاطوا به بالسيوف والدبابيس .

وكان قبل وفاته بليلة رأى إنسان كأن قاسيون قد وقع أو زال من مكانه فأولوه بموته .

ولما دفن رأى بعض الصالحين في منامه تلك الليلة النبي ﷺ وهو يقول : من رأى أبا عمر ليلة الجمعة فكأنما رأى الكعبة ، فاخلعوا نعالكم قبل أن تصلوا إليه .

ومات عن ثمانين سنة ، ولم يخلف ديناراً ولا درهماً ولا قليلاً ولاكثيراً وقال غيره : حزر من حضر جنازته فكانوا عشرين ألفا .

وذكر أيضاً عن عبد المولى بن محمد : أنه كان يقرأ عند قبر الشيخ سورة البقرة ، وكان وحده فبلغ إلى قوله تعالى : ﴿ **لافارض ولابكر** ﴾ قال : فغلطت ، فرد عليَّ الشيخ من القبر ، وقال : فخفت وفزعت وارتعدت وقمت ، ثم مات القارىء بعد ذلك بأيام ، وهذه الحكاية مشهورة .

قال : وقرأ بعضهم عند قبره سورة الكهف فسمع من القبر يقول : لاإله إلا الله وذكر له عدة منامات .

وقال أبو شامة في مذيله : أول ماوقفت على قبره وزرته وجدت ـ بتوفيق الله تعالى عز وجل ـ رقة عظيمة وبكاءً صالحاً ، وكان معي رفيق لي وهو الذي عرفني قبره وجد أيضاً مثل ذلك ......

وكان والده الشيخ أبو العباس أحمد خطيب جماعيل رجلاً صالحاً زاهداً عابداً صاحب كرامات وأحوال وعبادات ومجاهدات ، قرأ في رمضان خمساً وستين ختمة ، وكان عليه مهابة عظيمة لايراه أحد إلا قبّل يده .

قال أبو الفرج ابن الحنبلي : كان له قدم في العبادة والصلاح ، سمعت

والدي يقول : لوكان نبي يبعث في زمان الشيخ أحمد بن محمد بن قدامة كان هو ، وقد حدث وروى عنه ولداه أبو عمر والموفق .

١١ ـ وذكر في « الذيل على طبقات الحنابلة » الجزء الثاني صفحة (٣٠٤) :

عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن قدامة المقدسي الجماعيلي الأصل الصالحي الفقيه الإمام الزاهد الخطيب قاضي القضاة شيخ الإسلام شمس الدين أبو محمد وأبو الفرج ابن الشيخ أبي عمر ....

وكان معظماً عند الخاص والعام عظيم الهيبة لدى الملوك وغيرهم كثير الفضائل والمحاسن متين الديانة والورع .

وقد جمع المحدث إسماعيل بن الخباز ترجمته وأخباره في مائة وخمسين جزءاً وبالغ ، وبقى كلما أثني عليه بنعت من الفقه أو الزهد أو التواضع سرد ماورد في ذلك بأسانيده الطويلة الثقيلة ....

وقال الذهبي في معجم شيوخه في ترجمة شمس الدين : شيخ الحنابلة بل شيخ الإسلام وفقيه الشام وقدوة العبادة وفريد وقته ، من اجتمعت الألسن على مدحه والثناء عليه ، حدث نحوا من ستين سنة وكتب عنه أبو الفتح بن الحاجب .

قال الذهبي : وكان الشيخ محي الدين ـ يعني النووي ـ يقول : هذا أجل شيوخي . قلت : وروى عنه الشيخ محي الدين في كتاب « الرخصة في القيام » له ، وقال حدثنا الشيخ الإمام العالم المتفق على إمامته وفضله وجلالته الفقيه أبو محمد عبد الرحمن بن الشيخ الإمام العالم العامل الزاهد أبي عمر المقدسي رضي الله عنه .

قال الذهبي : وروى عنه أيضاً الشيخ زين الدين أحمد بن عبد الدائم وهو أكبر منه وأسند وذكره في تاريخه الكبير وأطال ترجمته وذكر فضائله وعبادته

وأوراده وكرمه ونفعه العام وأنه حج ثلاث مرات فكان آخرها : قد رأى النبي ﷺ في المنام يطلبه فحج ذلك العام وحضر الفتوحات ، وأنه كان رقيق القلب سريع الدمعة كريم النفس كثير الذكر لله والقيام بالليل محافظاً على صلاة الضحى ويصلي بين العشائين ماتيسر ، ويؤثر بما يأتيه من صلة الملوك وغيرهم ، وكان متواضعاً عند العامة مترفعاً عند الملوك وكان مجلسه عامراً بالفقهاء والمحدثين وأهل الدين ، وأوقع الله محبته في قلوب الخلق ، ولم يكن في زمانه من يصلي أحسن منه ولاأتم خشوعاً ، كان كثير الدعاء والابتهال لاسيما في الأماكن المرجو فيها الإجابة وبعد قراءة آيات الحرس بالجامع بعد العشاء كثير الاهتمام بأمور الناس ، لايكاد يعلم بمريض إلا افتقده ، ولامات أحد من أهل الجبل إلا شيعه .

وقال البرزالي في تاريخه : كان الشيخ شيخ الوقت وبركة العصر ولي الحكم والخطابة والمشيخة والتدريس مدة طويلة ....

وقال اليونيني في تاريخه : شيخ الإسلام علما وزهداً وورعاً وديانة وأمانة كبير القدر جم الفضائل .... وكان أوحد زمانه في تعدد الفضائل والتفرد بالمحامد ، ولم يكن له نظير في خُلقه ورياضته وماهو عليه ، وانتفع به خلق كثير وكان على قدم السلف الصالح في معظم أحواله .

اشتغل على الشيخ شمس الدين رحمه الله خلق كثير .

وممن أخذ عنه العلم : الشيخ تقي الدين ابن تيمية والشيخ مجد الدين إسماعيل بن محمد الحراني وكان يقول : مارأيت بعيني مثله ....

قال الذهبي : ورأيت وفاة الشيخ شمس الدين بن أبي عمر بخط شيخنا شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية فمن ذلك : « توفي شيخنا الإمام سيد أهل الإسلام في زمانه وقطب فلك الأنام في أوانه وحيد الزمان حقا حقا وفريد

العصر صدقا صدقا الجامع لأنواع المحاسن والمعافى البريء عن جميع النقائص والمساوئ القارن بين خلتي العلم والحلم والحسب والنسب والعقل والفضل والخُلق والخَلق ذي الأخلاق الزكية والأعمال المرضية مع سلامة الصدر والطبع واللطف والرفق وحسن النية وطيب الطوية حتى أن كان المتعنت ليطلب له عيباً فيعوزه - إلى أن قال : وبكت عليه العيون بأسرها وعم مصابه جميع الطوائف وسائر الفرق فأي دمع ماانسجم وأي أصلٍ ما جذم ، وأي ركن ماهدم وأي فضل ماعدم ، ياله من خَطب ماأعظمه وأجل ماأقدره ومصاب ماأقحَمه ؟ وأكبر ذكره .

١٢ - وذكر في « الذيل على طبقات الحنابلة » الجزء الثاني صفحة (٣٢٩):

إبراهيم بن علي بن أحمد بن فضل الواسطي الصالحي الفقيه الزاهد العابد شيخ الإسلام بركة الشام قطب الوقت تقي الدين أبو إسحاق ...

قال الذهبي : قرأت بخط العلامة كمال الدين بن الزملكاني في حقه : كان كبير القدر له وقع في القلوب وجلالة ، ملازم للتعبد ليلاً ونهاراً ، قائم بما يعجز عنه غيره مبالغ في إنكار المنكر بائع نفسه فيه .....

وقال البرزالي : تفرد بعلو الإسناد وكثرة الرواية والعبادة ولم يخلق مثله .

١٣ - وذكر في « الذيل على طبقات الحنابلة » الجزء الثاني صفحة (٣٥١):

علي بن مسعود بن نفيس بن عبد الله الموصلي ثم الحلبي الصوفي المحدث الحافظ الزاهد أبو الحسن نزيل دمشق ......

وعني بالحديث عناية تامة ، وكانت قراءته مفسرة حسنة وحصل الأصول وكان يجوع ويشتري الأجزاء ، ويتعفف ويقنع بكسرة فيسوء خلقه مع التقوى والصلاح وكان فقيهاً على مذهب أحمد ينقل منه ، ووقف كتبه وأجزاءه وحدث وسمع منه الذهبي وجماعة .

وتوفي في صفر سنة أربع وسبعمائة بالمارستان الصغير بدمشق وحمل إلى سفح قاسيون ، فدفن به مقابل زاوية ابن قوام ، وشيعه الشيخ تقي الدين ابن تيمية وجماعة رحمه الله تعالى .

١٤ ـ وذكر في « الذيل على طبقات الحنابلة » الجزء الثاني صفحة (٣٥٣):

محمد بن عبد الله بن عمر بن أبي القاسم البغداد المقريء المحدث الصوفي الكاتب رشيد الدين أبو عبد الله بن أبي القاسم ......

وعني بالحديث وسمع الكتب الكبار والأجزاء وكتب بخطه الأجزاء والطباق وكثيراً من الكتب المطولة وخطه في غاية الحسن وخرج لنفسه سباعيات ضعيفة من طريق « خراش » ونحوه ، وكان عالماً صالحاً من محاسن البغداديين وأعيانهم ، ذا لطف وسهولة وحسن أخلاق ومن أجلاء العدول .

ولي مشيخة رباط الأجوانية بدرب راخي ببغداد ، ومشيخة دار الحديث المستنصرية ، ولبس خرقة التصوف من السهروردي ، وحدث بالكثير ، وسمع منه خلق من أهل بغداد والرحالين ، وانتهى إليه علو الإسناد ، سمعنا من جماعة من أصحابه ببغداد ودمشق .

١٥ ـ وذكر في « الذيل على طبقات الحنابلة » الجزء الثاني صفحة (٣٨٢):

عبد الله بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن الخضر ابن محمد بن تيمية الحراني ثم الدمشقي ، الفقيه الإمام الزاهد العابد القدوة المتفنن شرف الدين أبو محمد ، أخو الشيخ تقي الدين .... وكان صاحب صدق وإخلاص قانعاً باليسير شريف النفس شجاعاً مقداماً مجاهداً زاهداً عابداً ورعاً يخرج من بيته ليلاً ويأوي إليه ليلاً ، ولا يجلس في مكان معين بحيث يقصد فيه ، لكنه يأوي إلى المساجد المهجورة خارج البلد فيختلي فيها للصلاة والذكر ، وكان كثير العبادة والتأله والمراقبة والخوف من الله تعالى ذا كرامات وكشوف .

ومما اشتهر عنه أنه كثير الصدقات والإيثار بالذهب والفضة في حضره وسفره مع فقره وقلة ذات يده ، وكان رفيقه في المحمل في الحج يفتش رحله فلا يجد فيه شيئاً ثم يراه يتصدق بذهب كثير جداً ، وهذا أمر مشهور معروف عنه ، وحج مرات متعددة ....

وذكره الذهبي في المعجم المختصر فقال : كان بصيرا بكثير من علل الحديث ورجاله فصيح العبارة عالماً بالعربية .....

وذكره أيضاً في معجم شيوخه فقال : كان إماماً بارعاً فقيهاً عارفاً بالمذهب وأصوله وأصول الديانات عارفاً بدقائق العربية وبالفرائض والحساب والهيئة ...... وكان حلو المحاضرة متواضعاً كثير العبادة والخير ذا حظ من صدق وإخلاص وتوجه وعرفان وانقطاع بالكلية عن الناس قانعاً بيسير اللباس ا هـ .

توفي بدمشق وصلي عليه الظهر بالجامع وحمل إلى باب القلعة فصلي عليه هناك مرة أخرى وصلى عليه أخوه الشيخ تقي الدين وزين الدين عبد الرحمن وهما محبوسان بالقلعة وخلق معهما من داخل القلعة وكان التكبير يبلغهم وكثر البكاء تلك الساعة فكان وقتاً مشهوداً ، ثم صلي عليه مرة ثالثة ورابعة وحمل على الرؤوس والأصابع إلى مقابر الصوفية فدفن بها وحضر جنازته جمع كثير وعالم عظيم وكثر الثناء والتأسف عليه رحمه الله .

١٦ ـ وذكر في « الذيل على طبقات الحنابلة » الجزء الثاني صفحة (٣٤٩):

إبراهيم بن أحمد بن محمد بن معالي بن محمد بن عبد الكريم الرقي الزاهد العالم القدوة الرباني أبو إسحاق ......

قال الذهبي : كان إماماً زاهداً عارفاً قدوة سيد أهل زمانه ، له التصانيف الكثيرة في الوعظ ، والطريق إلى الله تعالى (منها : « أحاسن المحاسن »

في الوعظ ، اختصره من صفوة الصفوة قاله في كشف الظنون) ، والآثار والخطب ، وله النظم الرائق ، يستحق أن تطوي إلى لقياه مراحل وكان كلمة إجماع ، وكان ربما حضر السماع وتواجد .

وله اعتقاد في سليمان الكلاب ـ يعني رجلاً كان يخالط الكلاب ولا يصلي ـ وكان يغلط فيه وله يد طولى في علوم كثيرة ، ولقد كتب شيخنا كمال الدين ـ يعني ابن الزملكاني ـ في شأنه وبالغ وأحسن ترجمته .

١٧ ـ وذكر في « الذيل على طبقات الحنابلة » الجزء الثاني صفحة (٣٣٨):

عبد العزيز بن أبي القاسم بن عثمان بن عبد الوهاب البابصري الفقيه الأديب الصوفي عز الدين أبو محمد ، نزيل دمشق ....

قال الذهبي : سكن دمشق وأقام بالخانقاه وكان فقيهاً عالماً صالحاً . وقال في تاريخه : كان عارفاً بالفقه بصيراً بالأدب والشعر وأيام الناس ضعف بصره وطلب من الجماعة أن يسمعوا منه شيئاً لتناله بركة الحديث .

١٨ ـ وذكر في « الذيل على طبقات الحنابلة » الجزء الثاني صفحة (٢٨٢):

علي بن محمد بن محمد بن أبي سعد بن وضاح الشهراياني ثم البغدادي الفقيه المحدث الزاهد الكاتب كمال الدين أبو الحسن بن أبي بكر ...... وهو أحد المكثرين في الرواية فإنه سمع الكثير من الكتب الكبار والأجزاء بقراءته وقراءة غيره وخرج وصنف مصنفات ....

وسمع من الشيخ العارف علي بن إدريس اليعقوبي ولبس منه الخرقة وانتفع به وسمع بأربل وغيرها .

وحدث الشيخ بالكثير وسمع منه خلق وروى عنه ابن حصين الفخري والحافظ الدمياطي في معجمه ......

قال شيخنا صفي الدين : وكانت جنازته إحدى الجنائز المشهورة ، اجتمع لها عالم لايحصى وغلقت الأسواق يومئذ ، وشد تابوته بالحبال ، وحمله الناس على أيديهم وصلي عليه بالمحال البرانية ودفن بحضرة قبر الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه مقابل رجليه .

١٩ ـ وذكر في « الذيل على طبقات الحنابلة » الجزء الثاني صفحة (٢٨٤):

علي بن عثمان بن عبد القادر بن محمد بن يوسف بن الوجوهي البغدادي المقرئ الصوفي الزاهد شمس الدين أبو الحسن أحد أعيان أهل بغداد في زمنه ....

وقرأ بالروايات على الفخر الموصلي صاحب ابن سعدون القرطبي ، وسمع الحديث من ابن روزبة والسهروردي وغيرهما ، وكان بصيراً بالقرآن متحققاً بالأداء ديناً خيراً صالحاً ......

أنبأني غير واحد عن الظهر بن الكازروني قال : حكى لي الشيخ رشيد الدين بن أبي القاسم : إن العدل محب الدين مصدق حدثه قال : رأيت ابن الوجوهي بعد موته فقلت : مافعل الله بك ؟ فقال : نزلا عليَّ وأجلساني وسألاني ، فقلت : ألمثل ابن الوجوهي يقال ذلك ؟ فأضجعاني ومضيا ، رحمه الله .

٢٠ ـ وذكر في « الذيل على طبقات الحنابلة » الجزء الثاني صفحة (٢٨٠):

يوسف بن علي بن أحمد بن البقال البغدادي الصوفي ، عفيف الدين أبو الحجاج شيخ رباط المرزبانية .

كان صالحاً عالماً ورعاً زاهداً ، له تصانيف في السلوك منها كتاب « سلوك الخواص » أجاز لشيخنا على بن عبد الصمد البغدادي .

٢١ ـ وذكر في « الذيل على طبقات الحنابلة » الجزء الثاني صفحة (٢٧٧):

أبو القاسم بن يوسف بن أبي القاسم بن عبد السلام الأموي الحوارى الصوفي الزاهد المشهور ـ صاحب الزاوية بحوارى ـ .

كان خيرا صالحا له أتباع وأصحاب ومريدون في كثير من قرايا حوران في الجبيل والثبنية ولايحضرون سماعاً بدف .

٢٢ ـ وذكر في « الذيل على طبقات الحنابلة » الجزء الثاني صفحة (٢٦٣):

وممن قتل في تلك السنة ببغداد من أصحابنا الصالحين الشيخ الزاهد العابد أبو الحسن علي بن سليمان بن أبي العز الخباز .

وكان زاهداً صالحاً كبير القدر قدوة وله أتباع ومريدون ، وله زاوية ببغداد وأحوال وكرامات .

قال الذهبي : كان شيخنا الدباهي يصفه ويعظمه ، وكان قد سمع من الشيخ علي بن أبي بكر بن إدريس اليعقوبي الزاهد أيضاً وحدث عنه . وسمع منه الدمياطي وحدث عنه في معجمه ، وقال : قتل شهيداً في وقعة التتر في محرم سنة ست وخمسين وستمائة ، ويقال إنه ألقي على باب زاويته علىمزبلة ثلاثة أيام حتى أكلت الكلاب من لحمه وأنه كان قد أخبر عن نفسه بذلك في حياته رضي الله عنه .

وكان المستنصر بالله يزوره ويرسل الشيخ محمد الركاب دار يأتيه من خبزه فَيَسْتشفِي به .

٢٣ ـ وذكر في « الذيل على طبقات الحنابلة » الجزء الثاني صفحة (٢٦٢):

يحيى بن يوسف بن يحيى بن منصور بن المعمر بن عبد السلام الأنصاري الصرصري الزريراني الضرير الفقيه الأديب اللغوي الشاعر الزاهد جمال الدين

أبو زكريا ، شاعر العصر وصاحب الديوان السائر في الناس في مدح النبي صلى الله عليه وسلم .

كان حسان وقته ولد في سنة ٥٨٨ هـ وقرأ القرآن بالروايات على أصحاب ابن عساكر البطايحي ، وسمع الحديث من الشيخ علي بن إدريس اليعقوبي الزاهد صاحب الشيخ عبد القادر ، وصحبه ، وسلك به ولبس منه الخرقة ، وأجاز له الشيخ عبد المغيث الحربي وغيره . وحفظ الفقه واللغة ويقال : إنه كان يحفظ « صحاح الجوهري » بكماله .

وكان صالحاً قدوة عظيم الاجتهاد كثير التلاوة عفيفا صبوراً قنوعاً محباً لطريقة الفقراء ومخالطتهم ، وكان يحضر معهم السماع ويرخص في ذلك .

وكان شديداً في السنة منحرفاً على المخالفين لها ، وشعره مملوء بذكر أصول السنة ومدح أهلها وذم مخالفيها ، وله قصيدة طويلة لامية في مدح الإمام أحمد وأصحابه ....

وكان قد رأى النبي ﷺ في منامه وبشره بالموت على السنة . ونظم في ذلك قصيدة طويلة معروفة ، وقد حدث .

٢٤ ـ وذكر في « الذيل على طبقات الحنابلة » الجزء الثاني صفحة (١٥١):

محمد بن الخضر بن محمد بن الخضر بن علي بن عبد الله بن تيمية الحراني الفقيه المفسر الخطيب الواعظ فخر الدين أبو عبد الله بن أبي القاسم شيخ حران وخطيبها.

ولد في أواخر شعبان سنة ٥٤٢ هـ بحران وقرأ القرآن على والده وله عشر سنين ، وكان والده زاهداً يُعد من الأبدال ، وشرع في الاشتغال بالعلم من صغره .... وكان الشيخ فخر الدين رجلاً صالحاً يذكر له كرامات وخوارق وولي الخطابة والإمامة بجامع حران والتدريس بالمدرسة النورية بها وبنى هو مدرسة بحران أيضاً .

قال الناصح ابن الحنبلي : انتهت إليه رئاسة حران وله خطبة الجمعة وإمامة الجامع وتدريس المدرسة النورية وهو واعظ البلد ، وله القبول من عوام البلد ، والوجاهة عند ملوكها ، وكان في ملازمته التفسير والوعظ مع الطريقة الظاهرة والصلاح .

٢٥ ـ وذكر في « الذيل على طبقات الحنابلة » الجزء الثاني صفحة (٥):

عبد الغني بن عبد الواحد بن علي بن سرور بن رافع بن حسن بن جعفر الجماعيلي المقدسي الحافظ الزاهد أبو محمد ويلقب تقي الدين حافظ الوقت ومحدثه ....

رحل إلي بغداد سنة إحدى وستين هو والشيخ الموفق فأقاما ببغداد أربع سنين ، وكان الموفق ميله إلى الفقه والحافظ عبد الغني ميله إلى الحديث ، فنزلا على الشيخ عبد القادر[١] ، وكان يراعيهما ويحسن إليهما ، وقرءا عليه شيئاً من الحديث والفقه .

وحكى الشيخ الموفق أنهما أقاما عنده نحواً من أربعين يوماً ثم مات وأنهما كانا يقرءان عليه كل يوم درسين من الفقه فيقرأ هو من « الخرقي » من حفظه والحافظ من كتاب « الهداية »...... وقد جمع فضائل الحافظ وسيرته الحافظ ضياء الدين في جزئين وذكر فيها أن الفقيه مكي بن عمر بن نعمه المصري جمع فضائله أيضاً . قال الحافظ الضياء : كان شيخنا الحافظ لا يكاد أحد يسأله عن حديث إلا ذكره له وبينه وذكر صحته أو سقمه ، ولا يُسأل عن رجل إلا قال : هو فلان بن فلان الفلاني ويذكر نسبه .

وأنا أقول : كان الحافظ عبد الغني المقدسي أمير المؤمنين في الحديث .

---

(١) الإمام الرباني والقطب الصمداني الشيخ عبد القادر الجيلاني إمام الصوفية الجليل والذي تنتهي إليه جميع سلاسل الطريقة القادرية .

قال : وكان رحمه الله يقرأ الحديث يوم الجمعة بعد الصلاة بجامع دمشق وليلة الخميس بالجامع أيضا، ويجتمع خلق كثير ، وكان يقرأ ويبكي ويبكي الناس بكاء كثيراً حتى أن من حضر مجلسه مرة لايكاد يتركه لكثرة مايطيب قلبه وينشرح صدره فيه ، وكان يدعو بعد فراغه دعاء كثيراً ....

قال الضياء : سمعت الإمام الزاهد إبراهيم بن محمود بن جوهر البعلي يقول : سمعت العماد يعني أخا الحافظ يقول : مارأيت أحداً أشد محافظة على وقته من الحافظ عبد الغني .

قال الضياء : كان شيخنا الحافظ رحمه الله لايكاد يضيع شيئا من زمانه بلا فائدة ، فإنه كان يصلي الفجر ويلقن الناس القرآن وربما أقرأ شيئاً من الحديث ، فقد حفظنا منه أحاديث جمة تلقينا ، ثم يقوم يتوضأ فيصلي ثلاثمائة ركعة بالفاتحة والمعوذتين إلى قبل وقت الظهر ، ثم ينام نومة يسيرة إلى وقت الظهر ، ويشتغل إما للتسميع بالحديث أو بالنسخ إلى المغرب ، فإن كان صائما أفطر بعد المغرب ، وإن كان مفطرا صلى من المغرب إلى عشاء الآخرة فإذا صلى العشاء الآخرة نام إلى نصف الليل أو بعده ، ثم قام كأن إنسانا يوقظه فيتوضأ ويصلي لحظة كذلك ، ثم توضأ وصلى كذلك ، ثم توضأ وصلى إلى قرب الفجر ..... ثم ينام نومة يسيرة إلى الفجر وهذا دأبه ......

قال الضياء : وكان قد وضع الله له الهيبة في قلوب الخلق ..... قال وماأعرف أحدا من أهل السنة رأى الحافظ إلا أحبه حبًا شديدًا ومدحه مدحًا كثيرًا.

سمعت أبا الثناء محمود بن سلامة الحراني بأصبهان قال : كان الحافظ بأصبهان يصطف الناس في السوق فينظرون إليه .

وسمعته يقول : لو أقام الحافظ بأصبهان مدة وأراد أن يملكها لملكها ـ يعني من حُبِّهم له ورغبتهم فيه ـ ولما وصل إلى مصر أخيرا كنا بها فكان إذا خرج

يوم الجمعة إلى الجامع لانقدر نمشي معه من كثرة الخلق يتبركون به ويجتمعون حوله ....

وسمعت أبا محمد عبد الرحمن بن إبراهيم المقدسي قال : سألت الحافظ فقلت : هؤلاء المشايخ يحكىٰ عنهم من الكرامات مالا يحكى عن العلماء إيش السبب في هذا ؟ فقال : اشتغال العلماء بالعلم كرامات كثيرة ، أو قال : يريد للعلماء كرامة أفضل من اشتغالهم بالعلم . وقد كان للحافظ كرامات كثيرة .

قال الضياء : سمعت أحمد بن عبد الله بن علي العراقي حدثني أبو محمد بن أبي عبد الله الدمياطي قال : اكتريت في مركب فرأيته عايبا فضاق صدري ، فذكرت قصته للحافظ فكتب لي كتاباً وقال : اتركه فيه فإذا مضيت سفرك وخرجت منه فخذ الكتاب ولاتتركه فيه فمضيت وعلقته في المركب فمضينا في سفرنا فلما نزلنا منه وأخذنا قماشنا ولم يبق فيه شيء ذكرت الكتاب فأخذته منه ، فمن ساعته دخل الماء فيه وغرق.......

وسمعت أبا محمد عبد الرحمن بن محمد بن عبد الجبار المقري قال : كان لأهل بيتي ثوب من ثياب الحافظ يدخرونه للموت وملحفة من أثر أمه قال : فسرق مافي بيتنا من الثياب ، ففتشوا على الثوب والملحفة فلم يجدوهما فحزنوا عليهما ، فلما كان بعد مدة وجدوهما في الصندوق ، وقد كانوا فتشوا قبل ذلك ولم يجدوهما .

قال الضياء : وكنت أنا وجماعة نسمع على الحافظ بالمصلى الذي بجبلنا في شدة الحر فقال : لو كنا نقوم من هذا الحر إلى المسجد ، فهممنا بالقيام ولعل بعضنا قام ، فإذا سحابة قد غطت الشمس فقال : اقعدوا فرأيت بعض أصحابنا ينظر إلى بعض ويسرون الكلام بينهم : « إن هذه كرامة » ويقولون : « ماكان يُرى في السماء سحابة » ، وذكر الضياء أشياء كثيرة من هذا الجنس . قال : وسمعت الحافظ يقول : رأيت النبي ﷺ في النوم يمشي وأنا أمشي خلفه

إلا أن بيني وبينه رجلاً ......

قال : وسمعت الحافظ أبا موسى ابن الحافظ قال : كنت عند والدي وهو يذكر فضائل سفيان الثوري ، فقلت في نفسي : إن والدي مثله فالتفت إليَّ وقال : أين نحن من أولئك .

وسمعت أبا موسى أيضاً يحدث عن رجل بدمياط قال : كنت يوما عند الحافظ فقلت في نفسي : كنت أشتهي لو أن الحافظ يعطيني الثوب الذي يلي جسده حتى أكفن فيه ، فلما أردت القيام قال : لاتبرح فلما انصرف الجماعة خلع ثوبه الذي يلي جسده وأعطانيه .

قال فبقي الثوب عندنا ، وكل من مرض أو وجع رأسه تركوه عليه حتى يبرأ بإذن الله تعالى .

وسمعت أبا الرضى محمد بن عبد الرحمن بن إبراهيم المقدسي قال : وقع لي أن أسأل الحافظ عن شيء من ذكر أصحاب النبي ﷺ فمضيت إليه فوجدت عنده جماعة ، فاستحييت أن أسأله وقعدت ، فذكر ماكنت أريد أن أسأله عنه وبيَّنه .

وسمعت أبا علي فارس بن عثمان بن عبد الله الدمشقي يذكر عن رجل عن آخر قال : خرجنا جماعة إلى الجبل فقعدنا على النهر فقال بعضنا : اشتهينا لو أن الحافظ جاء ومعه جزء يقرأ لنا فيه أخبارا ، فقال آخر : ويجيء معه بحلاوة فلم نلبث إلا والحافظ قد جاء فقال له بعضنا : لو كنت جئت معك بشيء تقرأ لنا فيه؟ فأخرج جزءا من كمه وقال : قد جئت بالجزء والحلاوة .

وسمعت الحافظ أبا موسى يقول : قالت لي والدتي : قدمنا يوما لوالدك طبيخا من طبيخ فلان ـ لرجل سماه لي ـ وكان الحافظ لايشتهي أن يأكل من طعامه فأخذ لقمة ورفعها إلى فيه ، ثم نظر إليه وقال : هذا من طبيخ فلان

ارفعوه ، ولم يأكل منه شيئا .

قال الضياء : فسألت خالتي رابعة بنت أحمد بن محمد بن قدامة ـ امرأة الحافظ ـ بعد ذلك عن هذه الحكاية فحدثتني بها .

قال : وسمعت أبا موسى يقول : أوصاني أبي عند موته : لاتضيعوا هذا العلم الذي تعبنا عليه ـ يعني الحديث ـ فقلت ماتوصي بشيء ؟ قال : مالي على أحد شيء ولا لأحد عليَّ شيء ، قلت : توصيني بوصية ؟ قال : يابني أوصيك بتقوى الله والمحافظة على طاعته ، فجاء جماعة يعودونه فسلموا عليه فرد عليهم وجعلوا يتحدثون ففتح عينيه وقال : ماهذا الحديث اذكروا الله تعالى قولوا لاإله إلا الله فقالوها ثم قاموا ، فجعل يذكر الله ويحرك شفتيه بذكره ويشير بعينيه ، فدخل رجل فسلم عليه وقال له : ماتعرفني ياسيدي ؟ فقال : بلى ، فقمت لأناوله كتاباً من جانب المسجد ، فرجعت وقد خرجت روحه ، وذلك يوم الإثنين الثالث والعشرين من شهر ربيع الأول من سنة ستمائة ، وبقي ليلة الثلاثاء في المسجد ، واجتمع الغد خلق كثير من الأئمة والأمراء مالايحصيهم إلا الله عز وجل ، ودفناه يوم الثلاثاء بالقرافة مقابل قبر الشيخ أبي عمرو بن مرزوق في مكان ذكر لي خادمه عبد المنعم أنه كان يزور ذلك المكان ويبكي فيه إلى أن يبل الحصى ، ويقول : قلبي يرتاح إلى هذا المكان . رحمه الله ورضي عنه وألحقه بنبينا محمد ﷺ ....

قال الضياء : سمعت أبا إسحاق إبراهيم بن محمود البعلي قال : جاء قوم من التجار إلى الشيخ العماد ـ وأنا عنده ـ فحدثوه أن النور يُرى على قبر الحافظ عبد الغني كل ليلة أو كل ليلة جمعة.

قال : وسمعت الشيخ عبد الرحمن بن حسن بن عبد الله الكردي ـ بحران ـ يقول : رأيت الحافظ في المنام فقلت له : ياسيدي أليس قد مِتَّ ؟فقال : إن الله عز وجل أبقىً عليَّ وردي من الصلاة ....

وقد ذكر الضياء غير ذلك من المنامات المرئية لـه في حيـاتـه وبعـد مماتـه رضي الله عنه . وقد سمع الحديث من الحافظ عبـد الغني الخلق الكثير وحـدث بـأكثر البـلاد التي دخلهـا كبغـداد ودمشـق ومصر ودميـاط وأصبهـان وحـدث بالإسكندرية سنة سبعين وخمسمائة ، وروى عنه خلق كثير ....

سئل عمن كان في زيادة من أحواله فحصل له نقص ؟

فـأجـاب : أمـا هـذا ، فيريـد المجيب عنـه أن يكون من أربـاب الأحوال وأصحاب المعاملة ، وأنا أشكو إلى الله تقصيري وفتوري عن هـذا وأمثـالـه من أبواب الخير[١] ، وأقول وبـالله التـوفيـق : إن من رزقـه الله خيراً من عمـل أو نور قلب ، أو حالة مرضية في جوارحه وبدنه فليحمـد الله عليهـا وليجتهـد في تقييدها بكمالها وشكر الله عليها ، والحذر من زوالها بزلة أو عثرة ، ومن فقدهـا فليكثر من الاسترجاع ويفزع إلى الاستغفـار والاستقـالـة والحزن على مـافـاتـه والتضرع إلى ربه والرغبة إليه في عودها إليه ، فإن عادت وإلا عاد إليه ثوابهـا وفضلها إن شاء الله .

وسئل مرة أخرى في معنى ذلك ؟

فأجاب : أما فقدان مانجـده من الحلاوة واللـذة فلا يكون دليلا على عـدم القبول ، فإن المبتـديء يجـد مـايجـد المنتهي ، فـإنـه ربمـا ملَّت النفس وسئمت لتطاول الزمان وكثرة العبـادة ، وقـد روي عن رسول الله ﷺ أنـه كان ينهى عن كثرة العبادة والإفراط فيها ويأمر بالاقتصـاد خوفـاً من المَلَلِ ، وقـد روي أن أهل اليمن لما قدموا المدينة جعلوا يبكون ، فقـال أبو بكر رضي الله عنـه : هكذا كنا حتى قست قلوبنا .

---

(١) لاحظ تواضعه رحمه الله وكذا لاحـظ أنـه كيف يشكو إلى الله تقصيره وفتوره في أمور التصوف مع علو مرتبته وعظم شأنه في علوم الحديث وفنونه فتمعن .

٢٦ ـ وذكر في « الذيل على طبقات الحنابلة » الجزء الثاني صفحة (٦٣):

محمود بن عثمان بن مكارم النعال البغدادي الأزجى الفقيه الواعظ الزاهد أبو الثناء ويقال أبو الشكر ويلقب ناصر الدين .

قرأ القرآن وسمع الحديث من أبي الفتح بن البطي وحدث ، وحفظ مختصر الخرقي وقرأ على أبي الفتح بن المنى ، وصحب الشيخ عبد القادر[١] وتأدب به.

وكان يطلع الفقه والتفسير ويجلس في رباطه للوعظ ، وكان رباطه مجمعاً للفقراء وأهل الدين وللفقهاء الحنابلة الذين يرحلون إلى أبي الفتح بن المنى للتفقه عليه ، فكانوا ينزلون به حتى كان الاشتغال فيه بالعلم أكثر من الاشتغال بسائر المدارس .

وكان الرباط شعث الظاهر عامرا بالفقهاء والصالحين ، سكنه الشيخ موفق الدين المقدسي والحافظ عبد الغني وأخوه الشيخ العماد والحافظ عبد القادر الرهاوي وغيرهم من أكابر الرحالين لطلب العلم[٢] ....

قال أبو شامة : كانت له رياضات ومجاهدات ، وساح في بلاد الشام وغيرها ، وكان يؤثر أصحابه وانتفع به خلق كثير ، وكان مهيبا لطيفاً كيّساً باشًا مبتسمًا يصوم الدهر ويختم القرآن كل يوم وليلة ، ولا يأكل إلا من غزل عمته.

توفي ليلة الأربعاء عاشر صفر سنة تسع وستمائة عن أزيد من ثمانين سنة ودفن تلك الليلة برباطه رحمه الله .

---

(١) هو الإمام الرباني والقطب الصمداني الشيخ عبد القادر الجيلاني سيد الصوفية ، وإليه منتهى سلاسل الطريقة القادرية .

(٢) لاحظ أن هؤلاء السادة وهم أساطين العلم قد تربوا في أحضان التصوف في رباط السادة الصوفية .

له ، وما ذاك إلا لصدقه في زهده وورعه وطريقه .

وكان يقبل الفتوح وكان لايدخر منه شيئاً لغد ، وإذا اشتد جوعه أخذ من ورق اللوز ففركه واستفه ويشرب فوقه الماء البارد رحمه الله تعالى وأكرم مثواه .

وذكروا أنه كان يحج في بعض السنين في الهواء ، وقد وقع هذا لطائفة كبيرة من الزهاد وصالحي العُبَّاد ، ولم يبلغنا هذا عن أحد من أكابر العلماء .

وأول من يذكر عنه هذا : حبيب العجمي وكان من أصحاب الحسن البصري ثم من بعده من الصالحين رحمهم الله تعالى أجمعين .

فلما كان يوم جمعة من عشر ذي الحجة من هذه السنة صلى الصبح عبد الله اليونيني وصلاة الجمعة بجامع بعلبك ، وكان قد دخل الحمام يومئذ قبل الصلاة وهو صحيح ، فلما انصرف من الصلاة قال للشيخ داود المؤذن وكان يغسل الموتى : انظر كيف تكون غدا ، ثم غدا الشيخ إلى زاويته فبات يذكر الله تعالى تلك الليلة ويتذكر أصحابه ومن أحسن إليه ولو بأدنى شيء ويدعو لهم ، فلما دخل وقت الصبح صلى بأصحابه ، ثم استند يذكر الله وفي يده سُبحة ، فمات وهو كذلك جالس لم يسقط ، ولم تسقط السُبحة من يده .

فلما انتهى الخبر إلى الملك الأمجد صاحب بعلبك فجاء إليه فعاينه كذلك فقال : لو بنينا عليه بنيانا هكذا يشاهد الناس منه آية ؟ فقيل له : ليس هذا من السنة ، فنحي وكفن وصلي عليه ودفن تحت اللوزة التي كان يجلس تحتها يذكر الله تعالى . ورحمه الله ونور ضريحه .

وكانت وفاته يوم السبت وقد جاوز ثمانين عاما أكرمه الله تعالى .

وكان الشيخ محمد الفقيه اليونيني من جملة تلاميذه وممن يلوذ به ، وهو جد هؤلاء المشايخ بمدينة بعلبك .

٩ ـ وذكر في « البداية والنهاية » الجزء الثالث عشر صفحة (١٣٨) في ذكر سنة ثلاثين وستمائة وممن توفي من الأعيان في هذه السنة من المشاهير . فذكر منهم « الشيخ شهاب الدين السهروردي » [١] :

صاحب عوارف المعارف ، عمر بن محمد بن عبد الله بن محمد بن محمد بن حمويه ، واسمه عبد الله البكري البغدادي شهاب الدين أبو حفص السهروردي ، شيخ الصوفية ببغداد .

كان من كبار الصالحين وسادات المسلمين ، وتردد في الرسلية بين الخلفاء والملوك مرارا ، وجعلت له أموال جزيلة ففرقها بين الفقراء والمحتاجين .

وقد حج مرة وفي صحبته خلق من الفقراء لايعلمهم إلا الله عز وجل .

وكانت فيه مروءة وإغاثة للملهوفين وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر ، وكان يعظ الناس وعليه ثياب البذلة ، قال مرة في ميعاده هذا البيت وكرره :

مافي الصحاب أخو وجد تطارحه   إلا محب له في الركب محبوب

فقام شاب وكان في المجلس فأنشده : ـ

كأنما يوسف في كل راحلة   وفي كل بيت منه يعقوب

فصاح الشيخ ونزل عن المنبر وقصد الشاب ليعتذر إليه فلم يجده ووجد مكانه حفرة فيها دم كثير من كثرة ماكان يفحص برجليه عند إنشاد الشيخ البيت .

وذكر له ابن خلكان أشياء كثيرة من أناشيده وأثنى عليه خيراً وأنه توفي في هذه السنة وله ثلاث وتسعون سنة . رحمه الله تعالى .

---

(١) إليه مرجع سلاسل الطريقة السهروردية .

١٠ ـ وذكر في البداية والنهاية الجزء الثالث عشر صفحة (١٤١) في ذكر سنة إحدى وثلاثين وستمائة ومن توفي في هذه السنة من الأعيان ..... نذكر منهم « الشيخ عبد الله الأرمني »:

أحد العباد الزهاد الذين جابوا البلاد وسكنوا البراري والجبال والوهاد واجتمعوا بالأقطاب والأبدال والأوتاد ، وممن كانت له الأحوال والمكاشفات والمجاهدات والسياحات في سائر النواحي والجهات وقد قرأ القرآن في بدايته وحفظ كتاب القدوري على مذهب أبي حنيفة ، ثم اشتغل بالمعاملات والرياضات ، ثم أقام آخر عمره بدمشق حتى مات بها ودفن بسفح قاسيون .

وقد حكي عنه أشياء حسنة منها : ـ

أنه قال : اجتزت مرة في السياحة ببلدة فطالبتني نفسي بدخولها فآليت أن لاأستطعم منها بطعام ، ودخلتها ، فمررت برجل غسَّال فنظر إليَّ شزراً فخفت منه وخرجت من البلد هارباً فلحقني ومعه طعام ، فقال : كل فقد خرجت من البلد ، فقلت له : وأنت في هذا المقام وتغسل الثياب في الأسواق ؟ فقال : لاترفع رأسك ولاتنظر إلى شيء من عملك وكُن عبداً لله فإن استعملك في الحسن فارض به ، ثم قال رحمه الله : ـ

ولو قيل لي مت قلت سمعا وطاعة وقلت لداعي الموت أهلاً ومرحباً

...... وذكر له الحافظ ابن كثير رحمه الله حكايات أخرى .

١١ ـ وذكر في « البداية والنهاية » الجزء الثالث عشر صفحة (٢٢٧) في ذكر سنة ثمان وخمسين وستمائة ومن توفي فيها من الأعيان ... فذكر منهم :

الشيخ محمد الفقيه اليونيني : الحنبلي البعلبكي الحافظ ، هو محمد بن أحمد ابن عبد الله بن عيسى بن أبي الرجال أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن محمد بن الحسين بن إسحاق بن جعفر الصادق .

كذا نقل هذه النسبة الشيخ قطب الدين اليونيني من خط أخيه الأكبر أبي الحسين علي، وأخبره أن والده قال له : نحن من سلالة جعفر الصادق ، قال : وإنما قال له هذا عند الموت ليتحرج من قبول الصدقات .

أبو عبد الله بن أبي الحسين اليونيني الحنبلي تقي الدين الفقيه الحنبلي الحافظ المفيد البارع العابد الناسك ، ولد سنة ثنتين وسبعين وخمسمائة .

وسمع الخشوعي وحنبلاً والكندي والحافظ عبد الغني وكان يثني عليه ، وتفقه على الموفق ولزم الشيخ عبد الله اليونيني فانتفع به ، وكان الشيخ عبد الله يثني عليه ويقدمه ويقتدي به في الفتاوى .

وقد لبس الخرقة من شيخ شيخه عبد الله البطائحي ، وبرع في علم الحديث وحفظ الجمع بين الصحيحين بالفاء والواو ، وحفظ قطعة صالحة من مسند أحمد ، وكان يعرف العربية أخذها عن التاج الكندي ، وكتب مليحا حسناً .

وكان الناس ينتفعون بفنونه الكثيرة ، ويأخذون عنه الطرق الحسنة وقد حصلت له وجاهة عظيمة عند الملوك .

توضأ مرة عند الملك الأشرف بالقلعة حال سماع البخاري على الزبيدي ، فلما فرغ من الوضوء نفض السلطان تخفيفته وبسطها على الأرض ليطأ عليها وحلف السلطان له إنها طاهرة ولابد أن يطأ برجليه عليها ففعل ذلك ......

وبسط الحافظ ابن كثير رحمه الله في مناقبه وعلو مرتبته ، ثم قال : ـ

وكانت الملوك كلهم يحترمونه ويعظمونه ويجيئون إلى مدينته بنو العادل وغيرهم .

وكذلك كان مشايخ الفقهاء كابن الصلاح وابن عبد السلام وابن الحاجب

والحصري وشمس الـدين بن سني الـدولـة وابن الجـوزي وغيرهم يعظمـونـه ويرجعون إلى قوله لعلمه وعمله وديانته وأمانته .

وقد ذكرت له أحوال ومكاشفات وكرامات كثيرة رحمه الله ، وزعم بعضهم أنه قطب منذ ثنتي عشرة سنة فالله أعلم ......

وذكر ولده قطب الدين أنه مـات في التـاسع عشر من رمضـان من هـذه السنة عن ثمان وثمانين سنة رحمه الله تعالى .

١٢ ـ وذكر في « البداية والنهاية » الجزء الثالث عشر صفحة (٣٤٢) في ذكر سنة أربع وتسعين وستمائة ومن توفي فيها من الأعيان ... فذكر منهم : ـ « الفاروقي الشيخ الإمام العابد الزاهد » :

الخطيب عـز الـدين أبـو العبـاس أحمـد بن الشيـخ محيي الـدين إبراهيم بن عمر بن الفرج بن سابور بن علي بـن غنيمة الفاروقي الواسطي ، ولد سنـة أربع عشرة وستمائـة وسمع الحـديث ورحـل فيـه ، وكانت لـه فيـه يـد جيـدة ، وفي التفسير والفقه والوعظ والبلاغة ، وكان دينا ورعا زاهـدا ، قـدم إلى دمشق في دولة الظاهر فأعطي تدريس الجاروضية وإمام مسجد ابن هشـام ، ورتب لـه فيه شيء على المصالح ، وكان فيه إيثار ولـه أحوال صـالحـة ومكاشفـات كثيرة .... وذكر له الحافظ ابن كثير رحمه حكايات ومقامات ، ثم قال :

وكان يوم موته يوماً مشهوداً بواسـط ، وصلي عليـه بـدمشق وغيرهـا رحمـه الله . وكان قـد لبس خرقـة التصـوف من السهروردي ، وقرأ القراءات العشر وخلف ألفي مجلد ومـائتي مجلدٍ ، وحـدث بـالكثير ، وسمع منـه البرزالي كثيراً صحيح البخاري وجامع الترمذي وسنن ابن ماجه ومسند الشافعي ومسند عبـد ابن حميد ومعجم الطبراني الصغير ومسنـد الـدارمي وفضـائل القرآن لأبي عبيـد وثمانين جزءاً وغير ذلك .

١٣ ـ وذكر في « البداية والنهاية » الجزء الرابع عشر صفحة (٢٢٧) في ذكر سنة تسع وأربعين وسبعمائة قال فيه :

وفي يوم السبت ثالث رجب صُلِّيَ على الشيخ علي المغربي أحد أصحاب الشيخ تقي الدين ابن تيمية بالجامع الأفرمي بسفح قاسيون ، ودفن بالسفح رحمه الله ، وكانت له عبادة وزهادة وتقشف وورع ، ولم يتول في هذه الدنيا وظيفة بالكلية ، ولم يكن له مال بل كان يأتي بشيء من الفتوح يستنفقه قليلاً قليلا ، وكان يعاني التصوف ، وترك زوجة وثلاثة أولاد رحمه الله .

* * *

الحافظ ابن رَجب الحنبلي



وغالب كتب الحافظ ابن رجب مشحونة بذكر السادة الصوفية وكلامهم وأحوالهم ونكتفي هنا بذكر قطعات مختلفة من تأليفه البديع « الذيل على طبقات الحنابلة » فجميع الذين يذكرهم ونذكرهم هم حنابلة سلفيون أو ممن ينتسب إليهم مشايخ الحركة السلفية فيتم به المقصود على أحسن وجه إن شاء الله وعليه سبحانه التكلان .

١ ـ ذكر في « الذيل على طبقات الحنابلة »الجزء الأول صفحة (٢١١) في ترجمة « الإمام أبي محمد عبد الله بن علي البغدادي » : ـ

قال الحافظ الضياء المقدسي : أخبرنا أبو الفضل عبد الواحد بن سلطان ببغداد ، نا محمد المقرئ ، أجاز لهم وأنشدنا لنفسه : ـ

ترك التكلف في التصوف واجب ... ومن المحال تكلف الفقراء
قوم إذا امتد الظلام رأيتهم ... يتركعون تركع القراء
والوجد منهم في الوجوه محله ... ثم السماع يحل في الأعضاء
لا يرفعون بذاك صوتاً مجهراً ... يتجنبون مواقع الأهواء
ويواصلون الدهر صوماً دائما ... في البأس إن يأتي وفي السراء
وتراهم بين الأنام إذا أتوا ... مثل النجوم الغر في الظلماء
صدقت عزائمهم وعز مراهم ... وعلت منازلهم على الجوزاء
صدقوا الإله حقيقة وعزيمة ... ورعوا حقوق الله في الآناء
والرقص نقص عندهم في عقدهم ... ثم القضيب بغير ما إخفاء
هذا شعار الصالحين ومن رضي ... من سادة الزهاد والعلماء
فإذا رأيت مخالفا لفعالهم ... فاحكم عليه بمعظم الإغواء

٢ ـ وذكر في « الذيل على طبقات الحنابلة » الجزء الأول صفحة (٣٠٦) فقال :

(عثمان بن مرزوق بن حميد بن سلام القرشي الفقيه العارف الزاهد أبو عمرو نزيل الديار المصرية) .

صحب شرف الإسلام عبد الوهاب بن الجيلي بدمشق وتفقه واستوطن مصر وأقام بها إلى أن مات ، وأفتى بها ودرس وناظر وتكلم على المعارف والحقائق .

وانتهت إليه تربية المريدين بمصر ، وانتمى إليه خلق كثير من الصلحاء .

وأثنى عليه المشايخ وحصل له قبول تام من الخاص والعام وانتفع بصحبته خلق كثير ، وكان يعظم الشيخ عبد القادر[1] ، ويقال : إنه اجتمع به هو وأبو مدين بعرفات ولبسا منه الخرقة ، وسمعا منه جزءاً من مروياته .

وسمع الحديث ورواه ، حدث عنه أبو الثناء محمود بن عبد الله بن مطروح المقرئ الجيلي وأبو الثناء أحمد بن ميسرة بن أحمد بن موسى بن غنام الغدراني الحنبلي المصري الكافحي ، وكانا صالحين ، وكان الأول مقرئاً حسن التلفظ بالقرآن ، وكان الثاني كثير الذكر والتسبيح ، حدث عنه المنذري ، وقرأ على الأول القرآن وكان الشيخ أبو عمرو له كرامات وأحوال ومقامات وكلام حسن على لسان أهل الطريقة فمن ذلك قوله : ـ

الطريق إلى معرفة الله وصفاته : الفكر والاعتبار بحكمه وآياته ولاسبيل للألباب إلى معرفة كنه ذاته ، ولو تناهت الحكم الإلهية في حد العقول وانحصرت القدر الربانية في درك العلوم لكان ذلك تقصيراً في الحكمة ونقصا في القدرة ، لكن احتجبت أسرار الأزل عن العقول كما احتجبت سبحات الجلال

---

(١) الإمام الرباني والقطب الصمداني الشيخ عبد القادر الجيلاني الحنبلي مرجع سلاسل الطريقة القادرية .

عن الأبصار ، فقد رجع معنى الوصف في الوصف وعَمِيَ الفهم عن الدرك ودار الملك في الملك وانتهى المخلوق إلى مثله واشتد الطلب إلى شكله ﴿ **وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسا** ﴾ ......

ومن كلامه : حلية العارف الخشية والهيبة ، وإياكم ومحاكاة أصحاب الأحوال قبل إحكام الطريق وتمكن الأقدام فإنها تقطع بكم ، ودليل تخليطك صحبتك للمخلطين ، ودليل أنسك بالمستوحشين ......

وحُكي عن الشيخ أبي إسحاق إبراهيم بن مرسيل الضرير الفقيه الشافعي الزاهد رحمه الله تعالى قال : كان الشيخ أبو عمرو بن مرزوق من أوتاد مصر ، كان شائع الذكر ظاهر الكرامات .

زاد النيل سنة زيادة عظيمة كادت مصر تغرق وأقام على الأرض حتى كاد وقت الزرع يفوت فضج الناس بالشيخ أبي عمرو بن مرزوق بسبب ذلك ، فأتى إلى شاطيء النيل وتوضأ منه فنقص في الحال نحو ذراعين ونزل عن الأرض حتى انكشفت وزرع الناس في اليوم الثاني .

قال : وفي بعض السنين لم يطلع النيل البتة وفات أكثر وقت زراعته ، وغلت الأسعار وظن الهلاك وضجوا بالشيخ أبي عمرو بن مرزوق فجاء إلى شاطيء النيل وتوضأ فيه بإبريق كان مع خادمه ، فزاد النيل في ذلك اليوم ، وتعاقبت زيادته إلى أن انتهت إلى حده ، وبلغ الله به المنافع وبارك في زرع الناس تلك السنة .

قرأت بخط الشيخ ناصح الدين عبد الرحمن بن نجم بن الحنبلي قال : حكى لي الشيخ زين الدين علي بن نجاء قال : زرت الشيخ عثمان بن مرزوق بمصر فقال : يجيء أسد الدين شيركوه إلى هذه البلاد ويروح ولا يحصل له شيء ، ثم يعود يجيء ويروح ولا يأخذ البلد ، ثم يجيء فيأخذ ماأدري قال في الثالثة

أو الرابعة فيملك مصر . فجرى الأمر كما ذكر ، فقلت له : ياسيدي من أين لك هذا ؟ فقال والله ياوالدي ماأعلم الغيب وإنما لي عادة أن أرى رسول الله ﷺ أراه في بعض الجمع فيخبرني ، قلت : لعله أراد في النوم ....

وقال الشيخ تقي الدين ابن تيمية رحمه الله تعالى : وثم جماعات منتسبون إلى الشيخ أبي عمرو بن مرزوق ويقولون أشياء مخالفة لما كان الشيخ أبو عمرو عليه ، وهذا الشيخ كان ينتسب إلى مذهب الإمام أحمد وكان من أصحاب الشيخ عبد الوهاب ابن الشيخ أبي الفرج وهؤلاء ينتسبون إلى مذهب الشافعي ويقولون أقوال مخالفة لمذهب الشافعي وأحمد بل ولسائر أئمة المسلمين ، ولشيخهم الشيخ أبي عمرو .

وهذا الشيخ أبو عمرو : شيخ من شيوخ أهل العلم والدين وله أسوة أمثاله ...... إلخ . اهـ .

٣ ـ وذكر في « الذيل على طبقات الحنابلة » الجزء الأول صفحة (٢٩٠) :

(عبد القادر بن أبي صالح بن عبد الله بن جنكي دوست بن أبي عبد الله ابن عبد الله الجيلي ثم البغدادي الزاهد) .

شيخ العصر وقدوة العارفين وسلطان المشايخ وسيد أهل الطريقة في وقته محيي الدين أبو محمد ، صاحب المقامات والكرامات والعلوم والمعارف والأحوال المشهورة .

وبعض الناس يذكر نسبه إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه ..... ولد سنة تسعين وأربعمائة أو سنة إحدى وتسعين بكيلان .

وفد بغداد شابا فسمع بها الحديث من أبي غالب بن الباقلاني وجعفر السراج وأبي بكر بن سوسن وابن بيان وأبي طالب بن يوسف وابن خشيش وأبي الزيني .

وتفقه علي القاضي أبي سعد المخرامي وأبي الخطاب الكلوذاني .

وقيل إنه قرأ أيضاً على ابن عقيل والقاضي أبي الحسين وبرع في المذهب والخلاف والأصول وغير ذلك .

وقرأ الأدب على زكريا التبريزي وصحب الشيخ حماد الدباس الزاهد ودرس بمدرسة شيخه وأقام بها إلى أن مات ودفن بها .

قال ابن الجوزي : كانت هذه المدرسة لطيفة ، ففوضت إلى عبد القادر فتكلم على الناس بلسان الوعظ وظهر له صيت بالزهد وكان له سمت وصمت ، وضاقت المدرسة بالناس .

وكان يجلس عند سور بغداد مستنداً إلى الرباط وينوب عنده في المجلس خلق كثير فعمرت المدرسة ووسعت وتعصبت في ذلك العوام وأقام في مدرسته يدرس ويعظ إلى أن توفي .

وذكره ابن السمعاني فقال : إمام الحنابلة وشيخهم في عصره فقيه صالح ديّن خيّر كثير الذكر دائم الفكر سريع الدمعة كتبت عنه ، وكان يسكن بباب الأزج في المدرسة التي بنوا له ....

قلت : ظهر الشيخ عبد القادر للناس وجلس للوعظ بعد العشرين وخمسمائة وحصل له القبول التام من الناس ، واعتقدوا ديانته وصلاحه وانتفعوا به وبكلامه ووعظه ، وانتصر أهل السنة بظهوره ، واشتهرت أحواله وأقواله وكراماته ومكاشفاته وهابه الملوك فمن دونهم .

قال الشيخ موفق الدين صاحب المغني : لم أسمع عن أحد يحكى عنه من الكرامات أكثر مما يحكى عن الشيخ عبد القادر ، ولا رأيت أحداً يعظم من أجل الدين أكثر منه .

وذكر الشيخ عز الدين بن عبد السلام شيخ الشافعية : إنه لم تتواتر كرامات أحد من المشايخ إلا الشيخ عبد القادر فإن كراماته نقلت بالتواتر .....

وقرأت بخط ابن الحنبلي أيضاً أن خاله أبا الحسن بن نجا الواعظ اجتمع بالشيخ عبد القادر وكان يحكي عنه قال : سبقت يوم العيد إلى المصلى إلى المكان الذي يصلي فيه الشيخ عبد القادر قال : فجاء الشيخ عبد القادر ومعه خلق كثير والناس يقبلون يده فصلى ركعتين قبل الصلاة فقلت في نفسي : ماهذه الصلاة فمن السنة أن لاتنفل قبلها ، قال : فلما سلّم التفت إليّ وقال : لها سبب .. وللشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى كلام حسن في التوحيد والصفات والقدر وفي علوم المعرفة موافق للسنة وله كتاب « الغنية لطالبي طريق الحق » وهو معروف وله كتاب « فتوح الغيب » وجمع أصحابه من مجالسه في الوعظ كثيراً .

وكان متمسكاً في مسائل الصفات والقدر ونحوهما بالسنة بالغا في الرد على من خالفها ...... ونقلت من خط السيف بن المجد الحافظ : سمعت الشيخ الزاهد علي بن سليمان البغدادي المعروف بالخباز برباطه بالجانب الغربي من بغداد يحكي عن الشيخ عبد القادر الجيلي وناهيك به فإنه صاحب المكاشفات والكرامات التي لم تنقل لأحد من أهل عصره أنه قال : لا يكون ولي لله تعالى إلا على اعتقاد أحمد رضي الله عنه ....

وقال ابن النجار : وسمعت أبا محمد الأخفش يقول : كنت أدخل على الشيخ عبد القادر في وسط الشتاء وقوة برده وعليه قميص واحد وعلى رأسه طاقية والعرق يخرج من جسده وحوله من يروحه بالمروحة كما يكون في شدة الحر .....

قال ابن الجوزي : توفي الشيخ عبد القادر ليلة السبت ثامن وقال غيره ،

تـاسع ربيـع الآخر سنـة إحـدى وستين وخمسمائـة بعـد المغرب ودفن من وقتـه بمدرسته وبلغ تسعين سنة .

وسمعت أنه كان يقول عند موتـه : رفقـاً رفقـاً . ثم يقول : وعليكم السلام وعليكم السلام ، أجيء إليكم أجيء إليكم .

٤ ـ وذكر في « الذيل على طبقات الحنابلة » الجزء الأول صفحة (٣٨٤) :

(سعـد بن عثمان بن مرزوق بن حميـد بن سـلام القرشي المصري المـولـد ، البغدادي الدار الفقيه الزاهد أبو الحسين) .

وتفقه ببغداد في المـذهب على أبي الفتح بن المني ولازم درسـه وسمع من أبي محمد بن الخشاب وغيره وحصل له القبول التام من الخـاص والعـام وكان ورعـاً زاهداً عابداً .

قرأت بخط ناصح الـدين بن الحنبلي في حقـه : كان مشتغلاً بحفـظ كتـاب « الوجهين والروايتين » تصنيف القـاضي أبي يعلى ، وكان من الزهـد والصـلاح والتطهير والتورع في المأكول على صفة تعجز كثيراً من المجتهدين في العبادة .

وكان يمشي مطرق الرأس يلتقـط الأوراق المكتـوبـة حتى اجتمـع عنـده من ذلك شيء كثير فيحملـه بحمال إلى الشـاطئ فيتولى غسلـه ويرسلـه مع المـاء ، وكان لا يستقضي أحدا حاجة إلا أعطاه أجره ولو أشعل له سراجاً ......

ورأى رجل في بغداد النبيَّ ﷺ وهو يقول : لولا الشيخ سعد نزل بكم بلاء أو كما قال .

ثم سعى الشيخ سعد إلى الجمعة وماعنده خبر بهذا المنام فانعكف النـاس بـه يتبركون بـه وازدحموا فرموه مرات ، وكأن منـاديـاً ينـادي في قلوب النـاس ، وهـو يقـول : أعـوذ بـالله من الفتنـة إيش بي ؟ إيش بـالنــاس ؟ حتى ضرب

الناس عنه وخلص منهم .

وقال القادسي : هو أحد الزهاد الأبدال الأوتاد ، ومن تشد إليه الرحال ومن كان لله عليه إقبال ، الصائم في النهار القائم في الظلام .

قدم بغداد وسكن برباط الشيخ عبد القادر وماكان يقبل من أحد شيئاً ولا يغشى باب أحد من السلاطين ، كان ينفذ له في كل عام شيء من مِلك له بمصر يكفيه طوال سنته .

حكى لي والدي قال : كنت أتردد إليه كثيراً ـ فأتيته يوما فهجس في نفسي أن لي مدة أتردد إليه وما حلف عليَّ قطّ ولاقدم لي شيئاً ، فما استمت كلامي حتى قال لي : أي أحمد والله ماأرضىٰ لك طعامي لأنه طعام شقي ، قال : وأخذني من الوجد شيء عظيم ، ثم دخل ليخرج لي من الزاد ، فقلت : لو أخرج إليَّ رغيف فضله لانتَغِض به الأقوام ، فقال عجلا من داخل البيت : أي شيخ أحمد بل رغيفان . قال : فزاد تحيري ودهشتي ، وكان الشيخ سعد كثير البكاء والخشوع .

قال ابن النجار : كان عبداً صالحاً مشهوراً بالعبادة والمجاهدة والورع والتقشف والقناعة والتعفف ، وكان خشن العيش مخشوشنا كثير الانقطاع عن الناس وكان على غاية من الوسوسة والمبالغة في الطهارة ......

وقيل : إن شيخه ابن المني لما احتضر أوصى أن يصلي عليه الشيخ سعد ، وقد تقدم إنه صلى عليه يومئذ وأن الناس ازدحموا عليه للتبرك به حتى كاد يهلك.

قال المنذري : توفي في سادس شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة ساجداً في صلاته ودفن من الغد .....

وذكر ابن النجار أنه كان قد قرأ في الصلاة التي توفي فيها ﴿ **فأما إن كان من المقربين * فروح وريحان وجنة نعيم** ﴾ .

٥ ـ وذكر في « الذيل على طبقات الحنابلة » الجزء الثاني صفحة (٣٦) في ترجمة : الشيخ عبد الله الجبائي :

قال أبو الفرج ابن الحنبلي وكتبته من خطه : كانت حرمة الشيخ عبد الله الجبائي كبيرة ببغداد ، فلما دخلت أصبهان سنة ثمانين وجدته بها وهو عظيم الحرمة فكان كل يوم يأتي إلى زيارتي ، وبجاهه سمعت على الحافظ أبي موسى الجزء من السباعيات فإنه كان مريضاً وقد حجب الناس عنه ، فلم يقدروا على حجب الشيخ عبد الله فدخلنا معه فأخذ الإذن من الحافظ أبي موسى لي في القراءة عليه ، وكان إذا مشى في السوق قام له أهل السوق .

وحكى لي الشيخ طلحة ـ يعني العلثي ـ أن للشيخ عبد الله ـ يعني الجبائي ـ رياضات ومجاهدات يطول ذكرها ......

قال ابن رجب : سمع الشيخ أبو محمد (عبد الله الجبائي) ببغداد من ابن ناصر الحافظ الأرموي وابن الطلاية وسعيد بن البنا ودعوان بن علي الحسني وأبي علي حمد بن شاتيل القاضي وأبي المعمر الأنصاري وغيرهم .

وسمع بأصبهان من أبي الخير الباغباني ومسعود الثقفي وغيرهما .

وتفقه ببغداد على أبي حكيم النهرواني وأخذ عنه القطعة التي كتبها من شرح الهداية . وصحب الشيخ عبد القادر الجيلي مدة مائلاً إلى التزهد والصلاح والخير والانقطاع وانتفع به وكان يحكي عنه كثيراً من أحواله وكراماته .

قال ابن النجار : كتب إليَّ عبد الله بن أبي الحسن الجبائي ونقلته من خطه قال : كنت أسمع كتاب « حلية الأولياء » على شيخنا أبي الفضل بن ناصر فرق قلبي وقلت في نفسي : أشتهي أن أنقطع عن الخلق وأشتغل بالعبادة ، ومضيت وصليت خلف الشيخ عبد القادر فلما صلى جلسنا بين يديه فنظر إليَّ وقال : إذا أردت الانقطاع فلا تنقطع حتى تتفقه وتجالس

الشيوخ وتتأدب بهم فحينئذ يصلح لك الانقطاع ، وإلا فتمضي وتنقطع قبل أن تتفقه وأنت فريخ ماريَّشت فإن أشكل عليك شيء من أمر دينك تخرج من زاويتك وتسأل الناس عن أمر دينك ؟ مايحسن بصاحب الزاوية أن يخرج من زاويته ويسأل الناس عن أمر دينه ، ينبغي لصاحب الزاوية أن يكون كالشمعة يستضاء بنوره .

قال : وكان الشيخ يوماً يتكلم في الإخلاص والرياء والعجب وأنا حاضر في المجلس ، فخطر في نفسي : كيف الخلاص من العجب ؟ فالتفت إليَّ الشيخ وقال : إذا رأيت الأشياء من الله وأنه وفقك لعمل الخير وأخرجت نفسك من الشين سلمت من العجب . اهـ .

٦ - وذكر في « الذيل على طبقات الحنابلة » الجزء الثاني صفحة (٢٦٩) :

محمد بن أحمد بن عبد الله بن عيسى بن أبي الرجال أحمد بن علي اليونيني البعلبكي الشيخ الفقيه المحدث الحافظ الزاهد العارف الرباني تقي الدين أبو عبد الله ابن أبي الحسين ، أحد الأعلام وشيوخ الإسلام .

ولد في سادس رجب سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة بيونين من قرى بعلبك ونشأ يتيماً بدمشق ، فأقعدته أمه في صنعة النشاب ، ثم حفظ القرآن ، وسمع الحديث من أبي طاهر الخشوعي وأبي التام القلانسي وحنبل المكبر وأبي اليمن الكندي والحافظ عبد الغني وغيرهم ، وتفقه بالشيخ موفق الدين وأخذ الحديث عن الحافظ عبد الغني ، والعربية عن أبي اليمن الكندي ، وبرع في الخط المنسوب . ولبس خرقة التصوف من الشيخ عبد الله البطايحي صاحب الشيخ عبد القادر ، ولزم خدمة الشيخ عبد الله اليونيني الزاهد صاحب الأحوال والكرامات الذي يقال له أسد الشام وانتفع به .

وكان الشيخ عبد الله هذا يثني على الشيخ الفقيه ويقدمه ويقتدي به في

الفتاوى ، وكذلك كان شيخه الحافظ عبد الغني يثني عليه .

وبرع في الحديث وحفظ فيه الكتب الكبار حفظا متقنا كـ « الجمع بين الصحيحين » للحميدي ، و « صحيح مسلم » .....

وذكره عمر بن الحاجب الحافظ فأطنب في وصفه وأسهب وقال : اشتغل بالفقه والحديث إلى أن صار إماماً حافظاً ، إلى أن قال : ولم ير في زمانه مثل نفسه في كماله وبراعته ، وجمع بين علمي الشريعة والحقيقة ....

وقال الحافظ عز الدين الحسيني : هو أحد المشايخ المشهورين الجامعين بين العلم والدين وكان حفظ كثيراً من الحديث النبوي مشهوراً بذلك . انتهى . وكان حريصاً على سماع الحديث وقراءته مع علو سنه وعظم شأنه وكان أهل بعلبك يسمعون بقراءته على المشايخ الواردين عليهم كالقزويني وبهاء الدين المقدسي وابن رواحة الحموي وغيرهم .

وكان ذا أحوال وكرامات وأوراد وعبادات لايخل بها ولايؤخرها عن وقتها لورود أحد عليه ولو كان من الملوك .

وكان لايرى إظهار الكرامات ويقول : كما أوجب الله على الأنبياء إظهار المعجزات أوجب على الأولياء إخفاء الكرامات .

ويروى عن الشيخ عثمان شيخ دير ناعش - وكان من أهل الأحوال - قال : قَطَب الشيخ الفقيه ثمان عشرة سنة .

وكان له رحمه الله منزلة عند الملوك ويحترمونه احتراماً زائدا حتى كان مرة بقلعة دمشق في سماع البخاري عند الملك الأشرف فقام الشيخ الفقيه مرة يتوضأ ، فقام السلطان ونفض تخفيفته لما فرغ الشيخ من الوضوء وقدمها إليه ليتنشف بها أو ليطأ عليها برجله وحلف أنها طاهرة وأنه لابد أن يفعل ذلك .

قال الحافظ الذهبي : حدثني بذلك شيخنا أبو الحسين بن اليونيني أو ابن الشيخ الفقيه ، قال الحافظ : والشك مني .

قال : وسار الملك الأشرف إلى بعلبك مرة ، فبدأ قبل كل شيء فأتى دار الشيخ الفقيه ونزل فدق الباب فقيل : من ذا ؟ فقال : موسى .....

وكانت الملوك كلهم يحترمونه ويعظمونه بنو العادل وغيرهم ، وكذلك مشايخ العلماء كابن الصلاح وابن عبد السلام وابن الحاجب والحصري ، والقضاة : كابن سناء الدولة وابن الجوزي وغيرهم .

وكان الناس ينتفعون بعلومه وفنونه ، ويتلقون عنه الطريقة الحسنة ، وكان عظيم الهيبة منور الشيبة مليح الصورة ضخما حسن السمت والوقار ، وكان يلبس قبعاً صوفه إلى الخارج على طريقة شيخه الشيخ عبد الله .

وكان كثير الاقتداء به والطاعة له ، حكى مرة أنه كان قد عزم على الرحلة إلى حران قال : وكان قد بلغني أن بها رجلاً يعرف علم الفرائض جيداً ، فلما كانت الليلة التي أريد في صبحتها أن أسافر جاءتني رسالة الشيخ عبد الله اليونيني فعزم عليَّ إلى القدس الشريف ، فكأني كرهت ذلك وفتحت المصحف فطلع قوله تعالى : ﴿ **اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون** ﴾ .

قال : فخرجت معه إلى القدس ، فوجدت ذلك الحراني بالقدس فأخذت عنه علم الفرائض ، حتى خيل إليَّ أني قد صرت أبرع منه فيه ......

وتوفي ليلة تاسع عشر رمضان سنة ثمان وخمسين وستمائة ببعلبك ودفن عند شيخه عبد الله اليونيني رحمة الله عليهما .

٧ - وذكر في « الذيل على طبقات الحنابلة » الجزء الثاني صفحة (٣٥٨) :

أحمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن مسعود بن عمر الواسطي الحزامي ، الزاهد القدوة العارف ، عماد الدين أبو العباس ابن شيخ الحزاميين .

ولـد في حـادي عشر أو ثـاني عشر ذي الحجـة سنـة سبـع وخمسين وستمائـة بشرقي واسط وكان أبوه شيخ الطائفة الأحمدية ....

وكان الشيخ تقي الدين ابن تيمية يعظمه ويجلـه ويقول عنـه : هو جنيـد وقتـه وكتب إليـه كتـابـا من مصر أولـه (إلى شيخنـا الإمـام العـارف القـدوة السالك) .

قال البرزالي عنه في معجمه : رجل صالح عـارف صـاحب نسـك وعبـادة وانقطـاع وعزوف عن الـدنيـا ، ولـه كلام متين في التصـوف الصحيـح ، وهـو داعيـة إلى طريـق الله تعـالى ، وقلمـه أبسـط من عبـاراتـه ، واختصر السيرة النبوية ، وكان يتقوت من النسخ ، ولا يكتب إلا مقدار مايدفع به الضرورة ، وكان محبا لأهل الحديث معظما لهم وأوقاته محفوظة .

وقال الذهبي : كان سيدا عارفاً كبير الشـأن ، منقطعـا إلى الله تعـالى وكان ينسخ بالأجرة ويتقوت ، ولا يكاد يقبل من أحد شيئاً إلا في النادر .

صنف أجـزاء عـديـدة في السلـوك والسير إلى الله تعـالى ، وفي الرد على الاتحاديه والمبتدعة وكان داعية إلى السنة ومـذهبـه مـذهب السلف الصـالح في الصفات يمرها كما جاءت ، وقد انتفع به جماعة صحبوه ، ولاأعلم خلف بـدمشق في طريقته مثله .

قلت : ومن تصانيفه « شرح منازل السائرين » ولم يتمـه ولـه نظم حسن في السلوك . كتب عنه الذهبي والبرزالي وسمع منه جمـاعـة من شيوخنـا وغيرهم ، وكان له مشاركة جيدة في العلوم ، وعبارة حسنة قوية وفهم جيد وخط حسن في غاية الحسن وكان معمور الأوقات بالأوراد والعبادات والتصنيف والمطـالعـة والذكر والفكر ، مصروف العناية إلى المراقبة والمحبة والأنس بالله والبقـاء بـه ، كثير اللهج بالأذواق والتجليات والأنوار القلبية ، منزوياً عن النـاس ، لا يجتمع

إلا بمن يحبه ويحصل له باجتماعه به منفعة دينية .

٨ ـ وذكر في « الذيل على طبقات الحنابلة » الجزء الثاني صفحة (٣٦١) :

(**محمد بن أحمد** بن أبي النصر ابن الدباهي البغدادي الزاهد ، شمس الدين أبو عبد الله بن أبي العباس) .

ولد سنة ست ـ أو سبع ـ وثلاثين وستمائة ببغداد .

وصحب الشيخ يحي الصرصري وكان خال والدته ، والشيخ عبد الله كتيلة مدة ، وسافر معه ، وأجاز له التستري من ماردين ، وجاور بمكة عشر سنين ودخل الروم والجزيرة ومصر والشام ثم استوطن دمشق وتوفي بها .

قال الشيخ كمال الدين ابن الزملكاني عنه : شيخ صالح عارف زاهد كثير الرغبة في العلم وأهله ، والحرص على الخير والاجتهاد في العبادة ، تخلى من الدنيا وخرج عنها ولازم العبادة والعمل الدائم والجد ، واستغرق أوقاته في الخير ، وكان لديه فضل ، وعنده مشاركات جيدة في العلوم ، وله عبارة حسنة فيما يكتبه ، وطلب الفوائد الدينية ، متقشف ورع صلب في الدين مجانب لمن يخشى على دينه منه محب للصالحين وأهل الخير منقطع عن الناس مهيب يقوم الليل ويكثر الصوم ، ويطيل الصلاة بخشوع وإخبات واستغراق ويتلو القرآن العظيم ، لايرى خاليا من أفعال الخير وأعمال البر ويتصدق في السر وينصح الإخوان ويسعى في مصالحهم ويحسن القيام على عياله ويلازم الجماعات في الجامع ، ولا يغشى السلاطين ولا الولاة ولاأهل الدنيا إلا عند ضرورة دينية ، وكان يخشن مأكله وملبسه ، ويحب طريق السلف الصالح ، وإذا رآه إنسان عرف الجد في وجهه ، يقوم فيما يظهر له من الحق ويأمر بما يمكنه من المعروف ، وينهى عما يقدر على النهي عنه من المنكر ، ولم يزل كذلك حتى توفي .

قال البرزالي : أحد المشايخ العارفين الصالحين ، وله كلام حسن وجمع وتأليف وهو حسن الجملة عديم التكلف وافر الإخلاص متبع للسنة حسن المشاركة في العلم سيد من السادات .

وقال الذهبي : كان إماماً فقيه النفس عارفا بمعاملات القلوب ، صحب خلقاً من المشايخ ، وأخذ عنهم أخلاق القوم [١] وطريقهم وكان حسن المجالسة متبعا للسنة محذرا من البدعة كثير الطلب ترك أباه ونعمته وتجرد ودخل الروم والجزيرة والشام ومصر والحجاز يصحب بقايا الصوفية ويقتفي آثارهم وحفظ كثيراً عنهم وعن مشايخ الطريق ، وأنفق كثيراً من الأموال من ميراثه على الفقراء .

وقرأ الفقه في شبيبته على مذهب أحمد ، وجاور بالحرمين بضع عشرة سنة وتأهل وولد له فلما لمعت له أنوار شيخنا - يعني ابن تيمية - وظفر بأضعاف تطلبه ارتحل إلى دمشق بأهله واستوطنها .

علقت عنه أشياء من تأليفه خطبة بليغة وصحبته بضع عشرة سنة وسمعت منه جزءا بإجازته من التشتبري .

قلت : سمع منه البرزالي والذهبي وذكراه في معجميهما .

٩ - وذكر في « الذيل على طبقات الحنابلة » الجزء الثاني صفحة (١٣٣) :

عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة بن مقدام بن نصر عبد الله المقدسي ثم الدمشقي الصالحي الفقيه الزاهد الإمام شيخ الإسلام وأحد الأعلام موفق الدين أبو محمد ، أخو الشيخ أبي عمر المتقدم ذكره .

ولد في شعبان سنة إحدى وأربعين وخمسمائة بجماعيل .....

---

(١) أي السادة الصوفية رحمهم الله .

ورحل إلى بغداد هو وابن خالته الحافظ عبد الغني سنة إحدى وستين وسمعا الكثير من هبة الله الدقاق وابن البطي وسعد الله الدجاجي والشيخ عبد القادر وابن تاج الفراء ...... وغيرهم .

وأقام عند الشيخ عبد القادر[1] بمدرسته مدة يسيرة فقرأ عليه من الخرقي ثم توفي الشيخ فلازم أبا الفتح بن المني وقرأ عليه المذهب والخلاف والأصول حتى برع ......

وقال سبط ابن الجوزي : كان إماما في فنون ولم يكن في زمانه - بعد أخيه أبي عمر والعماد - أزهد ولا أورع منه ، وكان كثير الحياء عزوفاً عن الدنيا وأهلها هيناً ليناً متواضعاً محبا للمساكين حسن الأخلاق جوادا سخيا من رآه كأنه رأى بعض الصحابة ، وكأنما النور يخرج من وجهه ، كثير العبادة يقرأ كل يوم وليلة سُبعا من القرآن ولايصلي ركعتي السنة في الغالب إلا في بيته اتباعا للسنة وكان يحضر مجالسي دائما في جامع دمشق وقاسيون .

وقال أيضاً : شاهدت من الشيخ أبي عمر وأخيه الموفق ونسيبه العماد مانرويه عن الصحابة والأولياء الأفراد ، فأنساني حالهم أهلي وأوطاني ثم عُدْتُ إليهم على نية الإقامة عسىٰ أن أكون معهم في دار المقامة .

وقال ابن النجار : كان الشيخ موفق الدين إمام الحنابلة بالجامع ، وكان ثقة حجة نبيلا غزير الفضل كامل العقل شديد التثبت دائم السكوت حسن السمت نزها ورعا عابدا على قانون السلف على وجهه النور ، وعليه الوقار والهيبة ، ينتفع الرجل برؤيته قبل أن يسمع كلامه ، صنف التصانيف المليحة في المذهب والخلاف وقصده التلامذة والأصحاب وسار اسمه في البلاد واشتهر

---

(١) الإمام الرباني والقطب الصمداني الشيخ عبد القادر الجيلاني إليه مرجع سلاسل الطريقة القادرية .

ذكره ، وكان حسن المعرفة بالحديث وله يد في علم العربية .

وقال عمر بن الحاجب الحافظ في معجمه : هو إمام الأئمة ومفتي الأمة خصه الله بالفضل الوافر والخاطر الماطر والعلم الكامل طنت في ذكره الأمصار وضنت بمثله الأعصار ، وقد أخذ بمجامع الحقائق النقلية والعقلية ، فأما الحديث فهو سابق فرسانه وأما الفقه فهو فارس ميدانه وأعرف الناس بالفتيا ، وله المؤلفات الغزيرة ومأاظن الزمان يسمح بمثله . متواضع عند الخاصة والعامة حسن الاعتقاد ذو أناة وحلم ووقار ، وكان مجلسه عامرا بالفقهاء والمحدثين وأهل الخير وصار في آخر عمره يقصده كل أحد ، وكان كثير العبادة دائم التهجد لم يُر مثله ولم يَر مثل نفسه .

وبلغني من غير وجه عن الإمام أبي العباس ابن تيمية رحمه الله تعالى أنه قال : مادخل الشام ـ بعد الأوزاعي ـ أفقه من الشيخ الموفق .

وقد أفرد الحافظ الضياء سيرة الشيخ في جزئين وكذلك أفردها الحافظ الذهبي .

قال الضياء : وكان شيخنا العماد يعظم الشيخ الموفق تعظيما كثيراً ويدعو له ويقعد بين يديه كما يقعد المتعلم من العالم .

سمعت الإمام المفتي شيخنا أبا بكر محمد بن معالي بن غنيمة ببغداد يقول : ما أعرف أحدا في زماني أدرك درجة الاجتهاد إلا الموفق .

وسمعت أبا عمرو بن الصلاح المفتي يقول : مارأيت مثل الشيخ الموفق .

وقال الشيخ عبد الله اليونيني : ماأعتقد أن شخصاً ممن رأيته حصل له من الكمال في العلوم والصفات الحميدة التي يحصل بها الكمال سواه ، فإنه رحمه الله كان كاملاً في صورته ومعناه من الحسن والإحسان والحلم والسؤدد والعلوم المختلفة والأخلاق الجميلة والأمور التي مارأيتها كملت في غيره ، وقد رأيت من

كرم أخلاقه وحسن عشرته ووفور حلمه وكثرة علمه وغزير فطنته وكمال مروءته وكثرة حيائه ودوام بشره وعزوف نفسه عن الدنيا وأهلها والمناصب وأربابها ماقد عجز عنه كبار الأولياء ......

قال سبط ابن الجوزي : حكى أبو عبد الله بن فضل الأعتاكي قال : قلت في نفسي لو كان لي قدرة لبنيت للموفق مدرسة وأعطيته كل يوم ألف درهم ، قال : فجئت بعد أيام فسلمت عليه فنظر إليَّ وتبسم ، وقال : إذا نوى الشخص نية كتب له أجرها .

وحكى أبو الحسن بن حمدان الجرائحي قال : كنت أبغض الحنابلة لما شنع عليهم من سوء الاعتقاد فمرضت مرضاً شنج أعضائي وأقمت سبعة عشر يوماً لاأتحرك وتمنيت الموت ، فلما كان وقت العشاء جاءني الموفق وقرأ عليَّ آيات وقال : ﴿ **وننزل من القرآن ماهو شفاء للناس ورحمة للمؤمنين** ﴾ ومسح على ظهري فأحسست بالعافية وقام ، فقلت : ياجارية افتحي له الباب ، فقال : أنا أروح من حيث جئت وغاب عن عيني فقمت من ساعتي إلى بيت الوضوء فلما أصبحت دخلت الجامع فصليت الفجر خلف الموفق وصافحته فعصر يدي وقال : احذر أن تقول شيئاً فقلت : أقول وأقول .

وقال قوّام جامع دمشق : كان ليلة يبيت في الجامع فتفتح له الأبواب فيخرج ويعود فتغلق على حالها .

وحدث العفيف كتائب بن أحمد بن مهدي البانياسي ـ بعد موت الشيخ الموفق بأيام ـ وقال : رأيت الشيخ الموفق على حافة النهر يتوضأ فلما توضأ أخذ قبقابه ومشى على الماء إلى الجانب الآخر ، ثم لبس القبقاب وصعد إلى المدرسة ـ يعني مدرسة أخيه أبي عمر ـ ثم حلف كتائب بالله : لقد رأيته ومالي في الكذب حاجة وكتمت ذلك في حياته فقيل له : هل كانت رجلاه تغوص في الماء ؟ قال : لا إلا كأنه يمشي على وطاء ، رحمه الله .

وقرأت بخط الذهبي : سمعت رفيقنا أبا طاهر أحمد الدريبي سمعت الشيخ إبراهيم بن أحمد بن حاتم ـ وزرت معه قبر الشيخ الموفق ـ فقال : سمعت الفقيه محمد اليونيني شيخنا يقول : رأيت الشيخ الموفق يمشي على الماء .

صنف الشيخ الموفق رحمه الله التصانيف الكثيرة الحسنة في المذهب فروعاً وأصولا وفي الحديث واللغة والزهد والرقائق وتصانيفه في أصول الدين في غاية الحسن أكثرها على طريقة أئمة المحدثين مشحونة بالأحاديث والآثار بالأسانيد كما هي طريقة الإمام أحمد وأئمة الحديث ......

وانتفع بتصانيفه المسلمون عموماً وأهل المذهب خصوصاً ، وانتشرت واشتهرت بحسن قصده وإخلاصه في تصنيفها ، ولاسيا كتاب « المغني » فإنه عظم النفع به وأكثر الثناء عليه .

قال الحافظ الضياء : رأيت الإمام أحمد بن حنبل في النوم وألقى عليَّ مسألة في الفقه فقلت : هذه في الخرقي ، فقال : ماقصر صاحبكم الموفق في شرح الخرقي .

وقرأت بخط الحافظ الدبيثي قال : سمعت الشيخ علاء الدين المقدسي ـ قلت وقد أجاز لي المقدسي هذا ـ قال : سمعت شيخنا أبا العباس ابن تيمية ـ قال الذهبي وأظنني سمعت من شيخنا ابن تيمية ـ يقول : قال لي الشيخ تاج الدين عبد الرحمن بن إبراهيم القزازي : كان الشيخ عز الدين ابن عبد السلام شيخنا يرسلني أستعير له المحلى والمجلَّى من ابن عربي وقال : قال الشيخ عز الدين : مارأيت في كتب الإسلام في العلم مثل المحلى والمجلى وكتاب « المغني » للشيخ موفق الدين بن قدامة في جودتها وتحقيق مافيها .

توفي رحمه الله يوم السبت يوم عيد الفطر سنة عشرين وستمائة بمنزله بدمشق وصلي عليه من الغد وحمل إلى سفح قاسيون فدفن به وكان له جمع

عظيم امتد الناس في طرق الجبل فملؤوه .

قال أبو المظفر سبط ابن الجوزي : حكى إسماعيل بن حماد الكاتب البعدادي قال : رأيت ليلة عيد الفطر كأن مصحف عثمان قد رفع من جامع دمشق إلى السماء فلحقني غم شديد فتوفي الموفق يوم العيد .

قال : ورأى أحمد بن سعد ـ أخو محمد بن سعد الكاتب المقدسي ـ وكان أحمد هذا من الصالحين ـ قال رأيت ليلة العيد ملائكة ينزلون من السماء جملة وقائل يقول : « انزلوا بالنوبة » فقلت : ماهذا ؟ قالوا : ينقلون روح الموفق الطيبة في الجسد الطيب .

قال : وقال عبد الرحمن بن محمد العلوي : رأيت كأن النبي ﷺ مات وقبر بقاسيون يوم عيد الفطر ، قال : وكنا بجبل بني هلال فرأينا على قاسيون ليلة العيد ضوءا عظيماً ، فظننا أن دمشق قد احترقت وخرج أهل القرية ينظرون إليه ، فوصل الخبر بوفاة الموفق يوم العيد ودفن بقاسيون رحمه الله .

١٠ ـ وذكر في « الذيل على طبقات الحنابلة » الجزء الثاني صفحة (٥٢) :

محمد بن أحمد بن محمد بن قدامة بن مقدام بن نصر بن عبد الله الجماعيلي المقدسي ثم الدمشقي الصالحي الزاهد العابد الشيخ أبو عمر .

قال ابن أخته الحافظ ضياء الدين : مولده سنة ثمان وعشرين وخمسمائة .

قال أبو الفرج بن الحنبلي : حفظ الشيخ القرآن وقرأه بحرف أبي عمرو . وسمع الحديث من والده وأبي المكارم بن هلال وأبي تميم سلمان ابن الرحبي وغيرهم كثير ...... وخرج له الحافظ عبد الغني المقدسي أربعين حديثاً من رواياته وحدث بها .

وسمع منه جماعة منهم : الضياء والمنذري وروى عنه ابن خليل وولده أبو الفرج عبد الرحمن قاضي القضاة وحفظ منه مختصر الخرقي في الفقه .....

قال الحافظ الضياء : وكان الله قد جمع لـه معرفـة الفقـه والفرائض والنحو مع الزهد والعمل وقضاء حوائج الناس .

قال : وكان لايكاد يسمع دعاء إلا حفظه ودعـا بـه ولايسمع ذكر صلاة إلا صلاها ولايسمع حديثاً إلا عمل به ، وكان يصلي بالناس في نصف شعبان مائـة ركعة وهو شيخ كبير وكأنه أنشط الجماعـة ، وكان لايترك قيـام الليل من وقت شبوبته ، وسافر هو وجماعـة فقـام في الليل يصلي ويحرس الجمـاعـة وقلل الأكل في مرضه قبل موته حتى عاد كالعود ومات وهو عاقد على أصابعه يسبح .

وقال : وحـدثت عن زوجتـه قـالت : كان يقوم الليل فـإذا جـاءه النوم ، عنده قضيب يضرب به على رجليه فيذهب عنه النوم .

قال وكان كثير الصيام سفراً وحضراً .

قال ولده عبد الله : إنه في آخر عمره سرد الصوم فلامـه أهلـه فقـال : إنمـا أصـوم أغتنم أيـامي لأني إن ضعفت عجـزت عن الصـوم وإن مت انقطـع عملي وكان لا يكاد يسمـع بجنـازة إلا حضرهـا ، ولابمريض إلا عـاده ، ولاجهـاد إلا خرج فيه وكان يقرأ في الصلاة كل ليلـة سُبعـاً مرتلا ، ويقرأ سُبعـاً بين الظهر والعصر ، فإذا صلى الفجر قرأ آيات الحرس بعد أن يفرغ من التسبيح وكان قد كتب في ذلـك كراسـة وهي معلقـة في المحراب ، وربمـا قرأ فيهـا خـوفـاً من النعاس ، ثم يقرأ ويلقن إلى ارتفاع النهـار ، ثم يصلي الضحى صلاة طويلـة ، وكان يسجـد سجـدتين طويلتين إحـداهمـا في الليل والأخرى في النهـار يطيل فيهما السجود ، ويصلي بعـد أذان الظهر قبل سنتهـا في كل يوم ركعتين ، يقرأ في الأولى أول « المؤمنون » وفي الثانية آخر « الفرقان » وكان يصلي بين المغرب

والعشاء أربع ركعات يقرأ فيهن السجدة ويٰسٓ وتبارك والدخان ، ويصلي كل ليلة جمعة بين العشائين صلاة التسبيح ويطليها ، ويصلي يوم الجمعة ركعتين بمائة ﴿ **قل هو الله أحد** ﴾ وكان يصلي في كل يوم وليلة اثنتين وسبعين ركعة نافلة وله أوراد كثيرة ، وكان يزور القبور كل جمعة بعد العصر ولا ينام إلا على وضوء ، ويحافظ على سنن وأذكار عند نومه من التسبيح والتكبير والتحميد وقراءة تبارك وغيرها من القرآن ، ويقول بين سنة الفجر والفرض أربعين مرة : « ياحي ياقيوم لا إله إلا أنت » ....

وكان يقول : لاعلم إلا مادخل مع صاحبه القبر ......

وكان إذا خطب ترق القلوب ويبكي بعض الناس بكاءً كثيراً ، وكان له هيبة عظيمة في القلوب حتى كان أحد الطلبة يريد أن يسأله عن شيء فما يجسر أن يسأله وإذا دخل المسجد سكتوا وخفضوا أصواتهم ، وإذا عبر في الطريق والصبيان يلعبون هربوا وإذا أمر بشيء لايجسر أحد أن يخالفه ......

واحتاج الناس في سنة إلى المطر فطلع معهم إلى مغارة الدم ومعه نساء من محارمه واستسقى ودعا فجاء المطر حينئذ وجرت الأودية شيئاً لم يره الناس من مدة ، وله كرامات كثيرة .

وذكر بعضهم قال : جئنا مرة إلى عنده ونحن ثلاثة أنفس جياع فقدم إلينا سُكرُجة فيها لبن وكسيرات فأكلنا وشبعنا وأنا أنظر إليها كأنها لم تنقص .

قال الضياء وسمعت الإمام محمد بن أبي بكر بن عمر يقول : دعاني الشيخ مرة وكنت أخاف من ضرر الأكل فابتدأني وقال : إذا قرأ الإنسان قبل الأكل ﴿ **شهد الله أنه لاإله إلا هو** ﴾ و ﴿ **لإيلاف قريش** ﴾ ثم أكل فإنه لا يضره .

وسمعت الإمام أبا بكر عبد الله بن الحسن بن النحاس يقول : كان والدي يحب الشيخ أبا عمر فقال لي يوم جمعة : أنا أصلي الجمعة خلف الشيخ ومذهبي

أن ﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم** ﴾ من الفاتحة ، ومذهبه أنها ليست من الفاتحة ، وأخاف أن يكون في صلاتي شيء فمضينا إلى المسجد فوجدنا الشيخ فسلّم على والدي وعانقه ثم قال : ياأخي صلِّ وأنت طيب القلب فإنني ماتركت ﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم** ﴾ في نافلة ولافريضة منذ أممت بالناس فالتفت إليّ والدي وقال : احفظ .

وكان بعض الناس يرسل إلى الشيخ في كل سنة شيئاً فيقبله ، فأرسل إليه مرة دينارين فردهما ، فتألم ثم فكر فيهما فوجدهما من جهة غير طيبة ، قال : فبعث إليه غيرهما فقبلهما .

قال الضياء : وسمعت أحمد بن عبد الملك بن عثمان قال : جاء رجلان إلى الشيخ أبي عمر فقالا له : إن قراحاً قد أخذ فلاناً وحبسه فادع عليه ، فباتا عند الشيخ فلما كان من الغد قال : قضيت الحاجة ، وإذا جنازة قراح عابرة .

وأطال الضياء ترجمة الشيخ أبي عمر ، وكذلك أبو المظفر سبط ابن الجوزي في المرآة وقال : كان معتدل القامة حسن الوجه عليه أنوار العبادة ، لايزال مبتسماً نحيل الجسم من كثرة الصيام والقيام .

وكان أخوه الموفق يقول عنه : هو شيخنا ربانا وأحسن إلينا وعلمنا وحرص علينا وكان للجماعة كالوالد يقوم بمصالحهم ...... وكان يؤثرنا ويدع أهله محتاجين ، وبنى المدرسة والمصنع بعلو همته ، وكان مجاب الدعوة وماكتب لأحد ورقة للحمى إلا شفاه الله تعالى .

قال أبو المظفر : وكراماته كثيرة وفضائله غزيرة ...... قال : وأصابني قولنج عاينت منه شدة فدخل عليَّ أبو عمر وبيده خروب شامي مدقوق ، فقال : استف هذا وكان عندي جماعة فقالوا : هذا يزيد القولنج ويضره ، فما التفت إلى قولهم فأخذته من يده فأكلته ، فبرأت في الحال .

قال : وحكى الجمال البصراوي الواعظ قال : أصابني قولنج في رمضان فاجتهدوا في أن أفطر ، فلم أفعل وصعدت إلى قاسيون فقعدت موضع الجامع اليوم ، وإذا بالشيخ أبي عمر قد أقبل من الجبل وبيده حشيشة فقال : شم هذه تنفعك فأخذتها وشممتها فبرأت .

وقرأت بخط الناصح ابن الحنبلي : كان أبو عمر فقيهاً زاهداً عابداً كتب بخطه كثيراً من كتب الحديث والفقه على مذهب الإمام أحمد ، وكتاب « المغني » لأخيه وكان مع ذلك له أوراد من الصلاة والتلاوة يقوم بها ، وحج وغزا وكان شيخ جماعته مطاعاً فيهم محترماً عند نور الدين محمود بن زنكي وزاره وبنى لهم في الجبل مسجداً وسقاية .

وقال غيره : له آثار جميلة منها : مدرسة بالجبل ، وهي وقف على القرآن والفقه ، وقد حفظ القرآن فيها أمم لا يحصون .

وذكر جماعة : أن الشيخ أبا عمر قطب ، وأقام « قطب الوقت » قبل موته ست سنين .

وقال أبو المظفر : كان على مذهب السلف الصالح حسن العقيدة متمسكاً بالكتاب والسنة والآثار المروية وغيرها كما جاءت من غير طعن على أئمة الدين وعلماء المسلمين وينهى عن صحبة المبتدعين ويأمر بصحبة الصالحين .....

وتوفي رحمه الله تعالى وغسل في السحر ، ومن وصل إلى الماء الذي غسل به نشف به النساء مقانعهن والرجال عمائمهم ، ولم يتخلف عن جنازته أحد من القضاة والعلماء والأمراء والأعيان وعامة الخلق ، وكان يوماً مشهوداً .

ولما خرجوا بجنازته من الدير كان يوماً شديد الحر ، فأقبلت غمامة فأظلت الناس إلى قبره ، وكان يسمع منها دويّ كدوي النحل ، ولولا المبارز المعتمد والشجاع بن محارب وشبل الدولة الحسامي ما وصل إلى قبره من كفنه شيء

وإنما أحاطوا به بالسيوف والدبابيس .

وكان قبل وفاته بليلة رأى إنسان كأن قاسيون قد وقع أو زال من مكانه فأولوه بموته .

ولما دفن رأى بعض الصالحين في منامه تلك الليلة النبي ﷺ وهو يقول : من رأى أبا عمر ليلة الجمعة فكأنما رأى الكعبة ، فاخلعوا نعالكم قبل أن تصلوا إليه .

ومات عن ثمانين سنة ، ولم يخلف ديناراً ولا درهماً ولا قليلاً ولا كثيراً وقال غيره : حزر من حضر جنازته فكانوا عشرين ألفا .

وذكر أيضاً عن عبد المولى بن محمد : أنه كان يقرأ عند قبر الشيخ سورة البقرة ، وكان وحده فبلغ إلى قوله تعالى : ﴿ **لافارض ولابكر** ﴾ قال : فغلطت ، فرد عليَّ الشيخ من القبر ، وقال : فخفت وفزعت وارتعدت وقمت ، ثم مات القارىء بعد ذلك بأيام ، وهذه الحكاية مشهورة .

قال : وقرأ بعضهم عند قبره سورة الكهف فسمع من القبر يقول : لاإله إلا الله وذكر له عدة منامات .

وقال أبو شامة في مذيله : أول ماوقفت على قبره وزرته وجدت ـ بتوفيق الله تعالى عز وجل ـ رقة عظيمة وبكاءً صالحاً ، وكان معي رفيق لي وهو الذي عرفني قبره وجد أيضاً مثل ذلك ......

وكان والده الشيخ أبو العباس أحمد خطيب جماعيل رجلاً صالحاً زاهداً عابداً صاحب كرامات وأحوال وعبادات ومجاهدات ، قرأ في رمضان خمساً وستين ختمة ، وكان عليه مهابة عظيمة لايراه أحد إلا قبّل يده .

قال أبو الفرج ابن الحنبلي : كان له قدم في العبادة والصلاح ، سمعت

والدي يقول : لوكان نبي يبعث في زمان الشيخ أحمد بن محمد بن قدامة كان هو ، وقد حدث وروى عنه ولداه أبو عمر والموفق .

١١ ـ وذكر في « الذيل على طبقات الحنابلة » الجزء الثاني صفحة (٣٠٤) :

عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن قدامة المقدسي الجماعيلي الأصل الصالحي الفقيه الإمام الزاهد الخطيب قاضي القضاة شيخ الإسلام شمس الدين أبو محمد وأبو الفرج ابن الشيخ أبي عمر ....

وكان معظماً عند الخاص والعام عظيم الهيبة لدى الملوكَ وغيرهم كثير الفضائل والمحاسن متين الديانة والورع .

وقد جمع المحدث إسماعيل بن الخباز ترجمته وأخباره في مائة وخمسين جزءاً وبالغ ، وبقى كلما أثني عليه بنعت من الفقه أو الزهد أو التواضع سرد ماورد في ذلك بأسانيده الطويلة الثقيلة ....

وقال الذهبي في معجم شيوخه في ترجمة شمس الدين : شيخ الحنابلة بل شيخ الإسلام وفقيه الشام وقدوة العبادة وفريد وقته ، من اجتمعت الألسن على مدحه والثناء عليه ، حدث نحوا من ستين سنة وكتب عنه أبو الفتح بن الحاجب .

قال الذهبي : وكان الشيخ محيي الدين ـ يعني النووي ـ يقول : هذا أجل شيوخي . قلت : وروى عنه الشيخ محيي الدين في كتاب « الرخصة في القيام » له ، وقال حدثنا الشيخ الإمام العالم المتفق على إمامته وفضله وجلالته الفقيه أبو محمد عبد الرحمن بن الشيخ الإمام العالم العامل الزاهد أبي عمر المقدسي رضي الله عنه .

قال الذهبي : وروى عنه أيضاً الشيخ زين الدين أحمد بن عبد الدائم وهو أكبر منه وأسند وذكره في تاريخه الكبير وأطال ترجمته وذكر فضائله وعبادته

وأوراده وكرمه ونفعه العام وأنه حج ثلاث مرات فكان آخرها : قد رأى النبي ﷺ في المنام يطلبه فحج ذلك العام وحضر الفتوحات ، وأنه كان رقيق القلب سريع الدمعة كريم النفس كثير الذكر لله والقيام بالليل محافظاً على صلاة الضحى ويصلي بين العشائين ماتيسر ، ويؤثر بما يأتيه من صلة الملوك وغيرهم ، وكان متواضعاً عند العامة مترفعاً عند الملوك وكان مجلسه عامراً بالفقهاء والمحدثين وأهل الدين ، وأوقع الله محبته في قلوب الخلق ، ولم يكن في زمانه من يصلي أحسن منه ولاأتم خشوعاً ، كان كثير الدعاء والابتهال لاسيما في الأماكن المرجو فيها الإجابة وبعد قراءة آيات الحرس بالجامع بعد العشاء كثير الاهتمام بأمور الناس ، لايكاد يعلم بمريض إلا افتقده ، ولامات أحد من أهل الجبل إلا شيعه .

وقال البرزالي في تاريخه : كان الشيخ شيخ الوقت وبركة العصر ولي الحكم والخطابة والمشيخة والتدريس مدة طويلة ....

وقال اليونيني في تاريخه : شيخ الإسلام علما وزهداً وورعاً وديانة وأمانة كبير القدر جم الفضائل .... وكان أوحد زمانه في تعدد الفضائل والتفرد بالمحامد ، ولم يكن له نظير في خُلقه ورياضته وماهو عليه ، وانتفع به خلق كثير وكان على قدم السلف الصالح في معظم أحواله .

اشتغل على الشيخ شمس الدين رحمه الله خلق كثير .

وممن أخذ عنه العلم : الشيخ تقي الدين ابن تيمية والشيخ مجد الدين إسماعيل بن محمد الحراني وكان يقول : مارأيت بعيني مثله ....

قال الذهبي : ورأيت وفاة الشيخ شمس الدين بن أبي عمر بخط شيخنا شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية فمن ذلك : « توفي شيخنا الإمام سيد أهل الإسلام في زمانه وقطب فلك الأنام في أوانه وحيد الزمان حقا حقا وفريد

العصر صدقا صدقا الجامع لأنواع المحاسن والمعافى البريء عن جميع النقائص والمساوئ القارن بين خلتي العلم والحلم والحسب والنسب والعقل والفضل والخُلق والخَلق ذي الأخلاق الزكية والأعمال المرضية مع سلامة الصدر والطبع واللطف والرفق وحسن النية وطيب الطوية حتى أن كان المتعنت ليطلب له عيباً فيعوزه - إلى أن قال : وبكت عليه العيون بأسرها وعم مصابه جميع الطوائف وسائر الفرق فأي دمع ماانسجم وأي أصلٍ ما جذم ، وأي ركن ماهدم وأي فضل ماعدم ، ياله من خَطب ماأعظمه وأجل ماأقدره ومصاب ماأقحَمه ؟ وأكبر ذكره .

١٢ - وذكر في « الذيل على طبقات الحنابلة » الجزء الثاني صفحة (٣٢٩):

إبراهيم بن علي بن أحمد بن فضل الواسطي الصالحي الفقيه الزاهد العابد شيخ الإسلام بركة الشام قطب الوقت تقي الدين أبو إسحاق ...

قال الذهبي : قرأت بخط العلامة كمال الدين بن الزملكاني في حقه : كان كبير القدر له وقع في القلوب وجلالة ، ملازم للتعبد ليلاً ونهاراً ، قائم بما يعجز عنه غيره مبالغ في إنكار المنكر بائع نفسه فيه .....

وقال البرزالي : تفرد بعلو الإسناد وكثرة الرواية والعبادة ولم يخلق مثله .

١٣ - وذكر في « الذيل على طبقات الحنابلة » الجزء الثاني صفحة (٣٥١):

علي بن مسعود بن نقيس بن عبد الله الموصلي ثم الحلبي الصوفي المحدث الحافظ الزاهد أبو الحسن نزيل دمشق ......

وعني بالحديث عناية تامة ، وكانت قراءته مفسرة حسنة وحصل الأصول وكان يجوع ويشتري الأجزاء ، ويتعفف ويقنع بكسرة فيسوء خلقه مع التقوى والصلاح وكان فقيهاً على مذهب أحمد ينقل منه ، ووقف كتبه وأجزاءه وحدث وسمع منه الذهبي وجماعة .

وتوفي في صفر سنة أربع وسبعمائة بالمارستان الصغير بدمشق وحمل إلى سفح قاسيون ، فدفن به مقابل زاوية ابن قوام ، وشيعه الشيخ تقي الدين ابن تيمية وجماعة رحمه الله تعالى .

١٤ ـ وذكر في « الذيل على طبقات الحنابلة » الجزء الثاني صفحة (٣٥٣):

محمد بن عبد الله بن عمر بن أبي القاسم البغداد المقريء المحدث الصوفي الكاتب رشيد الدين أبو عبد الله بن أبي القاسم ......

وعني بالحديث وسمع الكتب الكبار والأجزاء وكتب بخطه الأجزاء والطباق وكثيراً من الكتب المطولة وخطه في غاية الحسن وخرج لنفسه سباعيات ضعيفة من طريق « خراش » ونحوه ، وكان عالماً صالحاً من محاسن البغداديين وأعيانهم ، ذا لطف وسهولة وحسن أخلاق ومن أجلاء العدول .

ولي مشيخة رباط الأجوانية بدرب راخي ببغداد ، ومشيخة دار الحديث المستنصرية ، ولبس خرقة التصوف من السهروردي ، وحدث بالكثير ، وسمع منه خلق من أهل بغداد والرحالين ، وانتهى إليه علو الإسناد ، سمعنا من جماعة من أصحابه ببغداد ودمشق .

١٥ ـ وذكر في « الذيل على طبقات الحنابلة » الجزء الثاني صفحة (٣٨٢):

عبد الله بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن الخضر ابن محمد بن تيمية الحراني ثم الدمشقي ، الفقيه الإمام الزاهد العابد القدوة المتفنن شرف الدين أبو محمد ، أخو الشيخ تقي الدين .... وكان صاحب صدق وإخلاص قانعاً باليسير شريف النفس شجاعاً مقداماً مجاهداً زاهداً عابداً ورعاً يخرج من بيته ليلاً ويأوي إليه ليلاً ، ولا يجلس في مكان معين بحيث يقصد فيه ، لكنه يأوي إلى المساجد المهجورة خارج البلد فيختلي فيها للصلاة والذكر ، وكان كثير العبادة والتأله والمراقبة والخوف من الله تعالى ذا كرامات وكشوف .

ومما اشتهر عنه أنه كثير الصدقات والإيثار بالذهب والفضة في حضره وسفره مع فقره وقلة ذات يده ، وكان رفيقه في المحمل في الحج يفتش رحله فلا يجد فيه شيئاً ثم يراه يتصدق بذهب كثير جداً ، وهذا أمر مشهور معروف عنه ، وحج مرات متعددة ....

وذكره الذهبي في المعجم المختصر فقال : كان بصيرا بكثير من علل الحديث ورجاله فصيح العبارة عالماً بالعربية .....

وذكره أيضاً في معجم شيوخه فقال : كان إماماً بارعاً فقيهاً عارفاً بالمذهب وأصوله وأصول الديانات عارفاً بدقائق العربية وبالفرائض والحساب والهيئة ...... وكان حلو المحاضرة متواضعاً كثير العبادة والخير ذا حظ من صدق وإخلاص وتوجه وعرفان وانقطاع بالكلية عن الناس قانعاً بيسير اللباس ا هـ .

توفي بدمشق وصلي عليه الظهر بالجامع وحمل إلى باب القلعة فصلي عليه هناك مرة أخرى وصلى عليه أخوه الشيخ تقي الدين وزين الدين عبد الرحمن وهما محبوسان بالقلعة وخلق معهما من داخل القلعة وكان التكبير يبلغهم وكثر البكاء تلك الساعة فكان وقتاً مشهوداً ، ثم صلي عليه مرة ثالثة ورابعة وحمل على الرؤوس والأصابع إلى مقابر الصوفية فدفن بها وحضر جنازته جمع كثير وعالم عظيم وكثر الثناء والتأسف عليه رحمه الله .

١٦ ـ وذكر في « الذيل على طبقات الحنابلة » الجزء الثاني صفحة (٣٤٩):

إبراهيم بن أحمد بن محمد بن معالي بن محمد بن عبد الكريم الرقي الزاهد العالم القدوة الرباني أبو إسحاق ......

قال الذهبي : كان إماماً زاهداً عارفاً قدوة سيد أهل زمانه ، له التصانيف الكثيرة في الوعظ ، والطريق إلى الله تعالى (منها : « أحاسن المحاسن »

في الوعظ ، اختصره من صفوة الصفوة قاله في كشف الظنون) ، والآثار والخطب ، وله النظم الرائق ، يستحق أن تطوي إلى لقياه مراحل وكان كلمة إجماع ، وكان ربما حضر السماع وتواجد .

وله اعتقاد في سليمان الكلاب - يعني رجلاً كان يخالط الكلاب ولا يصلي - وكان يغلط فيه وله يد طولى في علوم كثيرة ، ولقد كتب شيخنا كمال الدين - يعني ابن الزملكاني - في شأنه وبالغ وأحسن ترجمته .

١٧ - وذكر في « الذيل على طبقات الحنابلة » الجزء الثاني صفحة (٣٣٨):

عبد العزيز بن أبي القاسم بن عثمان بن عبد الوهاب البابصري الفقيه الأديب الصوفي عز الدين أبو محمد ، نزيل دمشق ....

قال الذهبي : سكن دمشق وأقام بالخانقاه وكان فقيهاً عالماً صالحاً . وقال في تاريخه : كان عارفاً بالفقه بصيراً بالأدب والشعر وأيام الناس ضعف بصره وطلب من الجماعة أن يسمعوا منه شيئاً لتناله بركة الحديث .

١٨ - وذكر في « الذيل على طبقات الحنابلة » الجزء الثاني صفحة (٢٨٢):

علي بن محمد بن محمد بن أبي سعد بن وضاح الشهراياني ثم البغدادي الفقيه المحدث الزاهد الكاتب كمال الدين أبو الحسن بن أبي بكر ...... وهو أحد المكثرين في الرواية فإنه سمع الكثير من الكتب الكبار والأجزاء بقراءته وقراءة غيره وخرج وصنف مصنفات ....

وسمع من الشيخ العارف علي بن إدريس اليعقوبي ولبس منه الخرقة وانتفع به وسمع بأربل وغيرها .

وحدث الشيخ بالكثير وسمع منه خلق وروى عنه ابن حصين الفخري والحافظ الدمياطي في معجمه ......

قال شيخنا صفي الدين : وكانت جنازته إحدى الجنائز المشهورة ، اجتمع لها عالم لايحصى وغلقت الأسواق يومئذ ، وشد تابوته بالحبال ، وحمله الناس على أيديهم وصلي عليه بالمحال البرانية ودفن بحضرة قبر الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه مقابل رجليه .

١٩ ـ وذكر في « الذيل على طبقات الحنابلة » الجزء الثاني صفحة (٢٨٤):

علي بن عثمان بن عبد القادر بن محمد بن يوسف بن الوجوهي البغدادي المقرئ الصوفي الزاهد شمس الدين أبو الحسن أحد أعيان أهل بغداد في زمنه ....

وقرأ بالروايات على الفخر الموصلي صاحب ابن سعدون القرطبي ، وسمع الحديث من ابن روزبة والسهروردي وغيرهما ، وكان بصيراً بالقرآن متحققاً بالأداء ديناً خيراً صالحاً ......

أنبأني غير واحد عن الظهر بن الكازروني قال : حكى لي الشيخ رشيد الدين بن أبي القاسم : إن العدل محب الدين مصدق حدثه قال : رأيت ابن الوجوهي بعد موته فقلت : مافعل الله بك ؟ فقال : نزلا عليَّ وأجلساني وسألاني ، فقلت : ألمثل ابن الوجوهي يقال ذلك ؟ فأضجعاني ومضيا ، رحمه الله .

٢٠ ـ وذكر في « الذيل على طبقات الحنابلة » الجزء الثاني صفحة (٢٨٠):

يوسف بن علي بن أحمد بن البقال البغدادي الصوفي ، عفيف الدين أبو الحجاج شيخ رباط المرزبانية .

كان صالحاً عالماً ورعاً زاهداً ، له تصانيف في السلوك منها كتاب « سلوك الخواص » أجاز لشيخنا على بن عبد الصمد البغدادي .

٢١ ـ وذكر في « الذيل على طبقات الحنابلة » الجزء الثاني صفحة (٢٧٧):

أبو القاسم بن يوسف بن أبي القاسم بن عبد السلام الأموي الحوارى الصوفي الزاهد المشهور ـ صاحب الزاوية بجوارى ـ .

كان خيرا صالحا له أتباع وأصحاب ومريدون في كثير من قرايا حوران في الجبيل والثبنية ولايحضرون سماعاً بدف .

٢٢ ـ وذكر في « الذيل على طبقات الحنابلة » الجزء الثاني صفحة (٢٦٣):

وممن قتل في تلك السنة ببغداد من أصحابنا الصالحين الشيخ الزاهد العابد أبو الحسن علي بن سليمان بن أبي العز الخباز .

وكان زاهداً صالحاً كبير القدر قدوة وله أتباع ومريدون ، وله زاوية ببغداد وأحوال وكرامات .

قال الذهبي : كان شيخنا الدباهي يصفه ويعظمه ، وكان قد سمع من الشيخ علي بن أبي بكر بن إدريس اليعقوبي الزاهد أيضاً وحدث عنه . وسمع منه الدمياطي وحدث عنه في معجمه ، وقال : قتل شهيداً في وقعة التتر في محرم سنة ست وخمسين وستمائة ، ويقال إنه ألقي على باب زاويته علىمزبلة ثلاثة أيام حتى أكلت الكلاب من لحمه وأنه كان قد أخبر عن نفسه بذلك في حياته رضي الله عنه .

وكان المستنصر بالله يزوره ويرسل الشيخ محمد الركاب دار يأتيه من خبزه فَيَسْتشفِي به .

٢٣ ـ وذكر في « الذيل على طبقات الحنابلة » الجزء الثاني صفحة (٢٦٢):

يحيى بن يوسف بن يحيي بن منصور بن المعمر بن عبد السلام الأنصاري الصرصري الزريراني الضرير الفقيه الأديب اللغوي الشاعر الزاهد جمال الدين

أبو زكريا ، شاعر العصر وصاحب الديوان السائر في الناس في مدح النبي صلى الله عليه وسلم .

كان حسان وقته ولد في سنة ٥٨٨ هـ وقرأ القرآن بالروايات على أصحاب ابن عساكر البطائحي ، وسمع الحديث من الشيخ علي بن إدريس اليعقوبي الزاهد صاحب الشيخ عبد القادر ، وصحبه ، وسلك به ولبس منه الخرقة ، وأجاز له الشيخ عبد المغيث الحربي وغيره . وحفظ الفقه واللغة ويقال : إنه كان يحفظ « صحاح الجوهري » بكماله .

وكان صالحاً قدوة عظيم الاجتهاد كثير التلاوة عفيفا صبوراً قنوعاً محباً لطريقة الفقراء ومخالطتهم ، وكان يحضر معهم السماع ويرخص في ذلك .

وكان شديداً في السنة منحرفاً على المخالفين لها ، وشعره مملوء بذكر أصول السنة ومدح أهلها وذم مخالفيها ، وله قصيدة طويلة لامية في مدح الإمام أحمد وأصحابه ....

وكان قد رأى النبي ﷺ في منامه وبشره بالموت على السنة . ونظم في ذلك قصيدة طويلة معروفة ، وقد حدث .

٢٤ - وذكر في « الذيل على طبقات الحنابلة » الجزء الثاني صفحة (١٥١):

محمد بن الخضر بن محمد بن الخضر بن علي بن عبد الله بن تيمية الحراني الفقيه المفسر الخطيب الواعظ فخر الدين أبو عبد الله بن أبي القاسم شيخ حران وخطيبها.

ولد في أواخر شعبان سنة ٥٤٢ هـ بحران وقرأ القرآن علىوالده وله عشر سنين ، وكان والده زاهداً يُعد من الأبدال ، وشرع في الاشتغال بالعلم من صغره .... وكان الشيخ فخر الدين رجلاً صالحاً يذكر له كرامات وخوارق وولي الخطابة والإمامة بجامع حران والتدريس بالمدرسة النورية بها وبنى هو مدرسة بحران أيضاً .

قـال النـاصح ابن الحنبلي : انتهت إليـه رئـاسـة حران ولـه خطبـة الجمعـة وإمامة الجامع وتدريس المدرسة النوريـة وهو واعـظ البلـد ، ولـه القبول من عوام البلد ، والوجاهـة عنـد ملوكهـا ، وكان في ملازمتـه التفسير والوعـظ مع الطريقة الظاهرة والصلاح .

٢٥ ـ وذكر في « الذيل على طبقات الحنابلة » الجزء الثاني صفحة (٥):

عبد الغني بن عبـد الواحـد بن علي بن سرور بن رافع بن حسن بن جعفر الجماعيلي المقدسي الحـافـظ الزاهـد أبو محمـد ويلقب تقي الـدين حـافـظ الوقت ومحدثه ....

رحل إلي بغداد سنة إحدى وستين هو والشيخ الموفق فأقـامـا ببغـداد أربع سنين ، وكان الموفق ميله إلى الفقه والحافظ عبد الغني ميله إلى الحديث ، فنزلا على الشيخ عبد القادر[1] ، وكان يراعيهما ويحسن إليهما ، وقرءا عليه شيئـاً من الحديث والفقه .

وحكى الشيخ الموفق أنهما أقـامـا عنـده نحواً من أربعين يومـاً ثم مـات وأنهما كانا يقرءان عليه كل يوم درسين من الفقه فيقرأ هو من « الخرقي » من حفظـه والحافظ من كتاب « الهداية »...... وقد جمع فضائل الحافـظ وسيرتـه الحـافـظ ضياء الدين في جزئين وذكر فيها أن الفقيه مكي بن عمر بن نعمـه المصري جمع فضائله أيضاً . قال الحافظ الضياء : كان شيخنـاً الحافظ لا يكاد أحد يسأله عن حـديث إلا ذكره لـه وبينـه وذكر صحتـه أو سقمـه ، ولا يُسـأل عن رجل إلا قال : هو فلان بن فلان الفلاني ويذكر نسبه .

وأنـا أقول : كان الحـافـظ عبـد الغني المقـدسي أمير المـؤمنين في الحـديث .

---

(١) الإمام الرباني والقطب الصمداني الشيخ عبد القـادر الجيلاني إمـام الصوفيـة الجليل والـذي تنتهي إليه جميع سلاسل الطريقة القادرية .

قال : وكان رحمه الله يقرأ الحديث يوم الجمعة بعد الصلاة بجامع دمشق وليلة الخميس بالجامع أيضا، ويجتمع خلق كثير ، وكان يقرأ ويبكي ويبكي الناس بكاء كثيراً حتى أن من حضر مجلسه مرة لايكاد يتركه لكثرة مايطيب قلبه وينشرح صدره فيه ، وكان يدعو بعد فراغه دعاء كثيراً ....

قال الضياء : سمعت الإمام الزاهد إبراهيم بن محمود بن جوهر البعلي يقول : سمعت العماد يعني أخا الحافظ يقول : مارأيت أحداً أشد محافظة على وقته من الحافظ عبد الغني .

قال الضياء : كان شيخنا الحافظ رحمه الله لايكاد يضيع شيئا من زمانه بلا فائدة ، فإنه كان يصلي الفجر ويلقن الناس القرآن وربما أقرأ شيئاً من الحديث ، فقد حفظنا منه أحاديث جمة تلقينا ، ثم يقوم يتوضأ فيصلي ثلاثمائة ركعة بالفاتحة والمعوذتين إلى قبل وقت الظهر ، ثم ينام نومة يسيرة إلى وقت الظهر ، ويشتغل إما للتسميع بالحديث أو بالنسخ إلى المغرب ، فإن كان صائما أفطر بعد المغرب ، وإن كان مفطرا صلى من المغرب إلى عشاء الآخرة فإذا صلىالعشاء الآخرة نام إلى نصف الليل أو بعده ، ثم قام كأن إنسانا يوقظه فيتوضأ ويصلي لحظة كذلك ، ثم توضأ وصلى كذلك ، ثم توضأ وصلى إلى قرب الفجر ..... ثم ينام نومة يسيرة إلى الفجر وهذا دأبه ......

قال الضياء : وكان قد وضع الله له الهيبة في قلوب الخلق ..... قال وماأعرف أحدا من أهل السنة رأى الحافظ إلا أحبه حبًا شديدًا ومدحه مدحًا كثيرًا.

سمعت أبا الثناء محمود بن سلامة الحراني بأصبهان قال : كان الحافظ بأصبهان يصطف الناس في السوق فينظرون إليه .

وسمعته يقول : لو أقام الحافظ بأصبهان مدة وأراد أن يملكها لملكها ـ يعني من حُبِّهم له ورغبتهم فيه ـ ولما وصل إلى مصر أخيرا كنا بها فكان إذا خرج

يوم الجمعة إلى الجامع لانقدر نمشي معه من كثرة الخلق يتبركون به ويجتمعون حوله ....

وسمعت أبا محمد عبد الرحمن بن إبراهيم المقدسي قال : سألت الحافظ فقلت : هؤلاء المشايخ يحكىٰ عنهم من الكرامات مالا يحكى عن العلماء إيش السبب في هذا ؟ فقال : اشتغال العلماء بالعلم كرامات كثيرة ، أو قال : يريد للعلماء كرامة أفضل من اشتغالهم بالعلم . وقد كان للحافظ كرامات كثيرة .

قال الضياء : سمعت أحمد بن عبد الله بن علي العراقي حدثني أبو محمد بن أبي عبد الله الدمياطي قال : اكتريت في مركب فرأيته عايبا فضاق صدري ، فذكرت قصته للحافظ فكتب لي كتاباً وقال : اتركه فيه فإذا مضيت سفرك وخرجت منه فخذ الكتاب ولاتتركه فيه فمضيت وعلقته في المركب فمضينا في سفرنا فلما نزلنا منه وأخذنا قماشنا ولم يبق فيه شيء ذكرت الكتاب فأخذته منه ، فمن ساعته دخل الماء فيه وغرق.......

وسمعت أبا محمد عبد الرحمن بن محمد بن عبد الجبار المقري قال : كان لأهل بيتي ثوب من ثياب الحافظ يدخرونه للموت وملحفة من أثر أمه قال : فسرق مافي بيتنا من الثياب ، ففتشوا على الثوب والملحفة فلم يجدوهما فحزنوا عليهما ، فلما كان بعد مدة وجدوهما في الصندوق ، وقد كانوا فتشوا قبل ذلك ولم يجدوهما .

قال الضياء : وكنت أنا وجماعة نسمع على الحافظ بالمصلى الذي بجبلنا في شدة الحر فقال : لو كنا نقوم من هذا الحر إلى المسجد ، فهممنا بالقيام ولعل بعضنا قام ، فإذا سحابة قد غطت الشمس فقال : اقعدوا فرأيت بعض أصحابنا ينظر إلى بعض ويسرون الكلام بينهم : « إن هذه كرامة » ويقولون : « ماكان يُرى في السماء سحابة » ، وذكر الضياء أشياء كثيرة من هذا الجنس . قال : وسمعت الحافظ يقول : رأيت النبي ﷺ في النوم يمشي وأنا أمشي خلفه

إلا أن بيني وبينه رجلاً ......

قال : وسمعت الحافظ أبا موسى ابن الحافظ قال : كنت عند والدي وهو يذكر فضائل سفيان الثوري ، فقلت في نفسي : إن والدي مثله فالتفت إليَّ وقال : أين نحن من أولئك .

وسمعت أبا موسى أيضاً يحدث عن رجل بدمياط قال : كنت يوما عند الحافظ فقلت في نفسي : كنت أشتهي لو أن الحافظ يعطيني الثوب الذي يلي جسده حتى أكفن فيه ، فلما أردت القيام قال : لاتبرح فلما انصرف الجماعة خلع ثوبه الذي يلي جسده وأعطانيه .

قال فبقي الثوب عندنا ، وكل من مرض أو وجع رأسه تركوه عليه حتى يبرأ بإذن الله تعالى .

وسمعت أبا الرضى محمد بن عبد الرحمن بن إبراهيم المقدسي قال : وقع لي أن أسأل الحافظ عن شيء من ذكر أصحاب النبي ﷺ فمضيت إليه فوجدت عنده جماعة ، فاستحييت أن أسأله وقعدت ، فذكر ماكنت أريد أن أسأله عنه وبيَّنه .

وسمعت أبا علي فارس بن عثمان بن عبد الله الدمشقي يذكر عن رجل عن آخر قال : خرجنا جماعة إلى الجبل فقعدنا على النهر فقال بعضنا : اشتهينا لو أن الحافظ جاء ومعه جزء يقرأ لنا فيه أخبارا ، فقال آخر : ويجيء معه بحلاوة فلم نلبث إلا والحافظ قد جاء فقال له بعضنا : لو كنت جئت معك بشيء تقرأ لنا فيه؟ فأخرج جزءا من كمه وقال : قد جئت بالجزء والحلاوة .

وسمعت الحافظ أبا موسى يقول : قالت لي والدتي : قدمنا يوما لوالدك طبيخا من طبيخ فلان ـ لرجل سماه لي ـ وكان الحافظ لايشتهي أن يأكل من طعامه فأخذ لقمة ورفعها إلى فيه ، ثم نظر إليه وقال : هذا من طبيخ فلان

ارفعوه ، ولم يأكل منه شيئا .

قال الضياء : فسألت خالتي رابعة بنت أحمد بن محمد بن قدامة ـ امرأة الحافظ ـ بعد ذلك عن هذه الحكاية فحدثتني بها .

قال : وسمعت أبا موسى يقول : أوصاني أبي عند موته : لاتضيعوا هذا العلم الذي تعبنا عليه ـ يعني الحديث ـ فقلت ماتوصي بشيء ؟ قال : مالي على أحد شيء ولا لأحد عليَّ شيء ، قلت : توصيني بوصية ؟ قال : يابني أوصيك بتقوى الله والمحافظة على طاعته ، فجاء جماعة يعودونه فسلموا عليه فرد عليهم وجعلوا يتحدثون ففتح عينيه وقال : ماهذا الحديث اذكروا الله تعالى قولوا لاإله إلا الله فقالوها ثم قاموا ، فجعل يذكر الله ويحرك شفتيه بذكره ويشير بعينيه ، فدخل رجل فسلم عليه وقال له : ماتعرفني ياسيدي ؟ فقال : بلى ، فقمت لأناوله كتاباً من جانب المسجد ، فرجعت وقد خرجت روحه ، وذلك يوم الإثنين الثالث والعشرين من شهر ربيع الأول من سنة ستمائة ، وبقي ليلة الثلاثاء في المسجد ، واجتمع الغد خلق كثير من الأئمة والأمراء مالايحصيهم إلا الله عز وجل ، ودفناه يوم الثلاثاء بالقرافة مقابل قبر الشيخ أبي عمرو بن مرزوق في مكان ذكر لي خادمه عبد المنعم أنه كان يزور ذلك المكان ويبكي فيه إلى أن يبل الحصى ، ويقول : قلبي يرتاح إلى هذا المكان . رحمه الله ورضي عنه وألحقه بنبينا محمد ﷺ ....

قال الضياء : سمعت أبا إسحاق إبراهيم بن محمود البعلي قال : جاء قوم من التجار إلى الشيخ العماد ـ وأنا عنده ـ فحدثوه أن النور يُرى على قبر الحافظ عبد الغني كل ليلة أو كل ليلة جمعة.

قال : وسمعت الشيخ عبد الرحمن بن حسن بن عبد الله الكردي ـ بحران ـ يقول : رأيت الحافظ في المنام فقلت له : ياسيدي أليس قد مِتَّ ؟فقال : إن الله عز وجل أبقىً عليَّ وردي من الصلاة ....

وقد ذكر الضياء غير ذلك من المنامات المرئية لـه في حيـاتـه وبعـد مماتـه رضي الله عنه . وقد سمع الحديث من الحافظ عبـد الغني الخلق الكثير وحـدث بـأكثر البـلاد التي دخلهـا كبغـداد ودمشـق ومصر ودميـاط وأصبهـان وحـدث بالإسكندرية سنة سبعين وخمسمائة ، وروى عنه خلق كثير ....

سئل عمن كان في زيادة من أحواله فحصل له نقص ؟

فـأجـاب : أمـا هـذا ، فيريـد المجيب عنـه أن يكون من أربـاب الأحوال وأصحاب المعاملة ، وأنا أشكو إلى الله تقصيري وفتوري عن هـذا وأمثـالـه من أبواب الخير[1] ، وأقول وبـالله التـوفيـق : إن من رزقـه الله خيراً من عمـل أو نور قلب ، أو حالة مرضية في جوارحه وبدنه فليحمـد الله عليهـا وليجتهـد في تقييدها بكمالها وشكر الله عليها ، والحذر من زوالها بزلة أو عثرة ، ومن فقدهـا فليكثر من الاسترجاع ويفزع إلى الاستغفـار والاستقـالـة والحزن على مـافـاتـه والتضرع إلى ربه والرغبة إليه في عودها إليه ، فإن عادت وإلا عاد إليه ثوابهـا وفضلها إن شاء الله .

وسئل مرة أخرى في معنى ذلك ؟

فأجاب : أما فقدان مانجـده من الحلاوة واللـذة فلا يكون دليلا على عـدم القبول ، فإن المبتـديء يجـد مـايجـد المنتهي ، فـإنـه ربمـا ملَّت النفس وسئمت لتطاول الزمان وكثرة العبـادة ، وقـد روي عن رسول الله ﷺ أنـه كان ينهى عن كثرة العبادة والإفراط فيها ويأمر بالاقتصـاد خوفـاً من المَلَلِ ، وقـد روي أن أهل اليمن لما قدموا المدينة جعلوا يبكون ، فقـال أبو بكر رضي الله عنـه : هكذا كنا حتى قست قلوبنا .

---

(١) لاحظ تواضعه رحمه الله وكذا لاحـظ أنـه كيف يشكو إلى الله تقصيره وفتوره في أمور التصوف مع علو مرتبته وعظم شأنه في علوم الحديث وفنونه فتمعن .

٢٦ ـ وذكر في « الذيل على طبقات الحنابلة » الجزء الثاني صفحة (٦٣):

محمود بن عثمان بن مكارم النعال البغدادي الأزجى الفقيه الواعظ الزاهد أبو الثناء ويقال أبو الشكر ويلقب ناصر الدين .

قرأ القرآن وسمع الحديث من أبي الفتح بن البطي وحدث ، وحفظ مختصر الخرقي وقرأ على أبي الفتح بن المنى ، وصحب الشيخ عبد القادر[١] وتأدب به.

وكان يطلع الفقه والتفسير ويجلس في رباطه للوعظ ، وكان رباطه مجمعاً للفقراء وأهل الدين وللفقهاء الحنابلة الذين يرحلون إلى أبي الفتح بن المنى للتفقه عليه ، فكانوا ينزلون به حتى كان الاشتغال فيه بالعلم أكثر من الاشتغال بسائر المدارس .

وكان الرباط شعث الظاهر عامرا بالفقهاء والصالحين ، سكنه الشيخ موفق الدين المقدسي والحافظ عبد الغني وأخوه الشيخ العماد والحافظ عبد القادر الرهاوي وغيرهم من أكابر الرحالين لطلب العلم[٢] ....

قال أبو شامة : كانت له رياضات ومجاهدات ، وساح في بلاد الشام وغيرها ، وكان يؤثر أصحابه وانتفع به خلق كثير ، وكان مهيبا لطيفاً كيّساً باشّا مبتسمًا يصوم الدهر ويختم القرآن كل يوم وليلة ، ولا يأكل إلا من غزل عمته.

توفي ليلة الأربعاء عاشر صفر سنة تسع وستمائة عن أزيد من ثمانين سنة ودفن تلك الليلة برباطه رحمه الله .

---

(١) هو الإمام الرباني والقطب الصمداني الشيخ عبد القادر الجيلاني سيد الصوفية ، وإليه منتهى سلاسل الطريقة القادرية .

(٢) لاحظ أن هؤلاء السادة وهم أساطين العلم قد تربوا في أحضان التصوف في رباط السادة الصوفية .

٢٧ ـ وذكر في « الذيل على طبقات الحنابلة » الجزء الثاني صفحة (٧٧):

محمد بن معالي بن غنيمة البغدادي المأموني المقرئ الفقيه الزاهد أبو بكر ابن الحلاوي ويلقب عماد الدين ، سمع من أبي الفتح بن الكروخي وغيره ، وتفقه على أبي الفتح بن المنى وهو من فقهاء أصحابه وبرع في المذهب وانتهت إليه معرفته مع الديانة والورع والانقطاع عن الناس .

قال ابن القطيعي : هو رجل صالح ، له مكان في الورع مقيم بمسجده بالمأمونية مقبل علىماينفعه من أمر آخرته والتفرد والعزلة . وأثنى عليه ابن القادسي كثيرا وقال : كانت له اليد الباسطة في المذهب والفتيا ، وكان ملازماً لزاويته في المسجد قليل المخالطة إلا لمن عساه يكون من أهل الدين ، ماألم بباب أحد من أرباب الدنيا ، وماقبل لأحد هدية ، وكان أحد الأبدال الذين يحفظ الله بهم الأرض ومن عليها .

٢٨ ـ وذكر في « الذيل على طبقات الحنابلة » الجزء الثاني صفحة (٩٣):

إبراهيم بن عبد الواحد بن علي بن سرور المقدسي الدمشقي الفقيه الزاهد الورع العابد الشيخ عماد الدين أبو إسحاق وأبو إسماعيل أخو الحافظ عبد الغني الذي تقدم ذكره .

قال الشيخ موفق الدين في حق العماد لما سئل عنه : كان من خيار أصحابنا وأعظمهم نفعاً وأشدهم ورعاً وأكثرهم صبراً على تعليم القرآن والفقه ، وكان داعية إلى السنة وتعليم العلم والدين وكان يقريء الضعفاء الفقراء ويطعمهم ويبذل لهم نفسه ، وكان من أكثر الناس تواضعاً واحتقاراً لنفسه وخوفاً من الله تعالى ، وماأعلم أنني رأيت أشد خوفاً منه ، وكان كثير الدعاء والسؤال لله تعالى ، وكان يطيل الركوع والسجود في الصلاة ، ويقصد أن يقتدي بصلاة رسول الله ﷺ ولايقبل من أحد يعذله في ذلك ، ونقلت له كرامات كثيرة ....

قال الضياء : ولعله ماقعد عنده أحد إلا حصل له منفعة في العلم والزهد أو اقتباس شيء من أخلاقه وأوراده وغير ذلك ، وكان يذم نفسه ذماً كثيراً ويحقرها ويقول : إيش يجيء مني ؟ إيش أنا ؟ وكان كثير التواضع قال : وكان من إكرامه لأصحابه ومعارفه يظن كل أحد أن ماعنده مثله من كثرة ما يأخذ بقلبه ويكرمه ....

قال وأوصاني وقت سفري فقال : أكثر من قراءة القرآن ولاتتركه فإنه يتيسر لك الذي تطلبه على قدر ماتقرأ ، قال : فرأيت ذلك وجربته كثيراً ، فكنت إذا قرأت كثيرا يتيسر لي من سماع الحديث وكتابته الكثير ، وإذا لم أقرأ لم يتيسر لي ....

قال : وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً ، قال : وكان كثير الدعاء بالليل والنهار . قال : وكان إذا دعا كأن القلب يشهد بإجابة دعائه من كثرة ابتهاله وإخلاصه وكان إذا شرع في الدعاء لايكاد يقطعه ولو اجتمع أهله وجيرانه فيدعو وهم حاضرون ويستبشرون بذلك ، وكان يفتح عليه من الأدعية شيء ماسمعته من غيره قط ، وربما بكى بعض الحاضرين عند دعائه ، وذكر من توخيه أوقات الإجابة وأماكنها ، ويواظب على الدعاء يوم الأربعاء بين الظهر والعصر بمقابر الشهداء من باب الصغير ، وقال : مارأيت مثل هذا الدعاء أو أسرع إجابة منه : ياالله ياالله أنت الله ، بلى والله أنت الله ، لاإله إلا أنت الله الله ، والله إنه لاإله إلا أنت ....

وذكر جملة من كراماته وكلامه على الخواطر والمغيبات .

فذكر عن بعضهم قال : كنت أمشي خلف الشيخ العماد في السوق الكبير فإذا صوت طنبور فلما وصلنا إلى عند صاحبه قال الشيخ : لاحول ولاقوة إلا بالله العلي العظيم ونفض كمه ، فرأيت صاحب الطنبور قد وقع وانكسر طنبوره ، فقيل لصاحب الطنبور : إيش بك ؟ قال : لاأدري .

قال : وسمعت أبا محمد عبد المحسن بن عبد الكريم قال : كنت خلف الشيخ العماد فوقع في نفسي : إن الناس لايعلمون من بعضهم بعضاً إلا الظاهر وأن سرائر الخلق لايعلمونها ، وإذا الشيخ قد دار إليَّ وقال : « قال ـ أظنه الفضيل ـ لاتعمل شرا أو سوءا فتمقتك قلوب الصالحين » .

وسمعت علي بن أبي بكر بن إدريس الطحان قال : كان لي ابن مريض فقلت : أدعو بدعاء مقاتل بن سليمان مائة مرة ، فدعوت به ثم جئت إليه ، فالتفت إليَّ وإلى الحاضرين وقال : دعاء بلا عمل لاينفع ، أو كما قال .

قال : وحكت زوجة الشيخ قالت : كان قبل موته يكثر أن يقول : قد قرب الأمر ومابقي إلا القليل .

وذكر الحافظ الضياء في كتاب « الحكايات المقتبسة من كرامات مشايخ الأرض المقدسة » فصلاً في كراماته ـ وقرأته بخطه ـ قال : سمعت الشيخ المجاب الدعوة أبا أحمد نصر بن محمد بن سليمان المردادي بها يقول : جاء إلى عندنا الشيخ العماد وكنت أشتهي أن أساله عن أشياء فكنت أستحي ، فكان يبتدئ ويذكر كل ماأريد أن أسأل عنه .

قال : وحدثني أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن عبد الجبار قال : كنت كثيراً ماأجيء إليه وأنا أريد أن أقول شيئاً فيسبقني فيتحدث ببعضه ، فإذا رآني قد ابتدأت فيه سكت ولم يراني أنه يريد ذلك .

قال الضياء : وكنت أجد في قلبي قسوة ، وكنت أشتهي أن أشكو إليه ذلك ، فابتدأني ليلة وذكر قسوة القلب وقال : كيف يلين القلب إذا لم يكن العمل بإخلاص النية ؟ وتكلم كلاماً كثيراً مما كنت أجد في نفسي ، وفرحت بكلامه . وسمعت الإمام أبا الفداء إسماعيل بن عمر بن أبي بكر قال : أخذت يوماً من عند رجل أجزاء كانت لي عنده وإجازات ، فكان في جملة ماأخذت إجازة لم تكن معي ، ثم جئت إلى عند الشيخ فأبصر الأجزاء ثم شال الإجازة

التي اختلطت معي فقال : من أعطاك هذه ؟ ثم عزلها .

قال : فعرفت أنها كرامة في حقه ، وذكر من تيسير القرآن والعلم على من قرأ عليه أمرا عجيباً .

قال : وسمعت ظريفة بنت إبراهيم تقول : قال لي أحمد بن سالم : أنا أعرف في الجبل خمسة من الصالحين ـ أو قال : من الأولياء ـ فسمى منهم : الإمام إبراهيم بن عبد الواحد .

أحمد بن سالم ـ هذا ـ مرداوي ، كان عالماً عاملاً ذا كرامات كثيرة ذكرها أيضاً في هذا الكتاب .

قال : وحدثني عبد الرحمن بن محمد بن عبد الجبار أن زوجته عائشة بنت خلف بن راجح حدثته : أنها رأت في النوم قائلاً يقول : قولوا للعماد يدعو لكم ، فإنه من السبعة التي تقوم بهم الأرض .

وقد ذكره أبو المظفر سبط ابن الجوزي في تاريخه وأثنى عليه ثناء كثيراً وقال : ماتحرك بحركة ولامشى خطوة ولاتكلم كلمة إلا لله تعالى وكان يتعبد بالإخلاص ....

قال : وسمعت الفقيه الإمام أبا محمد عثمان بن حامد بن حسن المقدسي يقول : رأيت الحق عز وجل في النوم والشيخ العماد عن يمينه ووجهه مثل البدر وعليه لباس مارأيت مثله .

قال : وسمعت الفقيه الإمام عبد الحميد بن محمد بن ماضي المقدسي يقول : شممت من قبر الشيخ العماد رائحة طيبة . رحمه الله تعالى .

وقد حدث بالكثير وسمع منه خلق كثير من الحفاظ والأئمة كالضياء والمنذري وروى عنه ابن خليل وابن البخاري .

* * *

الإمام ابن تيمية الحراني

شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية
الحراني الدمشقي الحنبلي

قبل أن نشرع في ذكر قطع متنوعة من كلام ابن تيمية من مؤلفاته المختلفة سنذكر أولاً أجزاء متفرقة من رسالة طويلة لأحد أصحابه الكبار وهو الشيخ عماد الدين ابن شيخ الحزاميين ، ثم أجزاء متناثرة من أربعة قصائد في رثاء شيخ الإسلام ابن تيمية نظمها أصحابه ومحبوه ، يظهر منها واضحاً أنه كان عندهم شيخ طريقة وإمام تصوف حائز على درجة القطبية في هذا المجال مع إمامته في بقية شعب الدين وعلو كعبه في العلوم والفنون المختلفة ، ثم نردفها بقطع من كلام بعض المؤلفين المعاصرين المحققين الذين صرحوا بعلاقة شيخ الإسلام ابن تيمية الوثيقة بالتصوف والسادة الصوفية رحمهم الله ، ثم بعد ذلك كله نأتي إن شاء الله بكلامه من مؤلفاته المتنوعة .

يقول الإمام السلفي الحافظ محمد بن أحمد بن عبد الهادي الحنبلي في تأليفه « العقود الدرِّية من مناقب شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية » في طبعة مطبعة المدني بالقاهرة صفحة (١٩٢) مانصه :

(وكان مجموع غيبته عن دمشق سبع سنين وسبع جمع [١] ، وقد توفي في أثناء غيبة الشيخ عن دمشق غير واحد من كبار أصحابه وساداتهم .

منهم الشيخ الإمام القدوة الزاهد العارف عماد الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن الواسطي المعروف بابن شيخ الحزاميين [٢] .

توفي يوم السبت السادس والعشرين من شهر ربيع الآخر من سنة إحدى

---

(١) وقد وصل دمشق بعدَ غيبته هذه في أول يوم من شهر ذي القعدة سنة اثنتي عشرة وسبعمائة .

(٢) قد مر ذكره أيضاً فيا ذكرنا من قطع مختلفة من كلام الإمام الحافظ ابن رجب الحنبلي برقم (٧) فيه فراجعه .

عشرة وسبعمائة .

وكان رجلاً صالحاً ورعاً كبير الشأن منقطعاً إلى الله متوافرا على العبادة والسلوك . وكان قد كتب رسالة وبعثها إلى جماعة من أصحاب الشيخ وأوصاهم فيها بملازمة الشيخ والحث على اتباع طريقته وأثنى فيها على الشيخ ثناءً عظيماً وهذه نسخة الرسالة التي كتبها :

كتاب نفيس جداً للشيخ عماد الدين
في الثناء على الشيخ ابن تيمية والوصاية به

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسبحان الله وبحمده ، تقدس في علوه وجلاله ، وتعالى في صفات كماله ، وتعاظم في سُبُحات فردانيته وجماله ، وتكرّم في أفضاله وجمال نواله ، جلّ أن يمثّل بشيء من مخلوقاته ، أو يحاط به بل هو المحيط بمبتدعاته لاتصوره الأوهام ولاتقله الأجرام ولايعقل كنه ذاته البصائر ولا الأفهام ..... وبعد فهذه رسالة سطرها العبد الضعيف الراجي رحمة ربه وغفرانه وكرمه وامتنانه أحمد بن إبراهيم الواسطي عامله الله بما هو أهله ، فإنه أهل التقوى وأهل المغفرة ، إلى إخوانه في الله السادة العلماء والأئمة الأتقياء ذوي العلم النافع والقلب الخاشع والنور الساطع الذين كساهم الله كسوة الاتباع ، وأرجو من كرمه أن يحققهم بحقائق الانتفاع : السيد الأجل العالم الفاضل فخر المحدثين ومصباح المتعبدين المتوجه إلى رب العالمين تقي الدين أبي حفص عمر بن عبد الله بن عبد الأحد بن شقير ، والشيخ الأجل العالم الفاضل السالك ذي العلم والعمل والمكتسي من الصفات الحميدة أجمل الحلل الشيخ شمس الدين محمد بن عبد الأحد الآمدي و .... و ... و ... و ... و .... وغيرهم من اللائذين بحضرة شيخهم وشيخنا السيد الإمام الأمة الهمام محي السنة وقاطع البدعة ناصر

١

الحديث مفتي الفرق الفائق عن الحقائق وموصلها بالأصول الشرعية للطا
الذائق الجامع بين الظاهر والباطن ، فهو يقضي بالحق ظاهرا وقلبه في ال
قاطن ، أنموذج الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين الذين غابت عن القلو
سيرهم ونسيت الأمة حذوهم وسبلهم فذكرهم بها الشيخ وكان في دارس نهج
سالكا ولموت حذوهم محييا ، ولأعنة قواعدهم مالكاً الشيخ الإمام تقي الدين
العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية أعاد الله علينا بركته ور
إلى مدارج العلى درجته وأدام توفيق السادة المبدوّ بذكرهم وتسديدهم ، وأجز
لهم حظهم ومزيدهم .

السلام عليكم معشر الإخوان ورحمة الله وبركاته ، جعلنا الله وإياكم مم
ثبت على قرع نوائب الحق جأشه واحتسب لله مابذله من نفسه في إقام
دينه ، وما احتوشته من ذلك وحاشه واحتذى حذو السبَّق الأولين من
المهاجرين والأنصار والذين لم تأخذهم في الله لومة لائم ، فما ضرهم من خذلهم
ولامن خالفهم مع قلة عددهم في أول الأمر ، فكانوا مع ذلك كل منهم مجاهد
بدين الله قائم ، ونرجو من كرم الله تعالى أن يوفقنا لأعمالهم ويرزق قلوبنا
قسطاً من أحوالهم وينظمنا في سلكهم تحت سَجَفَتِهم ولوائهم مع قائدهم
وإمامهم سيد المرسلين وإمام المتقين محمد صلوات الله عليه وعلى آله وأصحابه
أجمعين ....

ومعلوم أن الناس يتفاوتون في مقامات الحب والخشية في مقام أعلى من
مقام ، ونصيب أرفع من نصيب ، فلتكن همة أحدنا من مقامات الحب
والخشية أعلاه ، ولايقنع إلا بذروته وذراه ، فالهمم القصيرة تقنع بأيسر نصيب
والهمم العلية تعلو مع الأنفاس إلى قريب الحبيب لايشغلنا عن ذلكم ما هو
دونه من الفضائل ، والعاقل لايقنع بأمر مفضول عن حال فاضل ، ولتكن
الهمة منقسمة على نيل المراتب الظاهرة وتحصيل المقامات الباطنة ، فليس من

الإنصاف الانصباب إلى الظواهر والتشاغل عن المطـالب العلويـة ذوات الأنوار البواهر .

وليكن لنـا جمعيـاً بين الليل والنهـار سـاعـة ، نخلو فيهـا بربنـا جل اسمـه وتعالى قدسه نجمع بين يديه في تلك الساعة همومنا ، ونطرح أشغال الدنيـا من قلوبنا ، ونزهد فيما سوى الله ساعة من نهار ، فبذلك يعرف الإنسان حالـه مع ربه ، فمن كان له مع ربـه حـال تحركت في تلـك السـاعـة عزائمـه ، وابتهجت بالمحبة والتعظيم سرائره ، وطارت إلى العلى زفراتـه وكوامنـه ، وتلـك السـاعـة أنموذج لحالة العبد في قبره حين خلوه عن ماله وحبه فمن لم يخل قلبه ساعة من نهار لما تحوشتـه من الهموم الـدنيويـة وذوات الآصـار ، فليعلم أنـه ليس لـه ثم رابطة علوية ولانصيب من المحبة ولا المحبوبية فليَبْكِ على نفسه ولا يرضى منها إلا بنصيب من قرب ربه وأنسه . فإذا حصلت لله تلـك السـاعـة أمكن إيقـاع الصلـوات الخمس على نمطهـا من الحضـور والخشـوع والهيبـة للرب العظيم في السجود والركوع .

فلا ينبغي لنـا أن نبخل على أنفسنـا في اليـوم والليلـة من أربـع وعشرين ساعة بساعة واحدة لله الواحد القهار ، نعبده فيهـا حق عبـادتـه ثم نجتهـد على إيقاع الفرائض على ذلك النهج في رعايته وذلك طريق لنا جمعياً إن شـاء الله تعالى إلى النفوذ ، فالفقيه إذا لم ينفذ في علمه حصل له الشطر الظـاهر وفـاتـه الشطر الباطن لاتصاف قلبه بالجمود وبعده في العبـادة والتلاوة عن لين القلوب والجلـود كما قـال تعـالى : ﴿ **تقشعر منــه جلـود الـذين يخشـون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله** ﴾ .

وبذلـك يرتقي الفقيـه عن فقهـاء عصرنـا ويتميز بـه عنهم ، فـالنـافـذ من الفقهاء له البصيرة المنورة والذوق الصحيح والفراسة الصـادقـة والمعرفـة التـامـة والشهـادة على غيره بصحيـح الأعمـال وسقيمهـا ومن لم ينفـذ لم تكن لـه هـذه

الخصوصية وأبصر بعض الأشياء وغاب عنه بعضها . .

فيتعين علينا جميعاً طلب النفوذ إلى حضرة قرب المعبود ولقائه بذوق الإيقان لنعبده كأننا نراه ، كما جاء في الحديث ....

أصبحتم إخواني تحت سَنْجَق رسول الله ﷺ إن شاء الله تعالى مع شيخكم وإمامكم وشيخنا وإمامنا المبدوء بذكره رضي الله عنه قد تميزتم عن جميع أهل الأرض فقهائها وفقرائها وصوفيتها وعوامها بالدين الصحيح .

وقد عرفتم ماأحدث الناس من الإحداث في الفقهاء والفقراء والصوفية والعوام ...... ثم اعرفوا إخواني حق ماأنعم الله عليكم من قيامكم بذلك واعرفوا طريقكم إلى ذلك ، واشكروا الله تعالى عليها ، وهو أن أقام لكم ولنا في هذا العصر مثل سيدنا الشيخ الذي فتح الله به أقفال القلوب ، وكشف به عن البصائر عمى الشبهات وحيرة الضلالات ، حيث تاه العقل بين هذه الفرق ، ولم يهتد إلى حقيقة دين الرسول ﷺ .

ومن العجب أن كلا منهم يدعي أنه على دين الرسول حتى كشف الله لنا ولكم بواسطة هذا الرجل عن حقيقة دينه الذي أنزله من السماء وارتضاه لعباده . واعلموا أن في آفاق الدنيا أقواماً يعيشون أعمارهم بين هذه الفرق يعتقدون أن تلك البدع حقيقة الإسلام فلا يعرفون الإسلام إلا هكذا .

فاشكروا الله الذي أقام لكم في رأس السبعمائة من الهجرة من بيَّن لكم أعلام دينكم وهداكم الله به وإيانا إلى نهج شريعته ، وبيَّن لكم بهذا النور المحمدي ضلالات العبّاد وانحرافاتهم فصرتم تعرفون الزائغ من المستقيم والصحيح من السقيم وأرجو أن تكونوا أنتم الطائفة المنصورة الذين لايضرهم من خذلهم ولا من خالفهم وهم بالشام إن شاء الله تعالى .

فصل

ثم إذا علمتم ذلك ، فاعرفوا حقّ هذا الرجل الذي هو بين أظهركم وقـدره ، ولا يعرف حقـه وقـدرَه إلا من عرف دين الرسـول ﷺ وحقـه وقـدره ، فمن وقع دين الرسول ﷺ من قلبه بموقع يستحقه عرف حق ماقام به هـذا الرجل بين أظهر عباد الله يقوِّم معوجهم ويصلح فسـادهم ويلم شعثهم جهـد إمكانـه في الزمـان المظلم الـذي انحرف فيـه الـدين وجهلت السنن وعهـدت البـدع وصـار المعروف منكرا والمنكر معروفاً والقـابض على دينـه كالقـابض على الجمر ، فـإن أجر من قام بإظهار هذا النور في هـذه الظلمـات لايوصف وخطره لايعرف ، هذا إذا عرفتموه أنتم من حيثية أخرى من الأمر البـاطن ومن يقوده إلى معرفـة أسماء الله تعالى وصفاته وعظمة ذاته واتصال قلبه بأشعـة أنوارهـا ، والاحتظـاء من خصائصها وأعلى أذواقها ، ونفوذه من الظاهر إلى الباطن ومن الشهادة إلى الغيب ومن الغيب إلى الشهادة ومن عالم الخلق إلى عالم الأمر وغير ذلـك ممـا لا يمكن شرحه في كتاب .

فشيخكم ـ أيدكم الله تعالى ـ عارف بذلك ، عـارف بـأحكام الله الشرعيـة ، عارف بأحكامه القدرية ، عارف بأحكام أسمائه وصفاتـه الـذاتيـة ، ومثل هـذا العارف قد يُبصر ببصيرته تنزّل الأمر بين طبقات السماء والأرض كما قال تعـالى **﴿ الله الـــذي خلــق سبــع سمٰــوٰت ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيءٍ قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما ﴾** .

فالناس يحسون بما يجري في عـالم الشهـادة ، وهؤلاء بصـائرهم شـاخصـة إلى الغيب ، ينتظرون ماتجري به الأقدار ، يشعرون بها أحياناً عند تنزلها .

فلا تهونوا أمر مثل هؤلاء في انبسـاطهم مـع الخلـق واشتغـال أوقـاتهم بهم ، فإنهم كما حكي عن الجنيد رحمه الله أنه قيل له : « كم تنـادي على الله تعـالى بين

الخلق ؟ فقال : أنا أنادي على الخلق بين يدي الله » .

فالله الله في حفظ الأدب معه ، والانفعال لأوامره ، وحفظ حرماته في الغيب والشهادة وحب من أحبه ومجانبة من أبغضه وتنقّصه وردٍّ غيبته والانتصار له في الحق .

واعلموا رحمكم الله أن هنا من سافر إلى الأقاليم ، وعرف الناس وأذواقهم وأشرف على غالب أحوالهم ، فوالله ثم والله لم ير تحت أديم السماء مثل شيخكم علماً وعملاً وحالاً وخلقاً واتباعاً وكرماً وحلماً في حق نفسه وقياماً في حق الله عند انتهاك حرماته أصدق الناس عقداً وأصحهم علماً وعزماً وأنفذهم وأعلاهم في انتصار الحق وقيامه همَّة وأسخاهم كفاً وأكملهم اتباعاً لنبيه ﷺ مارأينا في عصرنا هذا من تستجلى النبوة المحمدية وسنتها من أقواله وأفعاله إلا هذا الرجل بحيث يشهد القلب الصحيح أن هذا هو الاتباع حقيقة .

وبعد ذلك كله فقول الحق فريضة ، فلا ندعي فيه العصمة عن الخطأ ولاندعي إكماله لغايات الخصائص المطلوبة ، فقد يكون في بعض الناقصين خصوصية مقصوده مطلوبة ، لايتم الكمال إلا بهاتيك الخصوصية ، وهذا القدر لايجهله منصف عارف ، ولولا أن قول الحق فريضة ، والتعصب للإنسان هوى لأعرضت عن ذكر هذا ـ لكن يجب قول الحق ـ إن ساء أو سر . والله المستعان.

إذا علمتم ذلك ـ أيدكم الله تعالى ـ فاحفظوا قلبه ، فإن مثل هذا قد يُدعى عظيماً في ملكوت السماء ، واعملوا على رضاه بكل ممكن ، واستجلبوا وُدَّه لكم وحُبَّه إياكم بمها قدرتم عليه ، فإن مثل هذا يكون شهيداً ، والشهداء في العصر تبع لمثله ، فإن حصلت لكم محبته رجوت لكم بذلك خصوصية أكتمها ولاأذكرها ، وربما يفطن لها الأذكياء منكم ، وربما سمحت نفسي بذكرها كيلاً أكتم عنكم نصحي .

وتلك الخصوصية : هي أن ترزقوا قسطاً من نصيبه الخاص المحمدي مع الله تعالى فإن ذلك إنما يسري بواسطة محبة الشيخ للمريد ، واستجلاب المريد محبة الشيخ بتأتيه معه ، وحفظ قلبه وخاطره ، واستجلاب وده ومحبته ، فأرجو بذلك لكم قسطاً مما بينه وبين الله تعالى فضلاً عما تكسبونه من ظاهر علمه وفوائده وسياسته إن شاء الله تعالى .

وإنما ذكرت حفظ الساعة ، وإن كان في الصلوات الخمس كفاية إذا قام العبد فيها لحق الله تعالى ؛ وذلك لأن الصلوات قد تهجم على العبد وقلبه مأخوذ في جواذب الظاهر فلا يعرف نصيب قلبه من ربه فيها ، فإذا كان للعبد ساعة بين الليل والنهار عرف فيها نصيب قلبه من ربه ، فإذا جاءت الصلوات عرف فيها حاله وزيادته ونقصانه باعتبار حالته مع ربه في تلك الساعة . وبالله المستعان) ا هـ .

وذكر الإمام السلفي الحافظ ابن عبد الهادي الحنبلي أيضاً في العقود الدرية قصيدة طويلة جداً من نظم الشيخ عبد الله بن خضر بن عبد الرحمن الرومي الأصل الدمشقي الحريري المعروف بالمتيم يرثي الشيخ تقي الدين ابن تيمية وهو أحد أصحابه رضي الله عنه وأرضاه ، ننقل منها ما يليق بهذا المقام بعض الأبيات : -

فقدت إماماً كان أوحد عصره ... وقد فجعت فيه جميع البرية
فقدت إماماً لم يزل متوكلاً ... على الله لا يُصغي إلى غير سنة
فقدت إماماً كان بالعلم عاملاً ... وكان حقيقاً قامعاً كل بدعة
أتى بأصول الدين والفقه مجملاً ... وفصلها تفصيلاً من غير شبهة
أتانا بأحوال الرسول حقيقة ... وسيرته تسمو على كل سيرة
أتانا بأحوال الصحابة كلهم ... من التابعين الملة المستقيمة
أتانا بأوصاف الأئمة كلها ... وصنف كتباً في صفات الأئمة

أتـانـا بوصف الصـالحين وحـالهم ... ومـاهم عليـه من جميـل العقيـدة
فمن كان قطب الكون في حال عصره ... سواه ؟ ومن كان قد فاز بالبدليـة
شجـاع همـام بـارع في صفـاتـه ... يروم مرامــا في المراقي العليــة
ويـأمر بـالمعروف حبـاً لربّـه ... وينهى عن الفحشـاء نهيـاً بهمـة
تقي نقي طاهر الذيل مـذ نشـأ ... كريم السجايا ذو صفات حميـدة
أليس الذي قد شـاع في الكون ذكره ... وعم البرايـا بـالفتـاوى العظيمـة
فمن كان تـاج العـارفين لـوقتنـا ... وشيخ الهدى ؟ قل لي بغير حمية
هو الحبر والقطب الذي شاع ذكره ... وفـــاح شـــذاه كالعبير المفتت
إذا مـاذكرنـا حـالـه وصفـاتـه ... كأنا حللنا في نعيم روضة وروضة
وودعتنـا توديـع من غير راجـع ... وفـارقتنـا والـدار غير بعيــدة
شربت بكأس العـارفين مـدامـة ... حقيقتهــا من سر عين الحقيقـة
وجدت بكأس الفضل منك تكرمـاً ... على تـابعين السنــة الأحمـديـة
فسبحان من أعطاك من فضل جوده ... لقـد نلت قربـاً لا ينـال بحيلـة
لقـد عشت محبـوبـاً ومت مكرمــاً ... عليــك من الرحمــة أزكى تحيتي
ومـابرحت تعلـوك أنـوار أنسـه ... ومـازلت في عـز وقرب ورفعـة

وللشيخ المتيم الرومي الحريري هذا قصيدة أخرى أيضاً نقلها الحـافـظ ابن عبد الهادي في العقود الدرية صفحـة (٣٢٠) في رثـاء شيخ الإسلام ابن تيميـة رحمه الله ننقل منها بعض الأبيات أيضاً :

مــازال مفتقراً في بــاب سيــده ... مــازل مبتليـاً بــالامتحــانــات
مـازال يتبـع آثـار الرسـول على ... النهج القـويم بـأعـلام الـدلالات
يهــدي لسنتــه يفتي بشرعتــه ... يرعى لحرمتـه في كل سـاعــات
قطب الزمان وتـاج النـاس كلهمو ... روح المعاني حوى كل العبـادات
حبر الوجـود فريـد في معـارفـه ... أفنى بسيف الهـدى أهل الضـلالات

حوى من المصطفى علماً ومعرفة … وجاءه منه إمداد النوالات
ماجاءه سائل إلا ويمنحه … إما بجود وإما بالمداراة
ماذا أقول ؟ وقولي فيه منحصر … في وصف أخلاقه كلت عباراتي
في علمه ، ماعلمنا من يناسبه … إلا أئمتنا أهل العنايات
في زهده ماسمعنا من يشاكله … إلا رجالا مضوا أهل الكرامات
تلوح شمس المعالي في شمائله … وفي صفا وجهه نور الهدايات
بحر المعارف تاهوا في بدايته … أهل المعاني وأرباب النهايات
(قطب الحقائق حاروا في فضائله … أهل التصوف أصحاب الرياضات)
أعجوبة الدهر فرد في فضائله … علامة الوقت في الماضي وفي الآتي
وا لهف قلبي على من كان يجمعنا … على فنون المعاني والإشارات
فارقت من كان يُرويني برؤيته … إذا تبدَّى بذا سرُّ العبادات
يروي الأحاديث عن سكان كاظمة … فيطر الكون من طيب الروايات
ويطنب الذكر في إحسان حسنهم … فيرقص القلب شوقاً نحو سادات
أفضى إلى الله والجنات مسكنه … عليه من ربّه أزكى تحيات
ثم الصلاة على خير الأنام ومن … قد خصه الله من بين البريات
اختاره ليلة الإسراء لحضرته … حتى تجلّى له رب السمٰوات
فهو الشفيع الذي ترجى شفاعته … عند الشدائد في يوم المجازاة

وقد نقل الحافظ ابن عبد الهادي الحنبلي في العقود الدرية أيضاً قصيدة طويلة من القصائد التي رثي بها شيخ الإسلام ابن تيمية وهي لرجل جندي بالديار المصرية يقال له : بدر الدين محمد بن عز الدين أُندمُن المغيثي رجل فاضل له محفوظات متنوعة وفيه ديانة وصلابة في دينه ، وذكر أنه عرضها على الإمام أبي حيان .

نتقل منها بعض الأبيات :

حدّث بلا حرج وقل عن زهده … مــــاشئت لارد ولا آثـــــام
هجر المطـاعم والملابس والـدنى … ولعـزمـه في تركهـا إحـزام
نـزر المـآكل والمنـام ولايُرى … لبني الـدنى في قلبـه إعظـام
ألقي عليـه مهـابـة من ربـه … فخطـابـه الإجـلال والإكرام
وجفـا العبـاد لشغلـه بحبيبـه … فـوداده لـلأقربين سـلام
ولـه مقـام في الـوصول لربـه … ومقـامـه نطقت بهـا الأقتـام
ولـه فتـوح من غيـوب إلهـه … وتحـــزن وتمسكن وكـــلام
وتصـــوف وتقشف وتعفف … وقراءة وعبـــادة وصيـــام
وعنـايـة وحمـايـة ووقـايـة … وصيـانـة وأمـانـة ومقـام
ولـه كرامـات سمت تعـددت … ولهـا على مر الـدهـور دوام

ونقل الحافظ ابن عبد الهادي في العقود الدرية مرثيـة في شيخ الإسلام ابن تيمية أيضاً ، ولكن لم يذكر ناظمها [١] ، ننقل منها بعض الأبيات :

يـاليتني يـوم الفراق حضرتـه … حتى أجـدد مـامضى من مـوثقي
هـو شيخنـا ورئيسنـا وإمـامنـا … لله در الطــــاهر الحبر التقي
إن قلت طود العلم فهـو حقيقـة … فـاسمع بهـذا القـول فيـه وحقـق
يفتي بجمـع مـذاهب عن أربـع … لكنـه في الفضـل آخر من بقي
هـو في القراءة أوحـد في عصره … هو في الأصول مفيدنـا والمنطقي
شيخ الطريقـة والحقيقـة عـارف … ورث الإمـامـة والعلـوم فحقـق
متصـــدق متفضـل متطـول … لله مـــاأجـزاه من متصـــدق
يـاقبره يهنيـك مـاقـد حزتـه … من زاهــــد بر زكي متقي
قـد صرتَ روضـة جنـة بِحُلولـه … فلـك الفخـار بسيـد ومـوفـق

(١) يظهر من القصيدة أنها لأحد مريدي الشيخ والله أعلم .

نكتفي بذكر هذا المقدار من أجزاء متناثرة من قصائد نظمها في رثاء شيخ الإسلام ابن تيمية بعض أصحابه ومحبيه .

ونبدأ الآن في نقل كلام بعض المؤلفين المعاصرين من المحققين ، ونفتتح هذه السلسلة بما ذكره المفكر الإسلامي الكبير والعلامة المؤرخ المحقق الجليل السيد أبو الحسن علي الحسني الندوي حفظه الله بالخيرات ونفع به عباده في كتابه البديع « رجال الفكر والدعوة في الإسلام » بالجزء الثاني ـ وهذا الجزء كله خاص بحياة شيخ الإسلام ابن تيمية ـ يقول فيه مانصه : ـ

١ ـ « شيخ الإسلام ابن تيمية كعارف بالله ومحقق »

اكتشاف جديد في شخصية ابن تيمية

عرف شيخ الإسلام ابن تيمية ـ بوجه عام ـ كعالم متكلم وفقيه جدلي ومحدث كبير ولا يتخيله الدارسون لكتاباته العلمية ومؤلفاته الجدلية أكثر من أنه كان عالماً ذكياً واسع العلم قوي الحجة غزير المادة .

والذين عرفوه عن طريق التراجم التي كتبها عامة المؤرخين أو قاسوه على تلاميذه المتأخرين والمنتسبين إليه [1] لا يرون فيه شيئاً أكثر من محدث جاف وعالم متبحر في العلوم الظاهرة .

أما ماذكره الحافظ ابن قيم الجوزية في « مدارج السالكين » من أحواله وأقواله بمناسبات شتى ، وكذلك ماذكره العلامة الذهبي وأمثاله في ترجمته من أخلاقه وأذواقه وعاداته وشمائله وأشغاله وأعماله فيدل دلالة واضحة على أن

---

(١) عدا تلميذه النجيب الحافظ ابن قيم الجوزية الذي بحث عن ناحية أستاذه الروحية الباطنية في كتابه « مدارج السالكين » شرح « منازل السائرين »لشيخ الإسلام الهروي ، وأثبت فيه أن شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم كانا يحتلان مكانا عاليا في المعرفة والروحانية والذوق الباطني .

شيخ الإسلام ابن تيمية يستحق كل الاستحقاق أن يُعد من العارفين ورجال الله في هذه الأمة .

وهنالك ينشرح كل صدر للاعتراف بأنه كان يتبوأ تلك المكانة ويتمتع بجميع تلك الغايات التي لاتتيسر ـ بوجه عام ـ إلا برياضات شاقة ومجاهدات طويلة وتربية أئمة الفن ودوام الذكر والمراقبة ، وذلك مايُعبِّر عنه الصوفية المتأخرون بالنسبة مع الله [1] ، « وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » .

تنوع الوسائل ووحدة الغاية :ـ

ولا يخفى على أصحاب البصيرة أن الذوق والمعرفة والإيمان الحقيقي واليقين والإخلاص والاستقامة وتزكية الباطن وتهذيب الأخلاق والاتباع الكامل للسنة والتفاني في الشريعة غايات حقيقية مقصودة تتخذ لأجلها وسائل مختلفة وطرق متعددة ولا يقصر المحققون اكتسابها على طريقة واحدة وقد كان الطريق القوي المؤثر للحصول على هذه الغايات في فجر تاريخ الدعوة الإسلامية : صحبة النبي ﷺ التي لا يجهل تأثيرها وقوتها أحد .

ولما حرمت أمة الإسلام هذه النعمة قام خلفاء النبوة وأطباء هذه الأمة في عصورهم بطريقة تنوب عنها ، وأخيرا ركّزوا جُلَّ عنايتهم ـ لأسباب مختلفة ـ على : الصحبة وكثرة الذكر .

ولها طريقة مدونة منقحة تعرف بنظام التصوف والسلوك ، غير أنه لامساغ لإنكار أن الحصول على هذه الغايات والمقاصد لا يتوقف على هذه الوسائل . فإن الإيمان والاحتساب ومحاسبة النفس وتتبع السنة والاشتغال بكتب السنة والشمائل درساً وتدريساً وخدمة ونشراً مع الحب والإجلال وكثرة

---

(١) يعني الصلة الروحية بالتدين .

الصلاة على النبي ﷺ وخدمة الخلق والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة والتبليغ بصدق النية والاحتساب ، كل ذلك ـ عدا الاجتباء والموهبة التي يخص بها بعض الأفراد ـ سبب للتقرب إلى الله وحصول النسبة معه إذا صدر عن إيمان واحتساب وحضور واهتمام .

ولامانع أن تكون الوسائل مختلفة والطرق متعددة ، فإن الغاية واحدة . ولاشك أن جملة أحوال شيخ الإسلام تدل بوضوح على أنه كان يتمتع بهذه الغاية ، وذلك ماأريد إيضاحه في السطور التالية : ـ

ميزان كمال الإنسان وآية بلوغه درجة الولاية والتحقيق : ـ

ونستطيع أن نشهد لرجل بأنه كان من العارفين والمحققين الكاملين وممن وضع الله لهم القبول نظرا إلى الأحوال والأذواق والعادات العامة التي عاش فيها ، ولايكون له مقياس ظاهر أو دليل منطقي ، وقد يخطيء من رزق سلامة الفطرة وصفاء الذوق لكثرة مايدرسه من أحوال العارفين ورجال الله ويلزم صحبتهم بملكة ووجدان يتمكن بها من الحكم في ذلك ، ولكن هناك علامات وأحوالاً يدرك بها أن مستوى هذا الرجل الديني أرفع من مستوى عامة الناس، وهو يتمتع بأخلاق رجال الله وأذواقهم وفهم الدين الصحيح .

مثلاً : ذوق خاص للعبودية والإنابة إلى الله ، وتذوق العبادة والانهماك فيها ، ولذة الدعاء والابتهال ، والزهد والانقطاع عن الدنيا وازدرائها وسجية السخاء والإيثار والتواضع وهضم النفس ، والسكينة والسرور والكمال في اتباع السنة والقبول في الصالحين وشهادة العلماء له ، وتصلب أتباعه ومحبيه في الدين وحسن سيرتهم وماإلى ذلك .

وبهذه المناسبة ننقل للقراء شهادات معاصري شيخ الإسلام وماسجله المؤرخون في كتبهم عن هذه القسمات التي سبق ذكرها . اهـ .

وقد بسط العلامة المحقق الندوي حفظه الله في بيان ذلك فجاء حلواً لطيفاً جداً ولكننا نتركه روماً للاختصار والله الموفق .

وننقل القطعة الثانية للمؤلفين المعاصرين وهي للدكتور المحقق الفاضل أحمد بن محمد بناني من كتابه (موقف الإمام ابن تيمية من التصوف والصوفية) طبعت جامعة أم القرى بمكة المكرمة منه الطبعة الأولى عام ١٤٠٦ هـ .

٢ ـ يقول الدكتور الفاضل في أول الكتاب تحت عنوان (ملخص الرسالة) مانصه :

« هذه الرسالة « موقف الإمام ابن تيمية من التصوف والصوفية » تتناول ـ كما هو واضح من عنوانها ـ بعضاً مما كتبه الصوفية من موضوعات وماجرى بينهم من أبحاث ومناقشات وتعرض من ذلك من وجهة نظرهم وماستدلوا به على آرائهم ، ثم تبين موقف الإمام ابن تيمية في ذلك الموضوع من نقد أو تأييد وإجمال أو تفصيل .

وفي أثناء ذلك يتضح الرأي الصحيح المستحق للتأييد من الرأي السقيم المستحق للإنكار ، ومن مجموع كل ذلك يتضح موقف الإمام ابن تيمية الإجمالي من التصوف والصوفية .

وقد ظهر لي أن الإمام ابن تيمية لم يكن يعادي التصوف على إطلاقه ، بل أنكر منه مالايوافق الكتاب والسنة وما لم يكن مأثوراً عن أحد من الصحابة والتابعين .

وقد تبين لنا في موضوعات البحث المسماة عند الصوفية بالمقامات والأحوال أن الإمام ابن تيمية أكثر علماً وأدق تعبيراً وأكثر تفصيلاً في بعضها عن غيره ممن كتب في هذه الموضوعات من الصوفية وغيرهم ...... إلخ .

كما أنه قال في خاتمة الكتاب مانصه :

« ثانياً : إن موضوع رسالتنا هو إظهار موقف الإمام ابن تيمية من التصوف وهل هو حق أم لا ؟ .

وقد تبين لنا في الرسالة : أن الإمام ابن تيمية اتخذ ميزاناً حقاً صادقاً في محاسبة هؤلاء ألا وهو الكتاب والسنة ، فمن سار على هذا المنهج دون أن ينحرف عنه قيد أنملة فهو على الحق وعلى الصراط المستقيم ، وجدير بالثناء والتقدير ، ومن انحرف منهم من هذا الطريق السوي حاد عن ذلك الصراط المستقيم حكم الإمام ابن تيمية ببطلان عمله ورأيه . » اهـ .

ونختم هذه السلسلة من كلام المؤلفين المحققين المعاصرين بما ذكره المحقق الدكتور ماجد عرسان الكيلاني الأستاذ بكلية التربية بجامعة الملك عبد العزيز - فرع المدينة المنورة - من كتابه « الفكر التربوي عند ابن تيمية » يقول الدكتور الكيلاني في صفحة (١٨) مانصه : -

٣ - (وأهمية أعمال - هنري لاوست - أنه أول باحث أجنبي استهدف مجابهة اللهجة المعادية لابن تيمية في دوائر الدراسات الغربية وتقديم صورة أفضل وأكثر واقعية عن هذا المفكر المسلم ومكانته في تاريخ الفكر الإسلامي .

ولقد سار على منهاج لاوست هذا : البروفسور چورچ مقدسي في مقالاته الثلاث التي كتبها عن ابن تيمية بأسلوب علمي مركز .

وكانت المقالة الأولى بعنوان :

(1) – Ibn Taymiya's Autigraph Manuscript On Istihsan

أي « مخطوطة ابن تيمية عن الاستحسان »

والمقالة الثانية بعنوان :

(2) – Ibn Taymiya : A Sufi Of the qadiria Order

أي « ابن تيمية صوفي من الطريقة القادرية »

أما المقالة الثالثة فكانت بعنوان :

(3) – The Tanbih Of Ibn Taymiya On Dialectic

أي « تنبيه ابن تيمية عن التفكير الجدلي »

وفي جميع هذه المقالات الثلاث حاول جورج مقدسي أن يثبت خطأ ماأورده ـ دونكان ماكدونالد ـ من ملاحظات عدائية تجاه ابن تيمية حين زعم أن ابن تيمية لم يكن إلا رجلاً أنانياً « وليس لديه من نفع لطريق الزهد أو الفلسفة أو الدين ، وأنه لم يقصد إلا نفع نفسه » .

ويرد جورج مقدسي على هذا الاتهام بالقول : « إن طريق ابن تيمية والدرجة العالية من الفهم الشامل للإسلام لديه لايرفضان مكانة الزهد والتصوف إذا كانت محتويات الزهد ومضامين التصوف صحيحة النقل صائبة المحتوى ، ومازال ـ مقدسي ـ مستمراً في أبحاثه في هذا الميدان وللرجل شغف بابن تيمية سوف يقود إلى أبحاث عميقة مطوَّلة) ا هـ .

وقال في صفحة (١٧٧) مانصه : ـ

(تباين الباحثون في موقف ابن تيمية من الصوفية واختلفوا اختلافاً

كبيراً ، و مازال النقاش حول هذا الموضوع يدور على صفحات الكتب والمجلات المتخصصة فلقد صوره البعض - كما فعل المستشرق د . ب . ماكدونالد - على أنه العدو اللدود للصوفية والحياة الروحية سواء .

وآخرون مازالوا يصرون على أن ابن تيمية لم يكن معادياً للصوفية ، وأنه هو نفسه كان صوفياً تلقى صوفيته من الطريقة القادرية .

والواقع أن ماستهدفه ابن تيمية هو إبراز - الجوهر الأصلي - للتصوف كمدرسة تربوية هدفها الأساسي تهذيب النفس وتطهيرها من أخلاقها الذميمة ولذلك عارض كل انحراف طرأ على التصوف فيما يخص هذا الهدف ، وكل ما يخالف القرآن والسنة في هذا المجال .

وانطلاقاً من هذه القاعدة أظهر ابن تيمية احتراماً كبيراً لرواد الزهد وشيوخ التصوف الذين التزموا بالقرآن والسنة من أمثال الفضيل بن عياض وإبراهيم بن أدهم والسري السقطي والجنيد وحماد الدباس والشيخ عبد القادر الكيلاني وعدي بن مسافر .

وأما ماذكره - جورج مقدسي - حول انتساب ابن تيمية للقادرية فقد استند فيه إلى سلسلة شيوخ ابن تيمية التي تبدأ بموفق الدين بن قدامة تلميذ عبد القادر المباشر وخريج المدرسة القادرية في بغداد .

واستند كذلك إلى الاحترام والتقدير اللذين يبثهما ابن تيمية في كتاباته للشيخ عبد القادر ، فهو في رسائلة وكتبه يشير إلى الشيخ عبد القادر بنفس المستوى الذي يشير فيه إلى الإمام ابن حنبل من خلال الألقاب التي يسبغها عليه ، فهو « قطب العارفين » وهو « شيخنا أبو محمد قدس الله روحه » وهو « أعظم زمانه أمرا بالتزام الشرع [١] » و« الشيخ عبد القادر ونحوه من أعظم

---

(١) ابن تيمية - الفتاوى - كتاب علم السلوك مجلد ١٠ صفحة ٤٤٨ .

مشايخ زمانهم أمرا بالتزام الشرع والأمر والنهي وتقديمه على الذوق ، ومن أعظم المشايخ أمراً بترك الهوى والإرادة النفسية [١] » .

وإذا ضرب ابن تيمية مثلاً قال : « ولهذا كان الشيخ عبد القادر ونحوه من المشايخ [٢] » وهو كثير الاستشهاد به كنموذج يقتدى به في الاعتقاد والسلوك . وكذلك شرح ابن تيمية مقتطفات كثيرة من أقوال عبد القادر وشرح كتابه فتوح الغيب في مئات الصفحات التي تضمنها المجلد العاشر من الفتاوى والمسمى ـ كتاب علم السلوك ـ وخلال هذه الشروح يقدم ابن تيمية الشيخ عبد القادر كنموذج يجسد الالتزام الصحيح بالكتاب والسنة .

وهناك بعض الإشارات في كتب ابن تيمية تدل على أنه كان لأسرته صلة روحية بالشيخ عبد القادر ـ فمثلاً يذكر في كتاب ـ علم السلوك ـ مايلي : ـ

« حدثني أبي عن محي الدين النحاس وأظنني سمعتها منه أنه رأى الشيخ عبد القادر في منامه وهو يقول إخبارا عن الحق تعالى : « من جاءنا تلقيناه ... » ثم معنى في شرح هذه العبارة في صفحات « ٢ ») ا هـ .

وقال في صفحة (١٧٩) مانصه : ـ

(ومهما كان الأمر فإن الموقف الذي اتخذه ابن تيمية من الصوفية تميز بأمرين :

الأول : أنه تعامل مع الصوفية بنفس الأسلوب الذي تعامل به مع الفقهاء والمذاهب الفقهية وعلماء الكلام ، فهو يرى أن شيوخ التصوف الأوائل قيدوا علومهم وتربيتهم بالكتاب والسنة .

---

(١) ابن تيمية ـ الفتاوى ـ المصدر نفسه ص ٤٨٨ .

(٢) ابن تيمية ـ الفتاوى ـ المصدر نفسه ص (٦٦٨) .

أما المتأخرون فقد ضل كثير منهم بتأثير الأفلاطونية الجديدة التي تسربت إلى الفكر الإسلامي عامة خلال ترجمة العلوم اليونانية وانحرفوا بعيداً عن الطريق الصحيح للزهد والتربية الروحية [١] .

والثاني : أن ابن تيمية لم يرفض التصوف جملة ، وإنما انتقد ماطرأ عليه من خروج عن الأهداف الأولى ومناهج التربية والسلوك الأولى ، وفي ذلك يقول : « والصوفية بنوا أمرهم على الإرادة ولابد منها ، لكن بشرط أن تكون إرادة الله وحده بما أمر [٢] » .

ويقول أيضاً : « وما وقع في هؤلاء من فساد الاعتقاد والأعمال أوجب إنكار طوائف لأصل طريقة المتصوفة بالكلية حتى صار المنحرفون صنفين : صنف يقر بحقها وباطلها ، وصنف ينكر حقها وباطلها ، كما عليه طوائف من أهل الكلام والفقه .

والصواب : إنما هو الإقرار بما فيها وفي غيرها من موافقة الكتاب والسنة والإنكار لما فيها وفي غيرها من مخالفة الكتاب والسنة [٣] ») . اهـ .

* * *

ونشرع الآن بتوفيق الله تعالى في ذكر قطع متنوعة من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية بنفسه وذلك من مؤلفاته المختلفة تتعلق بأمور التصوف ، ويأتي فيها ذكر السادة الصوفية وأحوالهم ـ نبدأ أولا بمؤلفه الجامع المبسوط .

---

(١) ابن تيمية ـ الفتاوى ـ علم السلوك أيضاً مجلد ١٠ ص ٤٨٦ ـ ٥١٦ .

(٢) ابن تيمية ـ الفتاوى ـ أصول الفقه مجلد ١٩ صفحة ١٧٢ .

(٣) ابن تيمية ـ الفتاوى ـ علم السلوك الجزء (١٠) صفحة (٨٢) .

١ ـ (مجموع فتاوي شيخ الإسلام ابن تيمية) جمع وترتيب : عبد الرحمن ابن محمد بن قاسم العاصمي النجدي الحنبلي ، وساعده ابنه محمد وفقهما الله ، الطبعة الأولى سنة ١٣٨١ هـ بمطبعة الرياض ـ المجلد الحادي عشر صفحة (٥) ذكر فيه :

سئل شيخ الإسلام قدس الله روحه عن « الصوفية » وأنهم أقسام و« الفقراء » أقسام ، فما صفة كل قسم ؟ وما يجب عليه ويستحب له أن يسلكه ؟

فأجاب : الحمد لله ، أما لفظ « الصوفية » فإنه لم يكن مشهوراً في القرون الثلاثة ، وإنما اشتهر التكلم به بعد ذلك .

وقد نقل التكلم به عن غير واحد من الأئمة والشيوخ : كالإمام أحمد بن حنبل وأبي سليمان الداراني وغيرهما .

وقد روي عن سفيان الثوري أنه تكلم به ، وبعضهم يذكر ذلك عن الحسن البصري .

وتنازعوا في « المعنى » الذي أضيف إليه الصوفي فإنه من أسماء النسب كالقرشي والمدني وأمثال ذلك .

فقيل : إنه نسبة إلى « أهل الصفة » وهو غلط ، لأنه لو كان كذلك لقيل : « صُفِّي » .

وقيل : نسبة إلى الصف المقدم بين يدي الله ، وهو أيضاً غلط ، فإنه لو كان كذلك لقيل : « صفي » .

وقيل : نسبة إلى الصفوة من خلق الله وهو غلط لأنه لو كان كذلك لقيل : « صفوي » .

وقيل : نسبة إلى صوفة بن بشر بن أدّ بن طابخة قبيلة من العرب كانوا

يجاورون بمكة من الزمن القديم ، ينسب إليهم النساك ، وهذا وإن كان موافقاً للنسب من جهة اللفظ فإنه ضعيف أيضاً لأن هؤلاء غير مشهورين ولا معروفين عند أكثر النساك ، ولأنه لو نسب النساك إلى هؤلاء لكان هذا النسب في زمن الصحابة والتابعين وتابعيهم أولى ، ولأن غالب من تكلم باسم « الصوفي » لا يعرف هذه القبيلة ولا يرضىٰ أن يكون مضافاً إلى قبيلة في الجاهلية لا وجود لها في الإسلام .

وقيل : ـ وهو المعروف ـ إنه نسبة إلى لبس الصوف .

فإنه أول ماظهرت الصوفية من البصرة ، وأول من بنى دويرة الصوفية بعض أصحاب عبد الواحد بن زيد ، وعبد الواحد من أصحاب الحسن وكان في البصرة من المبالغة في الزهد والعبادة والخوف ونحو ذلك مالم يكن في سائر أهل الأمصار ، ولهذا كان يقال : فقه كوفي وعبادة بصرية .

وقد روى أبو الشيخ الأصبهاني بإسناده عن محمد بن سيرين أنه بلغه أن قوماً يفضلون لباس الصوف فقال : إن قوماً يتخيرون الصوف يقولون : إنهم متشبهون بالمسيح بن مريم وهدي نبينا أحب إلينا ، وكان النبي ﷺ يلبس القطن وغيره أو كلاماً نحوا من هذا .

ولهذا غالب مايحكى من المبالغة في هذا الباب إنما هو من عبادة أهل البصرة مثل حكاية من مات أو غشي عليه في سماع القرآن ونحوه كقصة زرارة ابن أوفى قاضي البصرة فإنه قرأ في صلاة الفجر ﴿ **فإذا نقر في الناقور** ﴾ . فخرَّ ميتاً وكقصة أبي جهير الأعمى الذي قرأ عليه صالح المري فمات ، وكذلك غيره ممن روي أنهم ماتوا باستماع قراءته ، وكان فيهم طوائف يصعقون عند سماع القرآن ، ولم يكن في الصحابة مَن هذا حاله ، فلما ظهر ذلك أنكر ذلك طائفة من الصحابة والتابعين : كأسماء بنت أبي بكر وعبد الله

ابن الزبير ومحمد بن سيرين ونحوهم . والمنكرون لهم مأخذان :

منهم من ظن ذلك تكلفاً وتصنعاً ، يذكر عن محمد بن سيرين أنه قال : ما بيننا وبين هؤلاء الذين يصعقون عند سماع القرآن إلا أن يقرأ على أحدهم وهو على حائط فإن خر فهو صادق .

ومنهم من أنكر ذلك لأنه رآه بدعة مخالفاً لما عرف من هدي الصحابة كما نقل عن أسماء وابنها عبد الله .

والذي عليه جمهور العلماء : أن الواحد من هؤلاء إذا كان مغلوباً عليه لم ينكر عليه ، وإن كان حال الثابت أكمل منه .

ولهذا لما سئل الإمام أحمد عن هذا فقال : قريء القرآن على يحي بن سعيد القطان فغشي عليه ، ولو قدر أحد أن يدفع هذا عن نفسه لدفعه يحي بن سعيد فما رأيت أعقل منه ، ونحو هذا .

وقد نقل عن الشافعي أنه أصابه ذلك ، وعلي بن الفضيل بن عياض قصته مشهورة وبالجملة فهذا كثير ممن لا يستراب في صدقه .

لكن الأحوال التي كانت في الصحابة هي المذكورة في القرآن وهي : وجل القلوب ودموع العين واقشعرار الجلود ....

وقد يذم حال هؤلاء من فيه من قسوة القلوب والرين عليها والجفاء عن الدين ما هو مذموم وقد فعلوا .

ومنهم من يظن أن حالهم هذا أكمل الأحوال وأتمها وأعلاها . وكلا طرفي هذه الأمور ذميم . بل المراتب ثلاث .

« **أحدها** » : حال الظالم لنفسه الذي هو قاسي القلب ، لا يلين للسماع والذكر ، وهؤلاء فيهم شبه من اليهود .. ..

« **والثانية** » : حال المؤمن التقي الذي فيه ضعف عن حمل مايرد على قلبه ، فهذا الذي يصعق صعق موت أو صعق غشي ، فإن ذلك إنما يكون لقوة الوارد وضعف القلب عن حمله .

وقد يوجد مثل هذا في من يفرح أو يخاف أو يحزن أو يحب أموراً دنيوية يقتله ذلك أو يمرضه أو يذهب بعقله .

ومن عباد الصور من أمرضه العشق أو قتله أو جننه وكذلك في غيره ، ولا يكون هذا إلا لمن ورد عليه أمر ضعفت نفسه عن دفعه بمنزلة مايرد على البدن من الأسباب التي تمرضه أو تقتله أو كان أحدهم مغلوباً على ذلك ....

فهذه الأحوال التي يقترن بها الغشي أو الموت أو الجنون أو السكر أو الفناء حتى لايشعر بنفسه ونحو ذلك ، إذا كانت أسبابها مشروعة وصاحبها صادقاً عاجزاً عن دفعها كان محموداً على مافعله من الخير وماناله من الإيمان ، معذوراً فيما عجز عنه وأصابه بغير اختياره ، وهم أكمل ممن لم يبلغ منزلتهم لنقص إيمانهم وقسوة قلوبهم ونحو ذلك من الأسباب التي تتضمن ترك مايحبه الله أو فعل مايكرهه الله .

ولكن من لم يزل عقله مع أنه قد حصل له من الإيمان ماحصل لهم أو مثله أو أكمل منه فهو أفضل منهم .

وهذه حال الصحابة رضي الله عنهم وهو حال نبينا ﷺ فإنه أُسري به إلى السماء وأراه الله ماأراه وأصبح كبائت لم يتغير عليه حاله ، فحاله أفضل من حال موسى ﷺ الذي خر صعقاً لما تجلى ربه للجبل .

وحال موسى حال جليلة عالية فاضلة ، لكن حال محمد ﷺ أكمل وأعلى وأفضل .

والمقصود : أن هذه الأمور التي فيها زيادة في العبادة والأحوال خرجت من البصرة، وذلك لشدة الخوف .

فإن الذي يذكرونه من خوف عتبة الغلام وعطاء السليمي وأمثالها أمر عظيم ، ولاريب أن حالهم أكمل وأفضل ممن لم يكن عنده من خشية الله ماقابلهم أو تفضل عليهم .

ومن خاف الله خوفاً مقتصداً يدعوه إلى فعل مايحبه الله وترك مايكرهه الله من غير هذه الزيادة فحاله أكمل وأفضل من حال هؤلاء .

وهو حال الصحابة رضي الله عنهم .

وقد روي أن عطاء السليمي - رضي الله عنه - رؤي بعد موته فقيل له : ما فعل الله بك ؟ فقال : قال لي : « ياعطاء أما استحييت مني أن تخافني كل هذا ، أما بلغك أني غفور رحيم » .

وكذلك مايذكر عن أمثال هؤلاء من الأحوال من الزهد والورع والعبادة وأمثال ذلك قد ينقل فيها من الزيادة على حال الصحابة رضي الله عنهم وعلى ماسنه الرسول ﷺ أمور توجب أن يصير الناس طرفين :

قوم يذمون هؤلاء وينتقصونهم وربما أسرفوا في ذلك .

وقوم يغلون فيهم ويجعلون هذا الطريق من أكمل الطرق وأعلاها .

والتحقيق : أنهم في هذه العبادات والأحوال مجتهدون كما كان جيرانهم من أهل الكوفة مجتهدين في مسائل القضاء والإمارة ونحو ذلك ، وخرج فيهم الرأي الذي فيه من مخالفة السنة ماأنكره جمهور الناس .

وخيار الناس من « أهل الفقه والرأي » في أولئك الكوفيين على طرفين :

قوم يذمونهم ويسرفون في ذمهم .

وقوم يغلون في تعظيمهم ويجعلونهم أعلم بالفقه من غيرهم ، وربما فضلوهم على الصحابة ، كما أن الغلاة في أولئك العُبَّاد قد يفضلونهم على الصحابة. وهذا باب يفترق فيه الناس .

والصواب للمسلم : أن يعلم أن خير الكلام كلام الله وخير الهدي هدي محمد ﷺ ، وخير القرون القرن الذي بعث فيهم ، وأن أفضل الطرق والسبل إلى الله ماكان عليه هو وأصحابه .

ويعلم من ذلك أن على المؤمنين أن يتقوا الله بحسب اجتهادهم ووسعهم كما قال تعالى : ﴿ **فاتقوا الله ماستطعتم** ﴾ ، وقال ﷺ : « إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ماستطعتم » ، وقال تعالي : ﴿ **لايكلف الله نفساً إلا وسعها** ﴾ .

وإن كثيراً من المؤمنين ـ المتقين أولياء الله ـ قد لايحصل لهم من كمال العلم والإيمان ماحصل للصحابة فيتقي الله مااستطاع ويطيعه بحسب اجتهاده فلا بد أن يصدر منه خطأ ـ إما في علومه وأقواله وإما في أعماله وأحواله ، ويثابون على طاعتهم ويغفر لهم خطاياهم فإن الله تعالى قال : ﴿ **آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لانفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير** ﴾ إلى قوله ﴿ **ربنا لاتؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا** ﴾ ، قال الله تعالى : قد فعلت .

فمن جعل طريق أحد من العلماء والفقهاء أو طريق أحد من العباد والنساك أفضل من طريق الصحابة فهو مخطيء ضال مبتدع .

ومن جعل كل مجتهد في طاعة أخطأ في بعض الأمور مذموماً معيباً ممقوتاً فهو مخطىء ضال مبتدع [1] .

---

(١) لاحظ هذه العبارة وقارن بينها وبين مايتلفظ به بعضهم في حق بعض سادات الصوفية وإن سألتهم عن ذنبهم ذكروا لك أن كونهم صوفية هو أكبر ذنب لهم .

......وإذا عرف أن منشأ « التصوف » كان من البصرة ، وإنه كان فيها من يسلك طريق العبادة والزهد مما له فيه اجتهاد ، كما كان في الكوفة من يسلك الفقه والعلم والزهد مما له فيه اجتهاد ، وهؤلاء نسبوا إلى اللبسة الظاهرة وهي لباس الصوف ، فقيل في أحدهم : « صوفي » .

وليس طريقهم مقيداً بلباس الصوف ، ولاهم أوجبوا ذلك ولاعلقوا الأمر به ، لكن أضيفوا إليه لكونه ظاهر الحال .

ثم « التصوف » عندهم له حقائق وأحوال معروفة قد تكلموا في حدوده وسيرته وأخلاقه كقول بعضهم : الصوفي : من صفا من الكدر وامتلأ من الفكر واستوى عنده الذهب والحجر .

التصوف : كتمان المعاني وترك الدعاوي ، وأشباه ذلك ، وهم يسيرون بالصوفي إلى معنى « الصديق » .

وأفضل الخلق بعد الأنبياء : الصديقون ، كما قال تعالى : ﴿ **أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً** ﴾ ، ولهذا ليس عندهم بعد الأنبياء أفضل من الصوفي ، لكن هو في الحقيقة نوع من الصديقين .

فهو الصديق الذي اختص بالزهد والعبادة علىالوجه الذي اجتهدوا فيه ، فكان « الصديق » من أهل هذه الطريق ، كما يقال : « صديقو العلماء » و « صديقو الأمراء » ، فهو أخص من الصدِّيق المطلق ، ودون الصدِّيق الكامل الصديقية من الصحابة والتابعين وتابعيهم .

فإذا قيل عن أولئك الزهاد والعبَّاد من البصريين : إنهم صديقون فهو كما يُقال عن أئمة الفقهاء من أهل الكوفة إنهم صديقون أيضاً ، كل بحسب الطريق الذي سلكه من طاعة الله ورسوله بحسب اجتهاده ، وقد يكونون من أجلِّ

الصديقين بحسب زمانهم ، فهم من أكمل صديقي زمانهم ، والصديق في العصر الأول أكمل منهم . والصديقون درجات وأنواع .

ولهذا يوجد لكل منهم صنف من الأحوال والعبادات حققه وأحكمه وغلب عليه ، وإن كان غيره في غير ذلك الصنف أكمل منه وأفضل منه .

ولأجل ماوقع في كثير منهم من الاجتهاد والتنازع فيه تنازَعَ الناس في طريقهم .

فطائفة ذمَّت « الصوفية والتصوف » وقالوا : إنهم مبتدعون خارجون عن السنة ، ونقل عن طائفة من الأئمة في ذلك من الكلام ماهو معروف ، وتبعهم على ذلك طوائف من أهل الفقه والكلام .

وطائفة غَلَت فيهم وادعوا أنهم أفضل الخلق وأكملهم بعد الأنبياء . وكلا طرفي هذه الأمور ذميم [1] .

« **والصواب** » إنهم مجتهدون في طاعة الله ، كما اجتهد غيرهم من أهل طاعة الله . ففيهم السابق المقرب بحسب اجتهاده ، وفيهم المقتصد الذي هو من أهل اليمين ، وفي كل من الصنفين من قد يجتهد فيخطئ ، وفيهم من يذنب فيتوب أو لايتوب . ومن المنتسبين إليهم من هو ظالم لنفسه عاص لربه .

وقد انتسب إليهم طوائف من أهل البدع والزندقة ، ولكن عند المحققين من أهل التصوف ليسوا منهم كالحلاج مثلاً ، فإن أكثر مشايخ الطريق أنكروه وأخرجوه عن الطريق مثل الجنيد بن محمد سيد الطائفة وغيره ، كما ذكر ذلك الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي في « طبقات الصوفية » وذكره الحافظ أبو بكر الخطيب في تاريخ بغداد . فهذا أصل التصوف .

---

(١) يلاحظ هذه العبارة المنتسبون إلى السلفية وخاصة إلى شيخ الإسلام ابن تيمية .

ثم إنه بعد ذلك تشعب وتنوع ، وصارت الصوفية ثلاثة أصناف :

صوفية الحقائق ، وصوفية الأرزاق ، وصوفية الرسم .

فأما « صوفية الحقائق » فهم الذين وصفناهم .

وأما « صوفية الأرزاق » فهم الذين وقفت عليهم الوقوف كالخوانك ، فلا يشترط في هؤلاء أن يكونوا من أهل الحقائق فإن هذا عزيز ، وأكثر أهل الحقائق لا يتصفون بلزوم الخوانك ولكن يشترط فيهم ثلاثة شروط : ـ

أحدها : العدالة الشرعية بحيث يؤدون الفرائض ويجتنبون المحارم .

والثاني : التأدب بآداب أهل الطريق ، وهي الآداب الشرعية في غالب الأوقات وأما الآداب البدعية الوضعية فلا يلتفت إليها .

والثالث : أن لا يكون أحدهم متمسكاً بفضول الدنيا ، فأما من كان جمّاعاً للمال أو كان غير متخلق بالأخلاق المحمودة ، ولا يتأدب بالآداب الشرعية أو كان فاسقاً فإنه لا يستحق ذلك .

وأما « صوفية الرسم » فهم المقتصرون على النسبة فهمهم في اللباس والآداب الوضعية ونحو ذلك .

فهؤلاء في الصوفية بمنزلة الذي يقتصر على زي أهل العلم وأهل الجهاد ونوع مامن أقوالهم بحيث يظن الجاهل حقيقة أمره أنه منهم وليس منهم ..... (ثم بسط في البحث عن لفظ « الفقير » حتى قال) : لكن لما كان جنس الزهد في الفقراء أغلب صار الفَقْر في اصطلاح كثير من الناس عبارة عن طريق الزهد وهو من جنس التصوف .

فإذا قيل : هذا فيه فقر أو مافيه فقر لم يرد به عدم المال ، ولكن يراد به

مايراد باسم الصوفي من المعارف والأحوال والأخلاق والآداب ونحو ذلك .

وعلى هذا الاصطلاح قد تنازعوا أيها أفضل : الفقير أو الصوفي ؟

فذهب طائفة إلى ترجيح الصوفي كأبي جعفر السهروردي ونحوه ، وذهب طائفة إلى ترجيح الفقير كطوائف كثيرين .

وربما يختص هؤلاء بالزوايا وهؤلاء بالخوانك ونحو ذلك .

وأكثر الناس قد رجحوا الفقير .

والتحقيق : أن أفضلها أتقاهما ، فإن كان الصوفي أتقى لله كان أفضل منه ، وهو أن يكون أعمل بما يحبه الله وأترك لما لايحبه ، فهو أفضل من الفقير .

وإن كان الفقير أعمل بما يحبه الله وأترك لما لايحبه كان أفضل منه ، فإن استويا في فعل المحبوب وترك غير المحبوب استويا في الدرجة .

و « أولياء الله » هم المؤمنون المتقون سواء سمّي أحدهم : فقيراً أو صوفياً أو فقيها أو عالماً أو تاجراً أو جندياً أو صانعاً أو أميراً أو حاكماً أو غير ذلك قال الله تعالى : ﴿ **ألا إن أولياء الله لاخوف عليهم ولاهم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون** ﴾ .

٢ ـ وذكر في « مجموع الفتاوى » الجزء الحادي عشر صفحة (٢٥) :

وسئل : ماتقول الفقهاء ـ رضي الله عنهم ـ في رجل يقول : « إن الفقر لم نتعبد به ولم نؤمر به ولا جسم له ولامعنى ، وأنه غير سبيل موصل إلى رضا الله تعالى وإلى رضا رسوله ، وإنما تعبدنا بمتابعة أمر الله واجتناب نهيه من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وإن أصل كل شيء العلم والتعبد به والعمل به والتقوى والورع عن المحارم ، و « الفقر » المسمى على لسان الطائفة والأكابر هو

الزهد في الدنيا ، والزهد في الدنيا يفيده العلم الشرعي فيكون الزهد في الدنيا العمل بالعلم وهذا هو الفقر ، فإذاً الفقر فرع من فروع العلم ، والأمر على هذا وماثم طريق أوصل من العلم والعمل بالعلم على ماصح وثبت عن النبي ﷺ ، ويقول : « إن الفقر المسمى المعروف عند أكثر أهل الزي المشروع في هذه الأعصار من الزي والألفاظ والاصطلاحات المعتادة غير مرضي لله ولا لرسوله » فهل الأمر كما قال أو غير ذلك ؟ أفتونا مأجورين .

فأجاب الشيخ تقي الدين ابن تيمية ـ رضي الله عنه ـ : الحمد لله ، أصل هذة المسألة أن الألفاظ التي جاء بها الكتاب والسنة علينا أن نتبع مادلت عليه مثل لفظ الإيمان والبر والتقوى والصدق والعدل والإحسان والصبر والشكر والتوكل والخوف والرجاء والحب لله والطاعة لله وللرسول وبر الوالدين والوفاء بالعهد ونحو ذلك مما يتضمن ذكر ماأحبه الله ورسوله من القلب والبدن .

فهذه الأمور التي يحبها الله ورسوله هي الطريق الموصل إلى الله مع ترك مانهى الله عنه ورسوله كالكفر والنفاق والكذب والإثم والعدوان والظلم والجزع والهلع والشرك والبخل والجبن وقسوة القلب والغدر وقطيعة الرحم ونحو ذلك .

فعلى كل مسلم أن ينظر فيما أمر الله به ورسوله فيفعله ، ومانهى الله عنه ورسوله فيتركه ، هذا هو طريق الله وسبيله ودينه الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وهذا « الصراط المستقيم » يشتمل على علم وعمل : علم شرعي وعمل شرعي . فمن علم ولم يعمل بعلمه كان فاجراً ، ومن عمل بغير علم كان ضالاً .

وقد أمرنا الله سبحانه أن نقول : ﴿ **اهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولاالضالين** ﴾ ، قال النبي ﷺ :

اليهود مغضوب عليهم ، والنصارى عبدوا الله بغير علم .

ولهذا كان السلف يقولون : احذروا فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل ، فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون .

وكانوا يقولون : من فسد من العلماء ففيه شبه من اليهود ومن فسد من العباد ففيه شبه من النصارى .

فمن دعا إلى العلم دون العمل المأمور به كان مضلاً .

ومن دعا إلى العمل دون العلم كان مضلاً .

وأضل منهما من سلك في العلم طريق أهل البدع فيتبع أموراً تخالف الكتاب والسنة يظنها علوماً وهي جهالات .

وكذلك من سلك في العبادة طريق أهل البدع فيعمل أعمالاً تخالف الأعمال المشروعة يظنها عبادات وهي ضلالات .

فهذا وهذا كثير في المنحرف المنتسب إلى فقه أو فقر ، يجتمع فيه أنه يدعو إلى العلم دون العمل ، والعمل دون العلم ، ويكون مايدعو إليه فيه بدع تخالف الشريعة .

وطريق الله لاتتم إلا بعلم وعمل ، يكون كلاهما موافقاً للشريعة .

فالسالك طريق « الفقر والتصوف والزهد والعبادة » إن لم يسلك بعلم يوافق الشريعة ، وإلا كان ضالاً عن الطريق ، وكان مايفسده أكثر مما يصلحه .

والسالك من « الفقه والعلم والنظر والكلام » إن لم يتابع الشريعة ويعمل بعلمه وإلا كان فاجراً ضالاً عن الطريق .

فهذا هو الأصل الذي يجب اعتماده على كل مسلم .

وأما التعصب لأمر من الأمور بلا هدى من الله فهو من عمل الجاهلية ﴿ **ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله** ﴾ .

ولاريب أن لفظ « الفقر » في الكتاب والسنة وكلام الصحابة والتابعين وتابعيهم لم يكونوا يريدون به نفس طريق الله وفعل ماأمر به وترك مانهى عنه والأخلاق المحمودة ولانحو ذلك ، بل الفقر عندهم ضد الغنى .

و « الفقراء » هم الذين ذكرهم الله في قوله ﴿ **إنما الصدقات للفقراء والمساكين** ﴾ وفي قوله ﴿ **للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله** ﴾ وفي قوله ﴿ **للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم** ﴾ .

و « الغني » هو الذي لايحل له أخذ الزكاة أو الذي تجب عليه الزكاة أو مايشبه ذلك . لكن لما كان الفقر مظنة الزهد طوعاً وكرهاً ، إذ من العصمة أن لاتقدر ، وصار المتأخرون كثيراً ما يقرنون بالفقر معنى الزهد .

والزهد قد يكون مع الغِنىٰ وقد يكون مع الفقر ، ففي الأنبياء والسابقين الأولين ممن هو زاهد مع غناه كثير .

و « الزهد » المشروع ترك مالا ينفع في الدار الآخرة ، وأما كل مايستعين به العبد على طاعة الله فليس تركه من الزهد المشروع ، بل ترك الفضول التي تشغل عن طاعة الله ورسوله هو المشروع .

وكذلك في أثناء المائة الثانية صاروا يعبرون عن ذلك بلفظ « الصوفي » لأن لبس الصوف يكثر في الزهاد .

٣ ـ وذكر أيضا في « مجموع الفتاوى » الجزء الحادي عشر صفحة (٧٠) :

وأما المتأخرون « فالفقير » في عُرفهم عبارة عن السالك إلى الله تعالى كما

هو « الصوفي » في عرفهم أيضاً .

ثم منهم من يرجح مسمّى « الصوفي » علىمسمى « الفقير » لأنه عنده الـذي قام بالباطن والظاهر .

ومنهم من يرجـح مسمى « الفقير » لأنـه عنـده الـذي قطـع العـلائـق ولم يشتغل في الظاهر بغير الأمور الواجبة ، وهذه منازعات لفظيـة إصطلاحيـة . و « التحقيق » أن المراد المحمود بهذين الاسمين داخل في مسمى الصـديق والولي والصالح ونحو ذلك من الأسماء التي جاء بها الكتاب والسنـة ، فمن حيث دخل في الأسماء النبوية يترتب عليه من الحكم ما جاءت به الرسالة .

وأما مـاتميز بـه ممـا يعـده صـاحبـه فضلاً وليس بفضل أو ممـا يوالي عليـه صاحبه غيره ونحو ذلك من الأمور التي يترتب عليها زيادة الدرجـة في الـدين والدنيا فهي أمور مهدرة في الشريعة إلا إذا جعلت من المباحات كالصناعات ، فهذا لا بأس به بشرط أن لا يعتقد أن تلك المباحات من الأمور المستحبات.

وأمـا مـايقترن بـذلـك من الأمور المكروهـة في دين الله من أنواع البـدع والفجور فيجب النهي عنه كما جاءت به الشريعة .

٤ ـ وذكر أيضاً في « مجموع الفتاوى » الجزء الحادي عشر صفحة (١٩٤) :

« فصل »

وليس لأوليـاء الله شيء يتميزون بـه عن النـاس في الظـاهر من الأمـور المباحات ، فلا يتميزون بلبـاس دون لبـاس إذا كان كلاهمـا مبـاحـاً ، ولابحلق شعر أو تقصيره أو ظفره إذا كان مباحاً كما قيل « كم من صدّيق في قباء وكم من زنديق في عباء » .

بل يوجدون في جميع أصناف أمـة محمـد ﷺ إذا لم يكونوا من أهل البـدع

الظاهرة والفجور .

فيوجدون في أهل القرآن وأهل العلم ، ويوجدون في أهل الجهاد والسيف ، ويوجدون في التجار والصناع والزراع .

وقد ذكر الله أصناف أمة محمد ﷺ في قوله تعالى : ﴿ **إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الليل والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرؤوا ما تيسر من القرآن علم أن سيكون منكم مرضىٰ وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله فاقرؤوا ماتيسر منه** ﴾ .

وكان السلف يسمون أهل الدين والعلم « القراء » فيدخل فيهم العلماء والنساك ثم حدث بعد ذلك اسم « الصوفية والفقراء » .

واسم « الصوفية » هو نسبة إلى لباس الصوف ، هذا هو الصحيح .

وقد قيل إنه نسبة إلى صفوة الفقهاء ، وقيل إلى صوفة بن أد بن طابخة قبيلة من العرب كانوا يُعرفون بالنسك ، وقيل إلى أهل الصفة ، وقيل إلى الصفا ، وقيل إلى الصفوة ، وقيل إلى الصف المقدم بين يدي الله تعالى ، وهذه أقوال ضعيفة ، فإنه لو كان كذلك لقيل : صفي أو صفائي أو صفوي أو صفي ، ولم يقل « صوفي » .

وصار أيضاً اسم « الفقراء » يعنى به أهل السلوك ، وهذا عرف حادث . وقد تنازع الناس أيما أفضل مسمًّى « الصوفي » أو مسمًّى « الفقير » ؟ ويتنازعون أيضا أيما أفضل : الغني الشاكر أو الفقير الصابر ؟

٥ ـ وذكر أيضاً في « مجموع الفتاوى » الجزء الحادي عشر صفحة (٣٢٠)

بعد بحث نفيس عن الخارق قال مانصه :

فتلخص أن الخارق (كشفاً كان أم تأثيراً) ثلاثة أقسام :

محمود في الدين ، ومذموم في الدين ، ومباح ، لامحمود ولامذموم في الدين . فإن كان المباح فيه منفعة كان نعمة ، وإن لم يكن فيه منفعة كان كسائر المباحات التي لامنفعة فيها كاللعب والعبث .

قال أبو على الجوزجاني[1] : كن طالباً للاستقامة لاطالباً للكرامة فإن نفسك منجبلة على طلب الكرامة وربك يطلب منك الاستقامة .

قال الشيخ السهروردي في عوارفه : وهذا الذي ذكره أصل عظيم كبير في الباب وسر غفل عن حقيقته كثير من أهل السلوك والطلاب .

وذلك أن المجتهدين والمتعبدين سمعوا عن سلف الصالحين المتقدمين ومامنحوا به من الكرامات وخوارق العادات فأبداً نفوسهم لاتزال تتطلع إلى شيء من ذلك ، ويحبون أن يرزقوا شيئاً من ذلك ، ولعل أحدهم يبقى منكسر القلب متهما لنفسه في صحة عمله حيث لم يكاشف بشيء من ذلك ، ولو علموا سر ذلك لهان عليهم فيعلم أن الله يفتح على بعض المجاهدين الصادقين من ذلك بابا . والحكمة فيه أن يزداد بما يرى من خوارق العادات وآثار القدوة تفننا ، فيقوى عزمه على هذا الزهد في الدنيا ، والخروج من دواعي الهوى .

وقد يكون بعض عباده يكاشف بصدق اليقين ويرفع عن قلبه الحجاب ، ومن كوشف بصدق اليقين أغني بذلك عن رؤية خرق العادات ، لأن المراد منها كان حصول اليقين وقد حصل اليقين ، فلو كوشف هذا المرزوق صدق اليقين بشيء من ذلك لازداد يقينا .

---

(١) أحد كبار مشايخ السادة الصوفية وأئمتهم رحمهم الله .

فلا تقضي الحكمة كشف القدرة بخوارق العادات لهذا الموضع استغناء به وتقتضي الحكمة كشف ذلك لآخر لموضع حاجته ، وكان هذا الثاني يكون أتم استعدادا وأهليه من الأول .

فسبيل الصادق مطالبة النفس بالاستقامة ، فهي كل الكرامة ، ثم إذا وقع في طريقه شيء خارق كان كأن لم يقع فما يبالي ولا ينقص بذلك ، وإنما ينقص بالإخلال بواجب حق الاستقامة .

فتعلم هذا ، لأنه أصل كبير للطالبين والعلماء الزاهدين ومشايخ الصوفية .

٦ ـ وذكر أيضاً في « مجموع الفتاوى » الجزء الحادي عشر صفحة (٣٣٨) :

فالطريق العقلية والنقلية والكشفية والخبرية والنظرية : طريقة أهل الحديث وأهل الكلام وأهل التصوف ، قد تجاذبها الناس نفياً وإثباتاً . فمن الناس من ينكر منها مالا يعرفه ، ومن الناس من يغلو فيما يعرفه ، فيرفعه فوق قدره وينفي ماسواه .

فالمتكلمة والمتفلسفة تعظم الطرق العقلية وكثير منها فاسد متناقض ، وهم أكثر خلق الله تناقضاً واختلافاً ، وكل فريق يرد على الآخر فيما يدعيه قطعياً.

وطائفة ممن تدعي السنة والحديث يحتجون فيها بأحاديث موضوعة وحكايات مصنوعة يعلم أنها كذب ، وقد يحتجون بالضعيف في مقابلة القوي .

وكثير من المتصوفة والفقراء يبني على منامات وأذواق وخيالات يعتقدها كشفاً وهي خيالات غير مطابقة وأوهام غير صادقة ﴿ **إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً** ﴾ فنقول :

أما طرق الأحكام الشرعية التي نتكلم عليها في أصول الفقه فهي ـ بإجماع المسلمين ـ « **الكتاب** » لم يختلف أحد من الأئمة في ذلك ، كما خالف بعض أهل

الضلال في الاستدلال على بعض المسائل الاعتقادية .

والثاني : « **السنة المتواترة** » التي لاتخالف ظاهر القرآن ، بل تفسره مثل أعداد الصلاة وأعداد ركعاتها ونصاب الزكاة وفرائضها وصفة الحج والعمرة وغير ذلك من الأحكام التي لم تعلم إلا بتفسير السنة ....

الطريق الثالث : « **السنن المتواترة** » عن رسول الله ﷺ إما متلقاة بالقبول بين أهل العلم بها ، أو برواية الثقات لها .

وهذه أيضاً مما اتفق أهل العلم على اتباعها من أهل الفقه والحديث والتصوف وأكثر أهل العلم ، وقد أنكرها بعض أهل الكلام .

وأنكر كثير منهم أن يحصل العلم بشيء منها وإنما يوجب العلم ، فلم يفرقوا بين المتلقى بالقبول وغيره ..... .

الطريق الرابع : « **الإجماع** » وهو متفق عليه من بين عامة المسلمين من الفقهاء والصوفية وأهل الحديث والكلام وغيرهم في الجملة ، وأنكره بعض أهل البدع من المعتزلة والشيعة ، لكن المعلوم منه هو ماكان عليه الصحابة وأما ما بعد ذلك فتعذر العلم به غالباً .... .

الطريق الخامس : « **القياس على النص والإجماع** » وهو حجة أيضاً عند جماهير الفقهاء ، ولكن كثيراً من أهل الرأي أسرف فيه حتى استعمله قبل البحث عن النص ، وحتى رد به النصوص وحتى استعمل منه الفاسد .

ومن أهل الكلام وأهل الحديث وأهل القياس من ينكره رأساً .

وهي مسألة كبيرة ، والحق فيها متوسط بين الإسراف والنقض .

الطريق السادس : « **الاستصحاب** » وهو البقاء على الأصل فيما لم يعلم ثبوته وانتفاؤه بالشرع ، وهو حجة على عدم الاعتقاد بالاتفاق ، وهل هو

حجة في اعتقاد العدم ؟ فيه خلاف ....

الطريق السابع : « **المصالح المرسلة** » وهو أن يرى المجتهد أن هذا الفعل يجلب منفعة راجحة وليس في الشرع ماينفيه .

فهذه الطريق فيها خلاف مشهور ، فالفقهاء يسمونها « المصالح المرسلة » ومنهم من يسميها « الرأي » وبعضهم يقرب إليها « الاستحسان » ، وقريب منها : ذوق الصوفية ووجدهم وإلهاماتهم ، فإن حاصلها أنهم يجدون في القول والعمل مصلحة في قلوبهم وأديانهم ويذوقون طعم ثمرته ، وهذه مصلحة .

لكن بعض الناس يخص المصالح المرسلة بحفظ النفوس والأموال والأعراض والعقول والأديان ، وليس كذلك .

بل المصالح المرسلة في جلب المنافع وفي دفع المضار ، وماذكروه من دفع المضار عن هذه الأمور الخمسة فهو أحد القسمين .

وجلب المنفعة يكون في الدنيا وفي الدين ، ففي الدنيا كالمعاملات والأعمال التي يقال فيها مصلحة للخلق من غير حظر شرعي .

وفي الدين ككثير من المعارف والأحوال والعبادات والزهادات التي يقال فيها مصلحة للإنسان من غير منع شرعي ، فمن قصر المصالح على العقوبات التي فيها دفع الفساد عن تلك الأحوال ليحفظ الجسم فقط فقد قصر .

وهذا فصل عظيم ينبغي الاهتمام به ، فإن من جهته حصل في الدين اضطراب عظيم ، وكثير من الأمراء والعلماء والعباد رأوا مصالح فاستعملوها بناء على هذا الأصل ، وقد يكون منها ماهو محظور في الشرع ولم يعلموه ، وربما قدم على المصالح المرسلة كلاماً بخلاف النصوص ، وكثير منهم من أهمل مصالح يجب اعتبارها شرعاً بناءً على أن الشرع لم يرد بها ، ففوت واجبات

ومستحبـات ، أو وقـع في محظـورات ومكروهـات ، وقـد يكـون الشرع ورد بذلك ولم يعلم .

٧ ـ وذكر في « مجموع الفتاوى » الجزء الحادي عشر صفحة (٣٨١) :

وسئـل : أيما أولى : معـالجـة مـايكره الله من قلبـك مثـل الحسـد والحقـد والغل والكبر والريـاء والسمعـة ورؤيـة الأعمـال وقسـوة القلب وغير ذلـك مما يختص بالقلب من درنه وخبثـه ، أو الاشتغـال بـالأعمـال الظـاهرة من الصلاة والصيـام وأنواع القربـات من النوافل والمنـذورات مع وجـود تلـك الأمـور في قلبه ؟ أفتونا مأجورين .

فـأجـاب ـ رحمـه الله ـ: الحمـد لله ، من ذلـك مـاهـو عليـه واجب ، وإن للأوجب فضل وزيادة كما قال تعالى فيما يرويه عنه رسوله ﷺ « ماتقرب إلي عبدي بمثل أداء مافترضت عليه » .

ثم قـال : « ولا يزال عبـدي يتقرب إلي بـالنوافل حتى أحبـه » ، والأعمـال الظاهرة لا تكون صالحـة مقبولـة إلا بتوسـط عمل القلب ، فـإن القلب ملـك والأعضاء جنوده ، فإذا خبث الملك خبثت جنوده .

ولهذا قال النبي ﷺ : « ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسـد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله » .

وكذلـك أعمـال القلب لابـد أن تؤثر في عمل الجسـد ، وإذا كان المقـدم هو الأوجب [سواء] سمي باطناً أو ظاهراً فقد يكون مايسمى باطناً أوجب مثل ترك الحسد والكبر فإنه أوجب عليه من نوافل الصيام .

وقد يكون ماسمي ظاهراً أفضل ، مثل قيام الليل ، فإنـه أفضل من مجرد ترك بعض الخـواطر التي تخطر في القلب من جنس الغبطـة ونحـوهـا ، وكل

واحد من عمل الباطن والظاهر يعين الآخر ، والصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر وتورث الخشوع ونحو ذلك من الآثار العظيمة ، هي أفضل الأعمال والصدقة ، والله أعلم .

٨ ـ وذكر أيضاً في « مجموع الفتاوى » الجزء الحادي عشر صفحة (٣٩٥) :

سئل : ماالحكمة في أن المشتغلين بالذكر والفكر والرياضة ومجاهدة النفس وماأشبهه يفتح عليهم من الكشوفات والكرامات وماسوى ذلك من الأحوال ـ مع قلة علمهم وجهل بعضهم ـ مالايفتح على المشتغلين بالعلم ودرسه والبحث عنه ؟ حتى لو بات الإنسان متوجهاً مشتغلاً بالذكر والحضور لابد أن يرى واقعة أو يفتح عليه شيء ، ولو بات ليلة يكرر على باب من أبواب الفقه لايجد ذلك ، حتى أن كثيراً من المتعبدين يجد للذكر حلاوة ولذة ، ولايجد ذلك عند قراءة القرآن مع أنه قد وردت السنة بتفضيل العالم على العابد لاسيا إذا كان العابد محتاجاً إلى علم هو مشتغل به عن العبادة ، ففي الحديث « إن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع ، وإن العلماء ورثة الأنبياء ، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب » ، وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال : « إذا كان يوم القيامة يقول الله عز وجل للعابدين والمجاهدين ادخلوا الجنة فيقول العلماء : بفضل علمنا عبدوا وجاهدوا ، فيقول الله عز وجل لهم : أنتم عندي كملائكتي ، اشفعوا ، فيشفعون ثم يدخلون الجنة » وغير ذلك من الأحاديث والآثار .

ثم إن كثيراً من المتعبدين يؤثر العبادة على طلب العلم مع جهله بما يبطل كثيراً من عبادته كنواقض الوضوء أو مبطلات الصلاة والصوم ، وربما يحكي بعضهم حكاية في هذا المعنى : بأن « رابعة العدوية » رحمها الله أتت ليلة بالقدس تصلي حتى الصباح ، وإلى جانبها بيت فيه فقيه يكرر على باب

الحيض إلى الصباح ، فلما أصبحت رابعة قالت له : ياهذا ! وصل الواصلون إلى ربهم وأنت مشتغل بحيض النساء ، أو نحوها .

فما المانع أن يحصل للمشتغلين بالعلم مايحصل للمشتغلين بالعبادة مع فضله عليه ؟ .

فأجاب : الحمد لله رب العالمين ، لاريب أن الذي أوتي العلم والإيمان أرفع درجة من الذين أوتوا الإيمان فقط ، كما دل على ذلك الكتاب والسنة .

والعلم الممدوح الذي دل عليه الكتاب والسنة هو العلم الذي ورثته الأنبياء كما قال النبي ﷺ « إن العلماء ورثة الأنبياء إن الأنبياء لم يورّثوا درهماً ولاديناراً وإنما ورثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر » .

وهذا العلم ثلاثة أقسام :

« علم بالله وأسمائه وصفاته » ومايتبع ذلك وفي مثله أنزل الله سورة الإخلاص وآية الكرسي ونحوهما .

« والقسم الثاني » : « العلم بما أخبر الله به مما كان من الأمور الماضية ومايكون من الأمور المستقبلة ، وماهو كائن من الأمور الحاضرة » ، وفي مثل هذا أنزل الله آيات القصص والوعد والوعيد وصفة الجنة والنار ونحو ذلك .

« والقسم الثالث » : « العلم بما أمر الله به من الأمور المتعلقة بالقوالب والجوارح من الإيمان بالله من معارف القلوب وأحوالها وأقوال الجوارح وأعمالها » .

وهذا العلم يندرج فيه العلم بأصول الإيمان وقواعد الإسلام ، ويندرج فيه العلم بالأقوال والأفعال الظاهرة ، وهذا العلم يندرج فيه ماوجد في كتب الفقهاء من العلم بأحكام الأفعال الظاهرة ، فإن ذلك جزء من جزء من جزء

من علم الـدين ـ كما أن المكاشفـات التي تكون لأهل الصفـا جـزء من جـزء من جزء من علم الأمور الكونية .

والناس إنما يغلطون في هذه المسائل لأنهم يفهمون مسمَّيـات الأسماء الواردة في الكتـاب والسنـة ، ولا يعرفون حقـائق الأمور الموجودة ، فرب رجل يحفـظ حروف العلم التي أعظمهـا حفـظ حروف القرآن ولا يكـون لـه من الفهم ، بـل ولامن الإيمان مـا يتميز بـه على من أوتي القرآن ولم يؤت حفـظ حروف العلم كما قال النبي ﷺ في الحديث المتفق عليـه : « مثل المؤمن الـذي يقرأ القرآن مثل الأترجة طعمهـا طيب وريحهـا طيب ، ومثل المؤمن الـذي لا يقرأ القرآن مثل التمرة طعمها طيب ولا ريح لها ، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحهـا طيب وطعمهـا مر ، ومثل المنـافـق الـذي لا يقرأ القرآن مثـل الحنظلـة طعمها مر ولا ريح لها » .

فقـد يكون الرجل حـافظـاً لحروف القرآن وسوره ولا يكـون مـؤمنـاً بـل يكون منافقاً ، فالمؤمن الذي لا يحفظ حروفه وسوره خير منه ، وإن كان ذلك المنافق ينتفع به الغير كما ينتفع بالريحـان ، وأمـا الـذي أوتي العلم والإيمـان فهو مؤمن عليم فهو أفضـل من المـؤمن الـذي ليس مثلـه في العلم مثـل اشتراكهما في الإيمان ، فهذا أصل تجب معرفته .

وههنا « أصل آخر » وهو : أنـه ليس كل عمل أورث كشوفـاً أو تصرفـاً في الكون يكون أفضل من العمل الذي لا يورث كشفاً وتصرفاً .

فإن الكشف والتصرف إن لم يكن مما يستعـان بـه على دين الله وإلا كان من متاع الحياة الدنيا .

وقد يحصل ذلك للكفار من المشركين وأهل الكتاب ، وإن لم يحصل لأهل الإيمان الذين هم أهل الجنة ، وأولئك أصحاب النار .

ففضائل الأعمال ودرجاتها لاتتلقى من مثل هذا ، وإنما تتلقى من دلالة الكتاب والسنة ، ولهذا كان كثير من الأعمال يحصل لصاحبه في الدنيا رئاسة ومال ، فأكرم الخلق عند الله أتقاهم ، ومن عَبَد الله بغير علم فقد أفسد أكثر مما يصلح ، وإن حصل له كشف وتصرف ، وإن اقتدى به خلق كثير من العامة ، وقد بسطنا الكلام في هذا الباب في مواضعه ، فهذا « أصل ثان » .

و « أصل ثالث » إن تفضيل العمل على العمل قد يكون مطلقاً مثل تفضيل أصل الدين على فرعه وقد يكون مقيداً .

فقد يكون أحد العملين في حق زيد أفضل من الآخر ، والآخر في حق عمرو أفضل ، وقد يكونان متماثلين في حق الشخص ، وقد يكون المفضول في وقت أفضل من الفاضل ، وقد يكون المفضول في حق من يقدر عليه وينتفع به أفضل من الفاضل في حق من ليس كذلك .

مثال ذلك أن قراءة القرآن أفضل من مجرد الذكر بسنة رسول الله ﷺ وإجماع الأمة ـ ولااعتبار بمن يخالف ذلك من جهال العباد ـ ثم الركوع والسجود ينهى فيه عن قراءة القرآن ، ويؤمر فيه بالذكر و كذلك الذكر والدعاء في الطواف وعرفة ونحوهما أفضل من قراءة القرآن .

وكذلك الأذكار المشروعة مثل مايقال عند سماع النداء ودخول المسجد والمنزل والخروج منهما ، وعند سماع الديكة والحمر ونحو ذلك أفضل من قراءة القرآن في هذا الموطن .

وأيضاً فأكثر السالكين إذا قرأوا القرآن لايفهمونه ، وهم بعد لم يذوقوا حلاوة الإيمان الذي يزيدهم بها القرآن إيماناً ، فإذا أقبلوا على الذكر أعطاهم الذكر من الإيمان مايجدون حلاوته ولذته ، فيكون الذكر أنفع لهم حينئذ من قراءة لايفهمونها ، ولامعهم من الإيمان مايزداد بقراءة القرآن .

أما إذا أوتي الرجل الإيمان فالقرآن يزيده من الإيمان مالا يحصل بمجرد الذكر ، فهذا « أصل ثالث » .

و « أصل رابع » وهو : أن الرجل قد يأتي بالعمل الفاضل من غير مقام بشروطه ، ولاإخلاص فيه ، فيكون بتفويت شرائطه دون من أتى بالمفضول المكمل . فهذه الأصول ونحوها تبين جواب هذا السائل ، وإن كان تفصيل ذلك لا تتسع له الورقة ، والله أعلم .

٩ ـ وذكر أيضاً في « مجموع الفتاوى » الجزء الحادي عشر صفحة (٤٣٣) :

سئل شيخ الإسلام عن الحديث المروي في « الأبدال » هل هو صحيح أم مقطوع ؟ وهل « الأبدال » مخصوص بالشام أم حيث تكون شعائر الإسلام قائمة بالكتاب والسنة يكون بها الأبدال بالشام وغيره من الأقاليم ؟ وهل صحيح أن الولي يكون قاعداً في جماعة ويغيب جسده ؟ وماقول السادة العلماء في هذه الأسماء التي تسمى بها أقوام من المنسوبين إلى الدين والفضيلة ، ويقولون هذا غوث الأغواث وهذا قطب الأقطاب وهذا قطب العالم وهذا القطب الكبير وهذا خاتم الأولياء ؟ .

فأجاب : أما الأسماء الدائرة على ألسنة كثير من النساك والعامة مثل « الغوث » الذي بمكة و « الأوتاد الأربعة » و « الأقطاب السبعة » و « الأبدال الأربعين » و « النجباء الثلاثمائة » فهذه أسماء ليست موجودة في كتاب الله تعالى ، ولاهي أيضاً مأثورة عن النبي ﷺ بإسناد صحيح ولاضعيف يحمل (عليه) ألفاظ الأبدال ، فقد روي فيهم حديث شامي منقطع الإسناد عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه مرفوعاً إلى النبي ﷺ أنه قال : « إن فيهم ـ يعني أهل الشام ـ الأبدال الأربعين رجلاً ، كلما مات رجل أبدل الله تعالى مكانه رجلاً » . ولاتوجد هذه الأسماء في كلام السلف كما هي على هذا

الترتيب ، ولاهي مأثورة على هذا الترتيب والمعاني عن المشايخ المقبولين عند الأمة قبولاً عاماً .

وإنما توجد على هذه الصورة عن بعض المتوسطين من المشايخ ، وقد قالها إما آثرا لها عن غيره أو ذاكراً .

وهذا الجنس ونحوه من علم الدين قد التبس عند أكثر المتأخرين حقه بباطله ، فصار فيه من الحق مايوجب قبوله ، ومن الباطل مايوجب رده ، وصار كثير من الناس على طرفي نقيض .

قوم كذبوا به كله لما وجدوا فيه من الباطل .

وقوم صدقوا به كله لما وجدوا فيه من الحق .

وإنما الصواب : التصديق بالحق والتكذيب بالباطل ....

فأما لفظ « الغوث والغياث » فلا يستحقه إلا الله ، فهو غياث المستغيثين فلا يجوز لأحد الاستغاثة بغيره ، لابملك مقرب ولانبي مرسل ....

وأما « الأوتاد » فقد يوجد في كلام البعض أنه يقول : فلان من الأوتاد ، يعني بذلك أن الله تعالى يثبت به الإيمان والدين في قلوب من يهديهم الله به ، كما يثبت الأرض بأوتادها .

وهذا المعنى ثابت لكل من كان بهذه الصفة من العلماء ، فكل من حصل به تثبيت العلم والإيمان في جمهور الناس كان بمنزلة الأوتاد العظيمة والجبال الكبيرة ، ومن كان بدونه كان بحسبه .

وليس ذلك محصوراً في أربعة ولاأقل ولاأكثر ، بل جَعل هؤلاء أربعة مضاهاة بقول المنجمين في أوتاد الأرض .

وأما « القطب » فيوجد أيضاً في كلامهم « فلان من الأقطاب » أو « فلان

قطب » فكل من دار عليه أمر من أمور الدين أو الدنيا باطناً أو ظاهراً فهو « قطب ذلك الأمر ومداره » سواء كان الدائر عليه أمر داره أو دربه أو قريته أو مدينته ، أمر دينها أو دنياها ، باطناً وظاهراً ، ولااختصاص لهذا المعنى بسبعة ولاأقل ولاأكثر .

لكن الممدوح من ذلك من كان مدارا لصلاح الدنيا والدين دون مجرد صلاح الدنيا . فهذا هو القطب في عرفهم ، فقد يتفق في بعض الأعصار أن يكون شخص أفضل أهل عصره ، وقد يتفق في عصر آخر أن يتكافأ اثنان أو ثلاثة في الفضل عند الله سواء .

ولا يجب أن يكون في كل زمان شخص واحد هو أفضل الخلق عند الله مطلقاً . والذين تكلموا باسم البدل فسروه بمعان : منها أنهم أبدال الأنبياء ، ومنها أنه كلما مات منهم رجل أبدل الله تعالى مكانه رجلاً ، ومنها أنهم أبدلوا السيئات من أخلاقهم وأعمالهم وعقائدهم بحسنات .

وهذه الصفات كلها لاتختص بأربعين ولابأقل ولابأكثر ولاتحصر بأهل بقعة من الأرض ، وبهذا التحرير يظهر المعنى في اسم « النجباء » ....

وليس في أولياء الله المتقين ولاعباد الله المخلصين الصالحين ولاأنبيائه المرسلين من كان غائب الجسد دائماً عن أبصار الناس ، بل هذا من جنس قول القائلين « إن علياً في السحاب » و « إن محمد ابن الحنفية في جبال رضوى » و « إن محمد بن الحسن بسرداب سامري » و « إن الحاكم بجبل مصر » و « إن الأبدال الأربعين رجال الغيب بجبل لبنان » فكل هذا ونحوه من قول أهل الإفك والبهتان .

نعم قد تخرق العادة في حق الشخص فيغيب تارة عن أبصار الناس إما لدفع عدو عنه وإما لغير ذلك ، وأما أنه يكون هكذا طول عمره فباطل .

نعم يكون نور قلبه وهدى فؤاده ومافيه من أسرار الله تعالى وأمانته وأنواره ، ومعرفته غيباً عن أعين الناس ويكون صلاحه وولايته غيبا عن أكثر الناس ، فهذا هو الواقع .

وأسرار الحق بينه وبين أوليائه ، وأكثر الناس لا يعلمون .

١٠ ـ وذكر أيضاً في « مجموع الفتاوى » الجزء العاشر صفحة (٥) :

بسم الله الرحمن الرحيم ـ الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لانبي بعده .

الحمد لله نستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ونشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم .

أما بعد فهذه كلمات مختصرات في أعمال القلوب التي قد تسمي « المقامات والأحوال » وهي من أحوال الإيمان وقواعد الدين مثل : محبة الله ورسوله والتوكل على الله وإخلاص الدين له والشكر له والصبر على حكمه والخوف منه والرجاء له ومايتبع ذلك .

اقتضى ذلك بعض من أوجب الله حقه من أهل الإيمان واستكتبها وكل منا عجلان . فأقول : هذ الأعمال جميعها واجبة على جميع الخلق ـ المأمورين في الأصل ـ باتفاق أئمة الدين .

والناس فيها على ثلاث درجات كما هو في أعمال الأبدان على « ثلاث درجات » : ظالم لنفسه ، ومقتصد ، وسابق بالخيرات .

فالظالم لنفسه : العاصي بترك مأمور أو فعل محظور .

والمقتصد : المؤدي الواجبات والتارك المحرمات .

والسابق بالخيرات : المتقرب بما يقدر عليه من فعل واجب ومستحب ، والتارك للمحرم والمكروه ، وإن كان كل من المقتصد والسابق قد يكون له ذنوب تمحى عنه إما بتوبته ـ والله يحب التوابين ويحب المتطهرين ـ وإما بحسنات ماحية ، وإما بمصائب مكفرة ، وإما بغير ذلك .

وكل من الصنفين : المقتصدين والسابقين من أولياء الله الذين ذكرهم في كتابه بقوله ﴿ **ألا إن أولياء الله لاخوف عليهم ولاهم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون** ﴾ فحد أولياء الله : هم المؤمنون المتقون .

ولكن ذلك ينقسم إلى « عام » وهم المقتصدون .

و « خاص » وهم السابقون .

وإن كان السابقون هم أعلى درجات كالأنبياء والصديقين .

وقد ذكر النبي ﷺ القسمين في الحديث الذي رواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال يقول الله : « من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة ، وماتقرب إليَّ عبدي بمثل أداءماافترضت عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها ، فَبِي يسمع وبي يبصر وبي يبطش وبي يمشي ، ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه ، وماترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولابد له منه » .

وأما الظالم لنفسه من أهل الإيمان فمعه من ولاية الله بقدر إيمانه وتقواه ، كما معه من ضد ذلك بقدر فجوره ، إذ الشخص الواحد قد يجتمع فيه الحسنات

المقتضيـة للثـواب ، والسيئـات المقتضيـة للعقـاب ، حتى يمكن أن يثـاب ويعاقب . وهذا قول جميع أصحاب رسول الله ﷺ وأئمة الإسلام وأهل السنة والجماعة الذين يقولون : إنه لايخلد في النار من في قلبه مثقال ذرة من إيمان .... وهذه الأعمال الباطنة كمحبة الله والإخلاص له والتوكل عليه والرضا عنه ونحو ذلك ، كلها مأمور بها في حق الخاصة والعامة لايكون تركها محموداً في حال أحد وإن ارتقى مقامه .

.... ولكن هذه « المقامات » ينقسم الناس فيها إلى خصوص وعموم ، فللخاصة خاصها وللعامة عامها .

مثال ذلك : أن هؤلاء قالوا : إن التوكل مناضلة عن النفس في طلب القوت والخاص لايناضل عن نفسه .

وقالوا : المتوكل يطلب بتوكله أمراً من الأمور ، والعارف يشهد الأمور بفروعها منها فلا يطلب شيئاً .

فيقال : أما الأول فإن التوكل أعم من التوكل في مصالح الدنيا ، فإن المتوكل يتوكل على الله في صلاح قلبه ودينه وحفظ لسانه وإرادته وهذا أهم الأمور إليه ، ولهذا يناجي ربه في كل صلاة بقوله : ﴿ **إياك نعبد وإياك نستعين** ﴾ كما في قوله تعالى : ﴿ **فاعبده وتوكل عليه** ﴾ وقوله : ﴿ **عليه توكلت وإليه أنيب** ﴾ وقوله : ﴿ **قل هو ربي لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب** ﴾ .

فهو قد جمع بين العبادة والتوكل في عدة مواضع ، لأن هذين يجمعان الدين كله ولهذا قال من قال من السلف : « إن الله جمع الكتب المنزلة في القرآن ، وجمع علم القرآن في المفصل وجمع علم المفصل في فاتحة الكتاب وجمع علم فاتحة الكتاب في قوله ﴿ **إياك نعبد وإياك نستعين** ﴾ .

١١ ـ وذكر أيضاً في « مجموع الفتاوى » الجزء العاشر صفحة (٨٢) :

كان المشايخ المصنفون في السنة يذكرون في عقائدهم مجانبة من يكثر دعوى المحبة والخوض فيها من غير خشية ، لما في ذلك من الفساد الذي وقع فيه طوائف من المتصوفة .

وماوقع في هؤلاء من فساد الاعتقاد والأعمال أوجب إنكار طوائف لأصل طريقة المتصوفة بالكلية ، حتى صار المنحرفون صنفين :

صنف يقر بحقها وباطلها .

وصنف ينكر حقها وباطلها كما عليه طوائف من أهل الكلام والفقه [1] .

والصواب إنما هو إقرار بما فيها وفي غيرها من موافقة الكتاب والسنة والإنكار لما فيها وفي غيرها من مخالفة الكتاب والسنة .

١٢ ـ وذكر أيضاً في « مجموع الفتاوى » الجزء العاشر صفحة (٣٣٧) :

« فصل »

« **الفناء** » الذي يوجد في كلام الصوفية يفسر بثلاثة أمور :

أحدها : فناء القلب عن إرادة ماسوى الرب ، والتوكل عليه وعبادته وما يتبع ذلك ، فهذا حق صحيح ، وهو محض التوحيد والإخلاص ، وهو في « الحقيقة » : عبادة القلب وتوكله واستعانته وتألهه وإنابته وتوجهه إلى الله وحده لاشريك له ومايتبع ذلك من المعارف والأحوال ، وليس لأحد خروج عن هذا .

وهذا هو « القلب السليم » الذي قال الله فيه : ﴿ **إلا من أتى الله بقلب**

---

(١) وطوائف من السلفية المنتسبين إلى شيخ الإسلام ابن تيمية مع الأسف .

سليم ﴾ وهو سلامة القلب عن الاعتقادات الفاسدة والإرادات الفاسدة وما يتبع ذلك .

وهذا الفناء لاينافيه البقاء ، بل يجتمع هو والبقاء فيكون العبد فانيا عن إرادة ماسواه وإن كان شاعرا بالله وبالسوىٰ ، وترجمته : قول « لاإله إلا الله » ، وكان النبي ﷺ يقول : « لاإله إلا الله ولانعبد إلا إياه له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن » وهذا في الجملة هو أول الدين وآخره .

والأمر الثاني : فناء القلب عن شهود ماسوى الرب ، فذاك فناء عن الإرادة ، وهذا فناء الشهادة .

ذاك فناء عن عبادة الغير والتوكل عليه ، وهذا فناء عن العلم بالغير والنظر إليه ، فهذا الفناء فيه نقص ، فإن شهود الحقائق على ماهي عليه ، وهو شهود الرب مدبراً لعباده آمرا بشرائعه أكمل من شهود وجُوده أو صفة من صفاته أو اسم من أسمائه ، والفناء بذلك عن شهود ماسوى ذلك .

ولهذا كان الصحابة أكمل شهوداً من أن ينقصهم شهود للحق مجملاً عن شهوده مفصلاً ، ولكن عرض كثير من هذا لِكثير من المتأخرين من هذه الأمة ، كما عرض لهم عند تجلي بعض الحقائق : الموت والغشي والصياح والاضطراب ، وذلك لضعف القلب عن شهود الحقائق على ماهي عليه وعن شهود التفرقة في الجمع والكثرة في الوحدة ، حتى اختلفوا في إمكان ذلك .

وكثير منهم يرى أنه لايمكن سوى ذلك لما رأى أنه إذا ذكر الخلق أو الأمر اشتغل عن الخالق الآمر .

وإذا عورض بالنبي ﷺ وخلفائه ادعى الاختصاص أو أعرض عن الجواب أو تحير في الأمر .

وسبب ذلك أنه قاس جميع الخلق على ماوجده من نفسه ولهذا يقول بعض هؤلاء إنه لا يمكن حين تجلي الحق سماع كلامه ....

وفي هذا الفناء قد يقول : أنا الحق أو سبحاني أو مافي الجبة إلا الله ، إذا فنى بمشهوده عن شهوده وبموجوده عن وجوده وبمذكوره عن ذكره وبمعروفه عن عرفانه . كما يحكون أن رجلاً كان مستغرقاً في محبة آخر فوقع المحبوب في اليم فألقى الآخر نفسه خلفه ، فقال : ماالذي أوقعك خلفي ؟ فقال : غِبت بك عني فظننت أنك أني .

وفي مثل هذا المقام يقع السكر الذي يسقط التمييز مع وجود حلاوة الإيمان كما يحصل بسكر الخمر وسكر عشيق الصور ، وكذلك يحصل الفناء بحال خوف أو رجاء ، كما يحصل بحال حب فيغيب القلب عن شهود بعض الحقائق و يصدر منه قول أو عمل من جنس أمور السكارى ، وهي شطحات بعض المشايخ كقول بعضهم : « أنصب خيمتي على جهنم » ونحو ذلك من الأقوال والأعمال المخالفة للشرع ، وقد يكون صاحبها غير مأثوم .

١٣ ـ وذكر أيضاً في « مجموع الفتاوى » الجزء الحادي عشر صفحة (٥١٠) :

وأما لباس الخرقة التي يُلبسها بعض المشايخ المريدين ، فهذه ليس لها أصل يدل عليها الدلالة المعتبرة من جهة الكتاب والسنة ، ولاكان المشايخ المتقدمون وأكثر المتأخرين يلبسونها المريدين ولكن طائفة من المتأخرين رأوا ذلك واستحبوه .

وقد استدل بعضهم بأن النبي ﷺ ألبس أم خالد بن سعيد بن العاص ثوباً وقال لها : سنا ، والسنا بلسان الحبشة : الحسن ، وكانت قد ولدت بأرض الحبشة ، فلهذا خاطبها بذلك اللسان .

واستدلوا أيضاً بحديث البردة التي نسجتها امرأة للنبي ﷺ فسأله إياها بعض الصحابة فأعطاه إياها وقال : أردت أن تكون كفناً لي .

وليس في هذين الحديثين دليل على الوجه الذي يفعلونه ، فإن إعطاء الرجل لغيره مايلبسه كإعطائه إياه ماينفعه ، وأخذ ثوب من النبي ﷺ على وجه البركة كأخذ شعره على وجه البركة ، وليس هذا كلباس ثوب أو قلنسوة على وجه المتابعة والاقتداء ولكن يشبه من بعض الوجوه خلع الملوك التي يخلعونها على من يولونه كأنها شعار وعلامة على الولاية والكرامة .

ولهذا يسمونها تشريفاً وهذا ونحوه غايته أن يجعل من جنس المباحات فإن اقترن به نية صالحة كان حسناً من هذه الجهة وأما جعل سنة وطريقاً إلى الله سبحانه وتعالى فليس الأمر كذلك .

وأما انتساب الطائفة إلى شيخ معين : فلا ريب أن الناس يحتاجون من يتلقون عنه الإيمان والقرآن ، كما تلقى الصحابة ذلك عن النبي ﷺ وتلقاه عنهم التابعون ، وبذلك يحصل اتباع السابقين الأولين بإحسان ، فكما أن المرء له من يعلمه القرآن ونحوه فكذلك له من يعلمه الدين الباطن والظاهر .

١٤ ـ وذكر أيضاً في « مجموع الفتاوى » الجزء الحادي عشر صفحة (٤٩٧) :

« فصل »

وأما ماذكروا من غلوهم في الشيوخ : فيجب أن يعلم أن الشيوخ الصالحين الذين يقتدى بهم في الدين هم المتبعون لطريق الأنبياء والمرسلين كالسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان ، ومن له في الأمة لسان صدق .

وطريقة هؤلاء دعوة الخلق إلى الله وإلى طاعته وطاعة رسوله واتباع

كتابه وسنة رسوله ﷺ .

والمقصود أن يكون الدين كله لله ، وتكون كلمة الله هي العليا ، فإن الله تعالى يقول : ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون * ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين** ﴾... ....

وقال تعالى : ﴿ **وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان** ﴾ الآية .

وروي أن بعض الصحابة قال : يارسول الله هل ربنا قريب فنناجيه أم بعيد فنناديه ؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية .

فهو سبحانه سميع قريب مجيب رحيم ، وهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها وهو يعلم من أحوال العباد مالا يعلمه غيره ، ويقدر على قضاء حوائجهم التي لايقدر عليها غيره ، ويرحمهم رحمة لايرحمهم بها غيره .

والشيوخ الذين يُقتدى بهم يدلون عليه ويرشدون إليه بمنزلة الأئمة في الصلاة ، يصلون ويصلي الناس خلفهم ، وبمنزلة الدليل الذي للحاج هو يدلهم على البيت ، وهو وهم جميعاً يحجون إليه ، ليس لهم من الإلهية نصيب ، بل من جعل لهم شيئاً من ذلك فهو من جنس النصارى والمشركين .

١٥ ـ وذكر في كتاب الاستقامة الذي نشرته جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية على نفقتها طبعة عام ١٤٠٣ ـ في الجزء الأول صفحة (٨١) :

« فصل »

فيما ذكره الشيخ أبو القاسم القشيري في رسالته المشهورة من اعتقاد مشايخ الصوفية فإنه ذكر من متفرقات كلامهم مايستدل به على أنهم كانوا يوافقون

اعتقاد كثير من المتكلمين الأشعرية وذلك هو اعتقاد أبي القاسم الذي تلقاه عن أبي بكر بن فورك وأبي إسحاق الأسفراييني . وهذا الاعتقاد غالبه موافق لأصول السلف وأهل السنة والجماعة لكنه مقصر عنه ذلك ، ومتضمن ترك بعض ماكانوا عليه وزيادة تخالف ماكانوا عليه .

والثابت الصحيح عن أكابر المشايخ يوافق ماكان عليه السلف وهذا هو الذي كان يجب أن يذكر .

فإن في الصحيح الصريح المحفوظ عن أكابر المشايخ مثل الفضيل بن عياض وأبي سليمان الداراني ويوسف بن أسباط وحذيفة المرعشي ومعروف الكرخي إلى الجنيد بن محمد وسهل بن عبد الله التستري وأمثال هؤلاء مايبين حقيقة مقالات المشايخ .

وقد جمع كلام المشايخ إما بلفظه أو بما فهمه هو غير واحد ، فصنف أبو بكر محمد بن إسحاق الكلاباذي كتاب « التعرف لمذهب التصوف » وهو أجود مما ذكره أبو القاسم وأصوب وأقرب إلى مذهب سلف الأمة وأئمتها وأكابر مشايخها . وكذلك معمر بن زياد الأصبهاني شيخ الصوفية ، وأبو عبد الرحمن محمد بن الحسين السلمي جامع كلام الصوفية هما في ذلك أعلى درجة وأبعد عن البدعة والهوى من أبي القاسم .

وأبو عبد الرحمن ـ وإن كان أدنى الرجلين ـ فقد كان ينكر مذهب الكلابية ويبدّعهم ، وهو المذهب الذي ينصره أبو القاسم ، وله في ذم الكلام مصنَّف يخالف ماينصره أبو القاسم .

وأبو عبد الرحمن أجل من أخذ عنه أبو القاسم كلام المشايخ وعليه يعتمد في أكثر مايحكيه فإن له مصنفات متعددة .

وكذلك عامة المشايخ الذين سماهم أبو القاسم في رسالته لا يُعرف عن شيخ منهم أنه كان ينصر طريقة الكلابية والأشعرية التي نصرها أبو القاسم ، بل المحفوظ عنهم خلافها ، ومن صرح منهم فإنما يصرح بخلافها ، حتى شيوخ عصره الذين سمّاهم حيث قال :

« فأما المشايخ الذين عاصرناهم والذين أدركناهم - وإن لم يتفق لنا لقياهم - مثل الأستاذ الشهيد لسان وقته وواحد عصره أبي علي الدقاق ، والشيخ شيخ وقته أبي عبد الرحمن السلمي وأبي الحسن علي بن جهضم مجاور الحرم والشيخ أبي العباس القصاب بطوستان وأحمد الأسود الدينوري وأبي القاسم الصيرفي بنيسابور وأبي سهل الخشاب الكبير بها ، ومنصور بن خلف المغربي وأبي سعيد الماليني وأبي طاهر الجحدري قدس الله أرواحهم وغيرهم » .

فإن هؤلاء المشايخ مثل أبي العباس القصاب له من التصانيف المشهورة في السنة ومخالفة طريقة الكلابية الأشعرية ماليس هذا موضعه .

وكذلك سائر شيوخ المسلمين من المتقدين والمتأخرين الذين لهم لسان صدق في الأمة كما ذكر الشيخ يحيى بن يوسف الصرصري ونظمه في قصائده عن الشيخ علي بن إدريس شيخه أنه سأل قطب العارفين أبا محمد عبد القادر بن عبد الله الجيلي فقال : ياسيدي ! هل كان لله ولي على غير اعتقاد أحمد بن حنبل ؟ فقال : ماكان ولا يكون .

وكذلك نقل الشيخ شهاب الدين أبو حفص عمر بن محمد السهروردي وحدثنيه عنه الشيخ عز الدين عبد الله بن أحمد بن عمر الفاروقي أنه سمع هذه الحكاية منه ، ووجدتها معلقة بخط الشيخ موفق الدين أبي محمد بن قدامة المقدسي : قال السهروردي « كنت قد عزمت على أن أقرأ شيئاً من علم الكلام وأنا متردد هل أقرأ « الإرشاد » لإمام الحرمين أو « نهاية الإقدام » للشهرستاني

أو كتاب شيخه ، فذهبت مع خالي أبي النجيب وكان يصلي بجنب الشيخ عبد القادر ، قال : فالتفت الشيخ عبد القادر وقال لي : ياعمر ! ماهو من زاد القبر ، ماهو من زاد القبر ، فرجعت عن ذلك » فأخبر أن الشيخ كاشفه بما كان في قلبه ، ونهاه عن الكلام الذي كان ينسب إليه القشيري ونحوه .

وكذلك حدثني الشيخ أبو الحسن بن غانم أنه سمع خاله الشيخ إبراهيم بن عبد الله الأرموي أنه كان له معلم يقرئه وأنه أقرأه اعتقاد الأشعرية المتأخرين ، قال : فكنت أكرر عليه ، فسمع والدي والشيخ عبد الله الأرميني ، قال فقال : ماهذا ياإبراهيم ؟ فقلت : هذا علمنيه الأستاذ ، فقال : ياإبراهيم اترك هذا ، فقد طفت الأرض واجتمعت بكذا وكذا وليٍّ لله فلم أجد أحدا منهم على هذا الاعتقاد ، وإنما وجدته على اعتقاد هؤلاء ، وأشار إلى جيرانه أهل الحديث والسنة من المقادسة الصالحين إذ ذاك .

وحدثني أيضاً الشيخ محمد بن أبي بكر بن قوام أنه سمع جده الشيخ أبا بكر بن قوام يقول : إذا بلغك عن أهل المكان الفلاني - سماه لي شيخ محمد - إذا بلغك أن فيهم رجلاً مؤمناً - أو رجلاً صالحاً - فصدّق ، وإذا بلغك أن فيهم ولياً لله فلا تصدق ، فقلت : ولم ياسيدي ؟ قال : لأنهم أشعرية - وهذا باب واسع ومن نظر في عقائد المشايخ المشهورين : مثل الشيخ عبد القادر والشيخ عدي بن مسافر والشيخ أبي البيان الدمشقي وغيرهم وجد من ذلك كثيراً ، ووجد أنه من ذهب إلى مذهب شيء من أهل الكلام - وإن كان متأولا - ففيه نقص وانحطاط عن درجة أولياء الله الكاملين ، ووجد أنه من كان ناقصاً في معرفة اعتقاد أهل السنة ، واتّباعه ومحبته وبغض مايخالف ذلك وذمه بحيث يكون خالياً عن اعتقاد كال السنة واعتقاد البدعة تَجده ناقصاً عن درجة أولياء الله الراسخين في معرفة اعتقاد أهل السنة واتباع ذلك و ﴿ **قد جعل الله لكل شيء قدرا** ﴾ .

وما ذكره أبو القاسم في رسالته من اعتقادهم وأخلاقهم وطريقتهم فيه من الخير والحق والدين أشياء كثيرة ، ولكن فيه نقص عن طريقة أكثر أولياء الله الكاملين ـ وهم نقاوة القرون الثلاثة ومن سلك سبيلهم ـ ولم يذكر في كتابه أئمة المشايخ من القرون الثلاثة ، ومع مافي كتابه من الفوائد في المقولات والمنقولات ففيه أحاديث ضعيفة بل باطلة ، وفيه كلمات مجملة تحتمل الحق والباطل رواية ورأيا وفيه كلمات باطلة في الرأي والرواية و ﴿ **قد جعل الله لكل شيء قدرا** ﴾ . وقال تعالى : ﴿ **كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً** ﴾ ، فكتبت من تميز ذلك مايسره الله واجتهدت في اتباع سبيل الأمة الوسط ، الذين هم شهداء على الناس دون سبيل من قد يرفعه فوق قدره في اعتقاده وتصوفه على الطريقة التي هي أكمل وأصح مما ذكره علماً وحالاً وقولاً وعملاً واعتقاداً واقتصاداً ، أو يحطه دون قدره فيهما ممن يسرف في ذم أهل الكلام أو يذم طريقة التصوف مطلقاً ، والله أعلم .

١٦ ـ وقال أيضا في كتاب « الاستقامة » الجزء الأول صفحة (٩٤) :

وقد ذكر أبو القاسم في ترجمة الشيخ أبي علي بن الكاتب وقد صحب أبا علي الروذباري وغيره وتأخر بعد الأربعين وثلاثمائة قال : « المعتزلة نزهوا الله من حيث العقل فأخطأوا والصوفية نزهوه من حيث العلم فأصابوا » .

قلت : « العلم » في لسان الصوفية ووصاياهم كثيراً مايريدون به الشريعة كقول أبي يعقوب النهرجوري « أفضل الأحوال ماقارن العلم » وكقول أبي يزيد « عملت في المجاهدة ثلاثين سنة فما وجدت أشد عليَّ من العلم ومتابعته ، ولولا اختلاف العلماء لبقيت واختلاف العلماء رحمة إلا في تجريد التوحيد » .

وهذا كقول سهل بن عبد الله التستري : كل فعل تفعله بغير اقتداء طاعةً أو معصيةً فهو عيش النفس . وكل فعل تفعله بالاقتداء فهو عذاب على النفس . وقال أبو سليمان الداراني : ربما يقع في قلبي النُّكتة من نُكت القوم أياماً فلا أقبل منه إلا بشاهدين عدلين : الكتاب والسنة .

وقال صاحبه أحمد بن أبي الحوارى : من عمل بلا اتباع سُنَّة فباطل عمله .

وقال أبو حفص النيسابوري : من لم يزن أفعاله وأقواله كل وقت بالكتاب والسنة ولم يتهم خواطره فلا تعده في ديوان الرجال .

وقال الجنيد بن محمد : الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا من اقتفى أثر الرسول ﷺ .

وقال أيضاً : من لم يحفظ القرآن ويكتب الحديث لايقتدى به في هذا الأمر لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة .

وقال أبو عثمان : من أمر السنة على نفسه قولاً فعلاً نطق بالحكمة ، ومن أمر الهوى على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالبدعة ، قال الله : ﴿ **وإن تطيعوه تهتدوا** ﴾ .

وقال أبو حمزة البغدادي (١) : من علم الطريق إلى الله سهل عليه سلوكه ، ولا دليل على الطريق إلى الله إلا متابعة الرسول في أحواله وأقواله وأفعاله . ومن لفظ « العلم » في كلامهم قول أبي عثمان النيسابوري :

« والصحبة مع الله بحسن الأدب ودوام الهيبة والمراقبة ، والصحبة مع رسول الله ﷺ باتباع سنته ولزوم ظاهر العلم والصحبة مع أولياء الله تعالى بالاحترام والخدمة ، والصحبة مع الأهل بحسن الخلق ، والصحبة مع الإخوان

---

(١) كل هؤلاء الذين ذكر أقوالهم هم من كبار أئمة التصوف وسادات المشايخ الصوفية رحمهم الله تعالى .

بدوام البشر مالم يكن إثماً ، والصحبة مع الجهال بالدعاء لهم والرحمة عليهم » .

ومنه قول أبي الحسين النوري : من رأيتَه يدّعي مع الله حالة تخرجه عن حدّ العلم الشرعي فلا تقتربنّ منه » .

وقال : أعز الأشياء في زماننا شيئان : عالم يعمل بعلمه ، وعارف ينطق عن حقيقته . وقال أبو عبد الرحمن السُّلمي : سمعت جدي أبا عمرو بن نجيد يقول : كل حال لايكون عن نتيجة علم فإن ضرره أكثر على صاحبه من نفعه .

وسئل عن التصوف فقال : الصبر تحت الأمر والنهي .

وسبب تعبيرهم عن الشريعة بالعلم أن القوم أصحاب إرادة وقصد وعمل وحال هذا خاصتهم ، لكن قد يعمل أحدهم تارة بغير العلم الشرعي بل بما يدركه ويجد إرادته في قلبه وإن لم يكن ذلك مشروعاً مأموراً به ، وهذا كثيراً ما يبتلى به كثير منهم من تقديم علمهم بالذوق والوجد على موجب العلم المشروع ومن العمل بذوق ليس معه فيه علم مشروع .

ولاريب أن هذا من اتباع الهوى بغير هدى من الله ، وهو مما ذم الله به النصارى الذين يضارعهم في كثير من أمورهم المنحرفون من الصوفية والعباد ولهذا جعله سهل من حظ النفس .

ولهذا استضعف أبو يزيد متابعة العلم ، فإن مجاهدة هوى النفس يفعلها غالب النفوس مثل عبادات المشركين وأهل الكتاب من الرهبان وعباد الأنداد ونحوهم . وكل ذلك من هذا الباب .

ولهم من الزهد والمجاهدة في العبادة مالا يفعله المسلمون لكنه باطل ليس بمشروع ولهذا لاينتج له من النتائج إلا مايليق به .

والمسلم الصادق إذ عبد الله بما شرع فتح الله عليه أنوار الهداية في مدة قريبة . فالمهتدون من مشايخ العباد والزهاد يُوصون باتباع العلم المشروع ، كما أن أهل الاستقامة من العلم يوصون بعلمهم الذي يسلكه أهل الاستقامة من العباد والزهاد .

وأما المنحرفون من الطائفتين فيُعرضون عن المشروع : إما من العلم وإما من العمل ، وهما طريق المغضوب عليهم والضالين .

قال سفيان بن عيينة : كانوا يقولون : « من فسد من العلماء ففيه شبه من اليهود ، ومن فسد من العباد ففيه شبه من النصارى » .

ولهذا قصد أبو القاسم في « الرسالة » الرد على هؤلاء ، ولما ذكر المشايخ الذين ذكرهم . قال : « هذا ذكر جماعة من شيوخ هذه الطائفة كان الغرض من ذكرهم في هذا الموضع التنبيه على أنهم كانوا مجمعين على تعظيم الشريعة متصفين بسلوك طريق الرياضة متفقين على متابعة السنة غير مخلّين بشيء من آداب الديانة متفقين على أن من خلا عن المعاملات والمجاهدات ولم يبن أمره على أساس الورع والتقوى كان مفترياً على الله سبحانه فيا يدعيه مفتوناً هلك في نفسه وأهلك من اغتر به ممن ركن إلى أباطليه .

وإذا عرف معنى لفظ « العلم » في اصطلاحهم فقول أبي علي بن الكاتب « الصوفية نزهوه من حيث العلم » : أي من جهة الشرع ، وهو الكتاب والسنة ، فنزهوه عما نزه عنه نفسه « فأصابوا » .

وأما المعتزلة فنزهوه بقياس عقلهم وأهوائهم وأرادوا أن ينفوا عنه كل صفة موجودة لظنهم أن ذلك تشبيه ، ولم يهتدوا إلى أن الخالق يُوصف بما يليق به ، والمخلوق يوصف بما يليق به .

وأن الاسم وإن كان متفقاً فالإضافة إلى الله تخصصه وتقييده بما ينفي عنه مماثلة الخلق .

وهذا الذي ذكره الشيخ أبو علي من أن الصوفية يخالفون المعتزلة فأمر متفق عليه ، فإن أصول الصوفية لاتلائم نفي الصفات ، بل هم أبعد الناس عن الاعتزال في الصفات والقدر .

١٧ ـ وذكر أيضا في كتاب « الاستقامة » الجزء الأول صفحة (١٤٤) :

ذكر أبو القاسم بغير إسناد عن الجنيد أنه قال : « إن أول مايحتاج إليه العبد من عقد الحكمة معرفة المصنوع صانعه والمحدَث كيف كان إحداثه ، فيعرف صفة الخالق من المخلوق والقديم من المحدَث ، ويذل لدعوته ويعترف بوجوب طاعته ، فإن من لم يعرف مالِله لم يعترف بالملك لمن استوجبه » .

وهذا الكلام حسن يناسب كلام الجنيد ـ وقد ضمَّن هذا الكلام التميز بين المخلوق والخالق ، لئلا يقع السالك في الاتحاد والحلول كما وقع فيه طوائف وذكر أصلين : التصديق والانقياد ، لأن الإيمان قول وعمل ، فذكر معرفة الصانع ، وذكر الذل لدعوته والاعتراف بوجوب طاعته ، وهذا من أصول أهل السنة وأئمة الشيوخ خصوصاً مشايخ الصوفية .

فإن أصل طريقهم : الإرادة التي هي أساس العمل ، فهم في الإرادات والعبادات والأعمال والأخلاق أعظم رسوخاً منهم في المقالات والعلوم وهم بذلك أعظم اهتماماً وأكثر عناية ، بل من لم يدخل في ذلك لم يكن من أهل الطريق بحال .

١٨ ـ وذكر أيضاً في كتاب « الاستقامة » الجزء الأول صفحة (١٦٣) :

والصوفية يوجد فيهم المصيب والمخطيء ، كما يوجد في غيرهم ، وليسوا في

ذلك بأجل من الصحابة والتابعين ، وليس أحد معصوماً في كل مايقوله إلا رسول الله ﷺ .

١٩ ـ وذكر أيضاً في كتاب « الاستقامة » الجزء الأول صفحة (٢١٢) :

وهذه المسألة : مسألة حد الكلام : قد أنكرها عليهما جميع طوائف المسلمين حتى الفقهاء والأصوليون والمصنفون في أصول الفقه على مذهب أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد يذكرون الكلام وأنواعه من الأمر والنهي والخبر ومافيه من العام والخاص ، وإن الصيغة داخلة في مسمّى ذلك عند جميع فرق الأمة : أصوليها وفقيهها ومحدثيها وصوفيها [١] إلا عند هؤلاء فكيف يضاف هذا القول إلى أهل الأصول عموماً وإطلاقاً ؟

٢٠ ـ وذكر أيضاً في كتاب « الاستقامة » الجزء الأول صفحة (٢٢١) :

ولهذا تجد تنافرا بين الفقهاء والصوفية وبين العلماء والفقراء من هذا الوجه.

والصواب : أن يحمد من حال كل قوم ماحمده الله ورسوله كما جاء به الكتاب والسنة ، ويذم من حال كل قوم ماذمه الله ورسوله كما جاء به الكتاب والسنة ، ويجتهد المسلم في تحقيق قوله : ﴿ **اهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولاالضالين** ﴾ قال النبي ﷺ : اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون .

٢١ ـ وفي كتاب « الاستقامة » الجزء الثاني صفحة (١٥) :

قال معلقاً على حكايات ذكرها الإمام أبو القاسم القشيري عن أبي بكر الشبلي وأبي الحسين النوري فيها شطحات :

---

(١) لاحظ كيف جعل الصوفية فرقة من فرق الأمة المحمدية مثل المحدثين والفقهاء والأصوليين وهذا في كلامه كثير جداً .

ومثل هذه الكلمات والحكايات لاتصلح أن تذكر للاقتداء أو سلوك سبيل وطريقة لما فيها من مخالفة أمر الله ورسوله ، والذي يصدر عنه أمثال هذه الأمور إن كان معذوراً بقصور في اجتهاده أو غيبة في عقله فليس من اتبعه بمعذور مع وضوح الحق والسبيل ، وإن كانت سيئته مغفورة لما اقترن بها من حسن قصد وعمل صالح فيجب بيان المحمود والمذموم لئلا يكون لبسا للحق بالباطل .

وأبو الحسين النوري وأبو بكر الشبلي ـ رحمة الله عليهما ـ كانا معروفين بتغيير العقل في بعض الأوقات ، حتى ذهب الشبلي إلى المارستان مرتين ، والنوري ـ رحمه الله ـ كان فيه وَلَه ، وقد مات بأجمة قصب لما غلبه الوجد حتى أزال عقله .

ومَن هذه حاله لايصلح أن يُتَّبَعَ في حال لايوافق أمر الله ورسوله ، وإن كان صاحبها معذوراً أو مغفورا له ، وإن كان له من الإيمان والصلاح والصدق والمقامات المحمودة ماهو من أعظم الأمور .

فليس هو في ذلك بأعظم من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان ، فإنهم يُتَّبَعُون في طاعة ، ولايذكرون إلا بالجميل الحسن ، وما صدر منهم من ذنب أو تأويل وليس هو مما أمر الله به ورسوله لايتبعون فيه .

فهذا أصل يجب اتباعه .

٢٢ ـ وذكر أيضاً في كتاب « الاستقامة » الجزء الثاني صفحة (٥٦) :

« قال أبو القاسم : واعلموا أن من سنة الحق مع أوليائه أنهم إذا ساكنوا غيراً أو لاحظوا شيئاً أو ضاجعوا بقلوبهم شيئاً شوَّش عليهم ذلك ، فيغار على قلوبهم

بأن يعيدها خالصة لنفسه فارغة عما ساكنوه » .

وقال : سمعت السلمي يقول : سمعت أبا زيد المروزي الفقيه يقول : سمعت إبراهيم بن سنان سمعت محمد بن حسان يقول : بينما أنا أدور في جبل لبنان إذ خرج علينا رجل شاب قد أحرقته السموم والرياح ، فلما نظر إليَّ ولّىٰ هارباً فتبعته وقلت له : تعظني بكلمة ؟ فقال : احذروه فإنه غيور لايحب أن يرى في قلب عبده سواه .

وقال : سمعت السلمي يقول : سمعت النصراباذي يقول : الحق غيور ، ومن غيرته أنه لم يجعل إليه طريقاً سواه .

قلت : هذه الغيرة تدخل في الغيرة التي وصفها النبي ﷺ إذ قال : « غيرة الله أن يأتي المؤمن ماحرم عليه » .

وأعظم الذنوب أن تجعل لله ندا وهو خلقك وتجعل معه إلٰهاً آخر .

والشرك منه جليل ومنه دقيق ، فالمقتصدون : قاموا بواجب التوحيد ، والسابقون المقربون : قاموا بمستحبه مع واجبه .

ولاشيء أحب إلى الله من التوحيد ، ولاشيء أبغض إليه من الشرك .

ولهذا كان الشرك غير مغفور ، بل هو أعظم الظلم .

وقد قال النبي ﷺ : « مثل المؤمن مثل الخامة من الزرع تفيئها الرياح تارة تميلها وتعدلها أخرى ، ومثل المنافق كمثل شجرة الأرز لاتزال ثابتة على أصلها حتى يكون انجعافها مرة واحدة » .

فالله تعالى يبتلي عبده المؤمن ليطهره من الذنوب والمعايب ، ومن رحمته بعبده المخلص أن يصرف عنه مايغار عليه منه ، كما قال تعالى : ﴿ **كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين** ﴾و ﴿ **إنه ليس له**

سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ﴾ صرف عنه مايغار عليه منه كان ذلك من رحمته به واصطفائه إياه ، وإن كان في ذلك مشقة عليه ، فهو تارة يمنعه مما يكرهه له وتارة ليطهره منه بالابتلاء ، فإذا كان يغار من ذلك ، فإذا فعل العبد مايغار عليه فقد يعاقبه على ذلك بقدر ذنبه .

كما قال أبو القاسم : « وحكي عن السرّي أنه قال : كنت أطلب رجلاً صديقاً مرة من الأوقات فمررت في بعض الجبال ، فإذا أنا بجماعة زمنى ومرضى وعميان فسألت عن حالهم ؟ فقالوا : هاهنا رجل يخرج في السنة مرة فيدعو لهم فيجدون الشفاء ، فصبرت حتى خرج ودعا لهم فوجدوا الشفاء ، فقفوت أثره وتعلقت به وقلت له : بي علة باطنة فما دواؤها ؟ فقال : ياسرّي خلِّ عني فإنه غيور لايراك تساكن غيره فتسقط من عينه » .

وهذا من قوله تعالى : ﴿ **لاتجعل مع الله إلهاً آخر فتقعد مذموماً مخذولاً** ﴾ وقوله ﴿ **فلا تدع مع الله إلهاً آخر فتكون من المعذبين** ﴾ وذكر آيات أخرى في المعنى .

٢٣ ـ وذكر أيضاً في كتاب « الاستقامة » الجزء الثاني صفحة (١٥٠) :

فإن جنس اللذة يتعقب إدراك الملائم المطلوب ليس هو مدرك الملائم المطلوب كما يعتقده بعض أهل الفلسفة والكلام ، وكما غلب على أهل التصوف والعبادة ذكر ذلك .

وغلب على كلام العلماء المتكلمين أهل النظر والبحث والكلام أهل البديهة والنظر والضرورة والدليل والاستدلال .

وكل واحد من هذين الأمرين تحته أجناس وأصناف ، بعضها حق وبعضها باطل .

فلهذا وجب اعتبار ذلك جميعه بالكتاب والسنة ، فخير الكلام كلام الله

وخير الهدي هدى محمد .

ولهذا كان أئمة الهدى ممن يتكلم في العلم والكلام أو في العمل والهدي والتصوف يوصون باتباع الكتاب والسنة وينهون عما خرج عن ذلك - كما أمرهم الله والرسول .

وكلامهم في ذلك كثير منتشر مثل قول سهل بن عبد الله التستري : « كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة فهو باطل » .

٢٤ - وذكر أيضاً في كتاب « الاستقامة » الجزء الثاني صفحة (١٦١) :

فإن العقل قد يراد به القوة الغريزية في الإنسان ، التي بها يعقل .

وقد يراد به نفس أن يعقل ويعي ويعلم .

فالأول : قول الإمام أحمد وغيره من السلف « العقل غريزة ، والحكمة فطنة » .

والثاني : قول طوائف من أصحابنا وغيرهم « العقل ضرب من العلوم الضرورية » .

وكلاهما صحيح ، فإن العقل في القلب مثل البصر في العين يُراد به الإدراك تارة ، ويراد به القوة التي جعلها الله في العين يحصل بها الإدراك ، فإن كل واحد من علم العبد وإدراكه ومن علمه وحركته حول ولكل منهما قوة ، ولاحول ولاقوة إلا بالله .

ولهذا تجد المشايخ الأصحاء من الصوفية يوصون بالعلم ويأمرون باتباعه كما تجد الأصحاء من أهل العلم يوصون بالعمل ويأمرون به ، لما يخاف في كل طريقة من ترك ما يجب من الأخرى .

٢٥ ـ وفي كتاب « روضة المحبين ونزهة المشتاقين » صفحة (٢٨١) ذكر الحافظ ابن قيم الجوزية مانصه :

فإن المحب يستأنس بذكر محبوبه وكونه في قلبه لايفارقه ، فهو أنيسه وجليسه لايستأنس بسواه ، فهو مستوحش ممن يشغله عنه .

وحدثني تقي الدين بن شقير قال : خرج شيخ الإسلام ابن تيمية يوماً فخرجت خلفه ، فلما انتهى إلى الصحراء وانفرد عن الناس بحيث لايراه أحد سمعته يتمثل بقول الشاعر[1] : ـ

وأخرج من بين البيوت لعلّني أحدّث عنكم القلب بالسر خاليا

٢٦ ـ وذكر الحافظ عمر بن علي البزّار في « الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية » صفحة (٥٦) مانصه :

الفصل التاسع : في ذكر بعض كراماته وفراسته

أخبرني غير واحد من الثقات ببعض ما شاهده من كراماته وأنا أذكر بعضها على سبيل الاختصار ، وأبدأ من ذلك ببعض ماشاهدته :

فمنها اثنين : جرى بيني وبين بعض الفضلاء منازعة في عدة مسائل وطال كلامنا فيها : وجعلنا نقطع الكلام في كل مسألة بأن نرجع إلى الشيخ وما يرجحه من القول فيها .

ثم إن الشيخ رضي الله عنه حضر ، فلما هممنا بسؤاله عن ذلك سبقنا هو وشرع يذكر لنا مسألة مسألة كما كنا فيه وجعل يذكر ـ غالب ـ ماأوردناه في كل مسألة ، ويذكر أقوال العلماء ثم يرجح منها مايرجحه الدليل ، حتى أتى على آخر ماأردنا أن نسأله عنه ، وبيّن لنا قصدنا أن نستعلمه منه .

---

(١) هو مجنون ليلى ، كما جاء في تزيين الأسواق للأنطاكي .

فبقيت أنا وصاحبي ومن حَضرنا أولا مبهوتين متعجبين مما كاشَفَنا به وأظهره الله عليه مما كان في خواطرنا .

وكنت في خلال الأيام التي صحبتُه فيها إذا بحث مسألة ـ يحضر لي إيراد ـ فما يستتم خاطري به حتى يشرع فيورده ، ويذكر الجواب من عدة وجوه .

وحدثني الشيخ الصالح المقرئ أحمد بن الحريمي أنه سافر إلى دمشق قال : اتفق أني لما قدمتها لم يكن معي شيء من النفقة البتة وأنا لاأعرف أحداً من أهلها ، فجعلت أمشي في زقاق منها كالحائر ، فإذا بشيخ قد أقبل نحوي مسرعاً فسلم وهشَّ في وجهي ووضع في يدي صُرة فيها دراهم صالحة ، وقال لي : أنفق هذه الآن وخلي خاطرك مما أنت فيه ، فإن الله لايضيعك ، ثم رُدَّ على أثره كأنه ما جاء إلا من أجلي ، فدعوت له وفرحت بذلك ، وقلت لبعض من رأيته من الناس : من هذا الشيخ ؟ فقال : وكأنك لاتعرفه ، هذا ابن تيمية ، لي مدة طويلة لم أره اجتاز بهذا الدرب .

وكان جُلُّ قصدي من سفري إلى دمشق لقاءه ، فتحققت أن الله أظهره عليَّ وعلى حالي ، فما احتجت بعدها إلى أحد مدة إقامتي بدمشق ، بل فتح الله عليَّ من حيث لاأحتسب واستدللت فيما بعد عليه ، وقصدت زيارته والسلام عليه ، فكان يكرمني ويسألني عن حالي ، فأحمد الله تعالى إليه .

وحدثني الشيخ العالم المقرئ تقي الدين عبد الله ابن الشيخ الصالح المقرئ أحمد بن سعيد قال : سافرت إلى مصر حين كان الشيخ مقيماً بها ، فاتفق أني قدمتها ليلاً وأنا مثقل مريض ، فأنزلت في بعض الأمكنة ، فلم ألبث أن سمعت من ينادي باسمي وكنيتي ، فأجبته وأنا ضعيف ، فدخل إليَّ جماعة من أصحاب الشيخ ممن كنت قد اجتمعت ببعضهم في دمشق فقلت : كيف عرفتم بقدومي وأنا قدمت هذه الساعة ؟ فذكروا أن الشيخ أخبرنا بأنك

قدِمْتَ وأنت مريض وأمرنا أن نسرع بنقلك ، وما رأينا أحداً جاء ولا أخبرنا بشيء ، فعلمت أن ذلك من كرامات الشيخ رضي الله عنه .

وحدثني أيضاً قال : مرضت بدمشق إذ كنت فيها مرضة شديدة منعتني حتى من الجلوس ، فلم أشعر إلا والشيخ عند رأسي وأنا مثقل مشتد بالحمى والمرض ، فدعا لي وقال : جاءت العافية ، فما هو إلا أن فارقني ، وجاءت العافية وشفيت من وقتي .

........وحدثني أيضاً قال : أخبرني الشيخ ابن عماد الدين المقرئ المطرز قال : قدمت على الشيخ ومعي حينئذ نفقة فسلّمت عليه فرد علي ورحب بي وأدناني ، ولم يسألني هل معك نفقة أم لا ؟ فلما كان بعد أيام ونفدت نفقتي وأردت أن أخرج من مجلسه بعد أن صليت مع الناس وراءه فمنعني وأجلسني دونهم فلما خلا المجلس دفع إليَّ جملة دراهم وقال : أنت الآن بغير نفقة فارتفق بهذه فعجبت من ذلك ، وعلمت أن الله كشفه على حالي أولا لما كان معي نفقة ، وآخرا لما نَفَدت واحتجت إلى نفقة .

وحدثني من لاأتهمه أن الشيخ رضي الله عنه حين نزل المغل بالشام لأخذ دمشق وغيرها ، رجف أهلها وخافوا خوفاً شديداً ، وجاء إليه جماعة منهم وسألوه الدعاء للمسلمين فتوجه إلى الله ، ثم قال : أبشروا ، فإن الله يأتيكم بالنصر في اليوم الفلاني بعد ثالثة حتى ترون الرؤوس معبأة بعضها فوق بعض .

قال الذي حدثني : فوالذي نفسي بيده أو كما حلف مامضى إلا ثلاث مثل قوله حتى رأينا رؤوسهم كما قال الشيخ على ظاهر دمشق معبأة بعضها فوق بعض .

وحدثني الشيخ الصالح الورع عثمان بن أحمد بن عيسى النسَّاج أن الشيخ

رضي الله عنه كان يعود المرضى بالبيمارستان (أي المستشفى) بدمشق في كل أسبوع ، فجاء على عادته فعادهم ، فوصل إلى شاب منهم فدعا له فشُفِي سريعاً وجاء إلى الشيخ يقصد السلام عليه .

فلما رآه هشَّ له وأدناه ، ثم دفع إليه نفقة وقال : قد شفاك الله ، فعاهِدِ الله أن تعجل الرجوع إلى بلدك ، أيجوز أن تترك زوجتك وبناتك أربعاً ضيعة وتقيم ههنا ؟

فقبّل يده وقال : ياسيدي أنا تائب إلى الله على يدك .

وقال الفتى : عجبتُ مما كاشفني به ، وكنت قد تركتهم بلا نفقة ، ولم يكن قد عرف بحالي أحد من أهل دمشق .

.... وبعد أن نقل كرامات كثيرة قال : « قلت : وكرامات الشيخ رضي الله عنه كثيرة جداً لا يليق بهذا المختصر أكثر من ذكر هذا القدر منها » .

٢٧ ـ وذكر أيضاً الحافظ البزار في « الأعلام العلية » صفحة (٨٢) في ذكر موت شيخ الإسلام رحمه الله فقال :

قالوا فما هو إلا أن سمع الناس بموته فلم يبق في دمشق من يستطيع المجيء للصلاة عليه وأراده إلا حضر لذلك وتفرغ له ، حتى غلقت الأسواق بدمشق وعطلت معايشها حينئذ ، وحصل للناس بمصابه أمر شغلهم عن غالب أمورهم وأسبابهم ، وخرج الأمراء والرؤساء والعلماء والفقهاء والأتراك والأجناد والرجال والنساء والصبيان من الخواص والعوام .

قالوا : ولم يتخلف أحد من غالب الناس فيما أعلم إلا ثلاثة أنفس كانوا قد اشتهروا بمعاندته ، فاختفوا من الناس خوفاً على أنفسهم بحيث غلب على ظنهم أنهم متى خرجوا رجمهم الناس فأهلكوهم .

فغُسِّل رضي الله عنه وكفِّن .

قالوا : وازدحم من حضر غُسله من الخاصة والعامة على الماء المنفصل عن غسله حتى حصل لكل واحد منهم شيء قليل .

ثم أخرجت جنازته ، فما هو إلا أن رآها الناس فأكبُّوا عليها من كل جانب كلاً منهم يقصد التبرك بها حتى خشي على النعش أن يُحطم قبل أن يصل إلى القبر ....

واتفق جماعة من حضر حينئذ وشاهد الناس والمصلين عليه على أنهم يزيدون على خمسمائة ألف .

وقال العارفون بالنقل والتاريخ : لم يُسمع بجنازة بمثل هذا الجمع إلا جنازة الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه ......

ولم يُر لجنازة أحد مارُئي لجنازته من الوقار والهيبة والعظمة والجلالة وتعظيم الناس لها وتوقيرهم إياها وتفخيمهم أمرَ صاحبها وثنائهم عليه بما كان عليه من العلم والعمل والزهادة والعبادة والإعراض عن الدنيا والاشتغال بالآخرة والفقر والإيثار والكرم والمروءة والصبر والثبات والشجاعة والفراسة والإقدام والصدع بالحق والإغلاظ على أعداء الله وأعداء رسوله والمنحرفين عن دينه والنصر لله ولرسوله ولدينه ولأهله والتواضع لأولياء الله والتذلل لهم والإكرام والإعزاز والاحترام لجنابهم ، وعدم الاكتراث بالدنيا وزخرفها ونعيمها ولذاتها وشدة الرغبة في الآخرة والمواظبة على طلبها ، حتى لتسمع ذلك ونحوه من الرجال والنساء والصبيان ، وكل منهم يثني عليه بما يعلمه من ذلك .

ودفن في ذلك اليوم رضي الله عنه ، وأعاد علينا من بركاته .

.... وختمت له الختمات الكثيرة في الليالي والأيام في أماكن كثيرة لم يُضبط عددها خصوصاً بدمشق المحروسة ومصر والعراق وتبريز والبصرة وغيرها .

حتى جعل كثير من الناس القراءة له ديدنا لهم ، وأديرت الربعَةُ الشريفة على الناس لِقراءة القرآن المجيد وإهدائه له وظيفة معتادة .

* * *

الإمام أحمد بن حَنْبَل

إمام أهل السنة الإمام أحمد بن حنبل الشيباني

وقد نُقِلَتْ في آخر الجزء الثاني - وهو الأخير - من طبقات الحنابلة للقاضي أبي الحسين محمد بن أبي يعلى قطعة من مقدمة الشيخ الإمام أبي محمد بن تميم الحنبلي [١] ، وهي في عقيدة الإمام المبجل أحمد بن حنبل وفي أصول مذهبه ومشربه رحمه الله تعالى ورضي عنه .

يقول فيها مانصه : (وقد سئل مرة - أي الإمام أحمد - عن المريد ؟ فقال : أن يكون مع الله كما يريد ، وأن يترك كل مايريد لما يريد ....

وكان - أي الإمام أحمد - يعظم الصوفية ويكرمهم ، وقال وقد سئل عنهم وقيل له يجلسون في المساجد ؟ فقال : العلم أجلسهم . وكان يحرم الغناء والألحان في القرآن والشعر ، ويكره غناء القصب ، فأما حدو الأعراب فقال : حدا عبد الله بن رواحة وغيره فلابأس به .

---

(١) قال ابن رجب في الذيل على طبقات الحنابلة « الجزء الأول » صفحة (٧٧) في ترجمته عنه : المقرىء المحدث الفقيه الواعظ شيخ أهل العراق في زمانه ، ولد سنة أربعمائة وقيل سنة إحدى وأربعمائة .....

قال ابن الجوزي : وكان اجتمع للتميمي القرآن والفقه والحديث والأدب والوعظ ، وكان جميل الصورة فوقع له القبول من الخواص والعوام .... وحكي عن ابن عقيل قال : كان سيد الجماعة من أصحاب أحمد بيتاً ورئاسة وحشمة أبا محمد التميمي وكان أحلى الناس عبارة في النظر وأجراهم قلما في الفتيا وأحسنهم وعظا ..

وقال أبو علي بن سكرة في مشيخته : مالقيت في بغداد مثله يعني التميمي ، قرأت عليه كثيراً ، وإنما لم أطل ذكره لعجزي عن وصفه لكماله وفضله .

وقال ابن ناصر : مارأيت شيخاً ابن سبع وثمانين سنة أحسن سمتا وهديا واستقامة منه ولاأحسن كلاما وأظرف وعظا وأسرع جواباً منه ، فلقد كان جمالاً للإسلام كما لقب ، وفخرا لأهل العراق خاصة ولجميع بلاد الإسلام عامة ، وما رأينا مثله ، وكان مقدماً على الشيوخ والفقهاء وشهود الحضرة وهو شاب ابن عشرين سنة فكيف وقد ناهز التسعين سنة .

وقال رحمه الله : طوبى لمن أخمل الله ذكره ، وأرسل إلى عبد الوهاب - يعني الوراق - عليك بالخمول فإني قد بليت بالشهرة .

وسمعت أبا طاهر محمد بن أحمد الغباري الفقيه يقول : قال أحمد بن حنبل رحمه الله : طوبى لمن أخمل الله ذكره .

وكان رحمه الله يمنع من الدخول على الأمراء ويقول : الخلوة أنفع) اهـ .

.... وقال الإمام ابن تميم بعد ماذكر مفصلاً شيئاً من عقائد الإمام أحمد مانصه : (فهذا بعض مانعلمه من اعتقاده ونعرفه من مذهبه سلك الله بنا طريقه وجعل رسوله غدا في الجنة رفيقه وعصمنا من الخوض في الباطل والقدح في الأئمة ، والنسبة إليهم ماقد نزههم الله عنه إن شاء الله) اهـ .

وذكر الإمام الحافظ القاضي أبو الحسين بن أبي يعلى في «طبقات الحنابلة» الجزء الأول صفحة (٣٦) :

(أحمد بن الحسن بن عبد الجبار بن راشد ، أبو عبد الله الصوفي .

سمع علي بن الجعد وأبانصر التمار ويحي بن معين في آخرين ، نقل عن إمامنا (١) أشياء) .

وذكر أيضا في « طبقات الحنابلة » الجزء الأول (٢) صفحة (٧٧) :

(أحمد بن أبي بدر المنذر بن بدر بن النضر ، أبو بكر المغازلي ، الشيخ الصالح البغدادي وكان ثقة ، ويعد من الأولياء العازفين عن الدنيا .

---

(١) أي الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى .

(٢) الجزء الأول من طبقات الحنابلة خاص بتلاميذ الإمام أحمد بن حنبل ومن أخذ عنه واستفاد منه وسمع منه فليلاحظ ذلك .

لقبه « بدر » وهو الغالب عليه ، وذكره أبو بكر الخلال فقال : « كان أبو عبد الله [١] يكرمه ويقدمه ، وعنده عن أبي عبد الله جزء حديث وقع له فيه مسائل أيضاً ، وسمعتها منه .

وسمعت منه حديثاً ، وكنت إذا رأيت منزله ورأيت قعوده شهدت له بالصلاح والصبر على الفقر ، وكان أحمد يخرج الشيء فيقول : أين بدر ؟ ثم يقول : هذه من بابتك يعني أحاديث الزهد ونحو ذلك ، فكان إمامنا يتعجب منه ويقول : من مثل بدر ؟ قد ملك لسانه » .

وقال أبو محمد الجريري : كنت يوماً عند بدر المغازلي وقد باعت زوجته دارا لها بثلاثين ديناراً ، فقال لها بدر : نفرق هذه الدنانير في إخواننا ونأكل رزق يوم بيوم . فأجابته إلى ذلك وقالت : تزهد أنت ونرغب نحن ؟ هذا مالا يكون) .

وذكر أيضاً في « طبقات الحنابلة » الجزء الأول صفحة (٧٨) :

أحمد بن أبي الحوارى [٢] ، واسمه ميمون ، أبو الحسن الدمشقي ، حدث عن جماعة منهم إمامنا ، وبين وفاته ووفاة البغوي إحدى وسبعون سنة .

وقال أحمد بن أبي الحوارى : قال أحمد بن حنبل : متى مولدك ؟ قلت : سنة أربع وستين [٣] ، قال : وهي مولدي .

ومات أحمد بن أبي الحوارى مدخل رجب سنة ست وأربعين ومائتين .

---

(١) أي الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى .

(٢) هو الإمام الصوفي الجليل ومن خاصة أصحاب الإمام الصوفي أبي سليمان الداراني من كبار سادات المشايخ الصوفية رحمهم الله .

(٣) يعني بعد المائة .

وقيل : إنه رمى بكتبه في البحر وقال : نعم الدليل كنتِ ، والاشتغال بالدليل بعد الوصول محال .

وقيل : إنه طلب أحمد بن أبي الحوارى العلم ثلاثين سنة ، فلما بلغ منه الغاية حمل كتبه كلها فغرقها في البحر ، وقال : ياعلم لم أفعل هذا تهاوناً بك ولا استخفافاً بحقك ، ولكن كنت أكتب لأهتدي بك إلى ربي ، فلما اهتديت بك إلى ربي استغنيت عنك وقال : لادليل على الله سواه ، وإنما العلم يطلب لأدب الخدمة . وكان الجنيد يقول : أحمد بن أبي الحواري ريحانة الشام) .

وذكر أيضاً في « طبقات الحنابلة » الجزء الأول صفحة (١٢٧) :

الجنيد بن محمد بن الجنيد أبو القاسم الخزّاز ، ويقال : القواريري ، وقيل : كان أبوه قواريرياً وكان هو خرازا ، وأصله من نهاوند إلّا أن مولده ومنشأه ببغداد .

وسمع بها الحديث ولقي العلماء وصحب جماعة من الصالحين ، واشتهر منهم بصحبة الحارث المحاسبي وسري السقطي ، ثم اشتغل بالعبادة ، وأسند الحديث عن الحسن بن عرفة ونقل عن إمامنا أشياء .

منها : ما أنبأنا عبد الرحمن بن منده قال : أخبرنا علي بن جهضم بمكة حدثنا محمد بن علي الكرخي حدثنا أبو علي الروذباري قال : سمعت جنيداً يقول : جاء رجل إلى أبي عبد الله أحمد بن حنبل ومعه غلام حسن الوجه فقال له : من هذا ؟ قال : ابني ، فقال أحمد : لاتجيء به معك مرة أخرى ، فلما قام قيل : أيد الله الشيخ ، رجل مستور وابنه أفضل منه ؟ فقال أحمد : الذي قصدنا إليه من هذا ليس يمنع منه سترهما ، على هذا رأينا أشياخَنا وبه خبرونا عن أسلافهم .

وقال جعفر الخلدي : قال الجنيد ذات يوم : ماأخرج الله إلى الأرض علما وجعل للخلق إليه سبيلا إلا وقد جعل لي فيه حظاً ونصيباً .

وقال الخلدي : بلغني عن الجنيد أنه كان في سوقه وكان ورده في كل يوم ثلاثمائة ركعة وثلاثين ألف تسبيحة .

قال : وسمعت الجنيد يقول : مانزعت ثوبي للفراش منذ أربعين سنة .

.......وقال الجنيد : ماأخذنا التصوف عن القال والقيل ولكن عن الرجوع وترك الدنيا وقطع المألوفات والمستحسنات ، لأن التصوف : هو صفاء المعاملة مع الله ، وأصله العزوف عن الدنيا كما قال حارثة : « عزفت نفسي عن الدنيا ، فأسهرت ليلي وأظمأت نهاري » .....

قال لي أبو محمد الجريري : كنت واقفاً على رأس الجنيد في وقت وفاته وكان يوم جمعة ويوم نيروز ، وهو يقرأ القرآن فقلت له : ياأبا القاسم ارفق بنفسك فقال : ياأبا محمد مارأيت أحوج إليه مني في هذا الوقت وهو ذا تطوى صحيفتي .

وذكر في « طبقات الحنابلة » الجزء الأول صفحة (١٣٨) :

الحسن بن الليث الرازي صحب إمامنا وحدث عنه بأشياء .

منها : قال : قيل لأحمد : يحبك بشر - يعنون بشر بن الحارث [١] - فقال : لا تعنوا الشيخ نحن أحق أن نذهب إليه ، فقيل له : نجيء به ؟ قال : لا ، أكره أن يُجاء به إليَّ أو أذهب إليه فيتصنَّع لي وأتصنع له فنهلك .

---

(١) هو الإمام الصوفي الكبير المعروف ببشر الحافي .

وذكر أيضاً في « طبقات الحنابلة » الجزء الأول صفحة (١٧٩) :

(قال أبو بكر الخلال : أخبرنا طالب حُرَّة الأذني قال : حضرت أحمد بن حنبل فقال : علامة المريد قطيعة كل خليط لايريد ماتريد) .

وذكر أيضاً في « طبقات الحنابلة » الجزء الأول صفحة (١٨٦) :

(وأنبأنا المبارك عن ابن العشاري عن أحمد بن الجندي قال : سمعت علوان ابن الحسين أبا البشر يقول : عبد الله بن أحمد يقول : سئل أبي ولم لا تصحب الناس ؟ قال : لوحشة الفراق .

وقال عبد الله : كان في دهليزنا دكان ، وكان إذا جاء إنسان يريد أبي أن يخلو معه أجلسه على الدكان ، وإذا لم يرد أن يخلو معه أخذ بعضادتي الباب وكلمه ، فلما كان ذات يوم جاءنا إنسان فقال لي : قل لأحمد : أبو إبراهيم السائح ، فخرج إليه أبي فجلسا على الدكان فقال لي أبي : سلم عليه فإنه من كبار المسلمين أو من خيار المسلمين ، فسلمت عليه فقال له أبي : حدثني ياأبا إبراهيم ، فقال : خرجت من الموضع الفلاني بقرب الدير الفلاني فأصابتني علة منعتني من الحركة فقلت في نفسي : لو كنت بقرب الدير الفلاني لعل فيه من الرهبان من يداويني ، فإذا أنا بسبع عظيم يقصد نحوي حتى جاءني ، فاحتملني على ظهره حملا رفيقاً حتى ألقاني عند باب الدير فنظر الرهبان إلى حالي مع السبع فأسلموا كلهم وهم أربعمائة راهب .

ثم قال أبو إبراهيم لأبي : حدثني ياأبا عبد الله ، فقال له : إني كنت قبل الحج بخمس ليال أو أربع فبينما أنا نائم إذ رأيت النبي ﷺ فقال لي : ياأحمد ، فانتبهت ، ثم أخذني النوم ، فإذا أنا بالنبي ﷺ فقال : ياأحمد حج ، فانتبهت ، وكان من شأني إذا أردت سفرا جعلت في مزود لي فتيتا ففعلت ذلك ، فلما أصبحت قصدت نحو الكوفة ، فلما انقضى بعض النهار إذا أنا

بالكوفة ، فدخلت مسجدها الجامع فإذا أنا بشاب حسن الوجه طيب الريح فقلت : سلام عليكم ، ثم كبرت أصلي ، فلما فرغت من صلاتي قلت له : رحمك الله ، هل بقي أحد يخرج إلى الحج ؟ فقال لي : انتظر حتى يجيء أخ من إخواننا فإذا أنا برجل في مثل حالي ، فلم نزل نسير ، فقال له الذي معي : رحمك الله إن رأيت أن ترفق بنا ؟ فقال له الشاب : إن كان معنا أحمد بن حنبل فسوف يرفق بنا ، فوقع في نفسي أنه الخضر ، فقلت للذي معي : هل لك في الطعام فقال : كل مما تعرف وآكل مماأعرف ، فإذا أصبنا من الطعام غاب الشاب من بين أيدينا ثم رجع بعد فراغنا ، فلما كان بعد ثلاث إذا نحن بمكة) .

وذكر أيضاً في « طبقات الحنابلة » الجزء الأول صفحة (١٨٩) :

(عبد الله بن حاضر الرازي من قدماء مشايخ الرازيين ، وكان من الورعين ، عارفا بآفات النفوس ، وكان كثير المقام ببغداد ، وكان من أقران ذي النون المصري [١] ، روى عن إمام الدنيا أبي عبد الله أحمد بن حنبل الشيباني رضي الله عنه فيا ذكر أبو صالح المؤذن النيسابوري) .

وذكر أيضاً في « طبقات الحنابلة » الجزء الأول صفحة (١٩٥) :

عبد الله بن محمد بن المهاجر ـ أبو محمد ـ يعرف بفوزان ......

قال البرقاني : قال لنا الدارقطني : فوزان نبيل جليل ، كان أحمد يجله .

وذكره أبو بكر الخلال فقال : كان من أصحاب أبي عبد الله الذين يقدمهم ويأنس بهم ويخلو معهم ويستقرض منهم ، ومات أبو عبد الله وله عنده خمسون ديناراً ، أوصى أبو عبد الله أن تعطى من غَلّته ، فلم يأخذها فوزان

---

(١) من مشايخ الصوفية وساداتهم الكبار .

بعد موته وأحله منها .

وقال أبو بكر المطوعي : حدثنا فوزان قال : دخل السجن على أبي عبد الله شاب ـ بعد ضربه ـ ومعه قارورة فيها ماء رائحته رائحة المسك ، وقد هاج عليه الضرب في اليوم الثالث وصعب ، قال : فأتاه الشاب فقال : أقسمت عليك بالله إلا مكنتني من علاجك ، فتركه أبو عبد الله ، فصب عليه ذلك الماء ومسحه فهدأ الضرب وسكن ، فلما رأى ذلك السجان تبع الشاب فقال : لو أعطيتني من هذا الماء ؟ فقال : إن ذلك لايستقيم ، إنه من ماء الجنة أنزله لعقبة آدم بأرض الهند وأنا من سكان ذلك المكان من الجن ، ثم غاب عن عينه ، فأقبل السجان مذعوراً .

وذكر أيضاً في « طبقات الحنابلة » الجزء الأول صفحة (٢٠١) :

وبإسناده « أي أبو بكر المؤرخ » قال : قدم حمدون البردعي على أبي زرعة لكتابة الحديث فرأى في بعض داره أواني وفرشاً كثيرة ، قال : وكان ذلك لأخيه فَهَمَّ أن يرجع ولا يكتب عنه ، فلما كان من الليل رأى كأنه على شط بركة ورأى ظل شخص في الماء فقال : أنت الذي زهدت في أبي زرعة ؟ أعلمت أن أحمد بن حنبل كان من الأبدال فلما أن مات أبدل الله مكانه أبازرعة .

أنبأنا خال أمي أبو القاسم عن أبي عبد الله بن بطة حدثنا أبو حفص بن رجاء قال : سمعت عبد الله بن أحمد بن حنبل يقول : لما قدم أبو زرعة نزل عند أبي فكان كثير المذاكرة له ، سمعت أبي يوما يقول : ماصليت غير الفرض استأثرت بمذاكرة أبي زرعة على نوافلي .

.......قال أبو زرعة : قال يزيد بن ميسرة : لايكون الرجل حكيماً كاملاً حتى يدع شهوات الجسد كلها .